الثقافة وعناصرها

الدكتور
خالد محمد أبو شعيرة

الدكتور
ثائر أحمد غباري

مكتبة المجتمع العربي
للنشر والتوزيع

الإعصار
للنشر والتوزيع

للنشر والتوزيع

للنشر والتوزيع

الثقافة وعناصرها

الثقافة وعناصرها

تأليف

الدكتور
خالد محمد أبو شعيرة

الدكتور
ثائر أحمد غباري

الطبعة الأولى

2015م – 1436هـ

دار الأعصار العلمي للنشر والتوزيع

مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/12/4182)

306

غباري ، ثائر أحمد

الثقافة وعناصرها/ خالد محمد ابو شعيرة ، ثائر أحمد غباري . -

عمان : مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ، 2013

( )ص

ر.إ. : (2013/12/4182)

الواصفات : /الثقافة /

- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية أخرى.

جميع حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

عمان – الأردن

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

الطبعة العربية الأولى

2015م – 1436هـ

مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع

عمان – وسط البلد – ش. السلط – مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس 4632739 ص.ب. 8244 عمان 11121 الأردن

عمان – ش. الملكة رانيا العبد الله – مقابل كلية الزراعة – مجمع سمارة التجاري

www: muj-arabi-pub.com

Email: Info@ muj-arabi-pub.com

Email: Moj_pub@yahoo.com

دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكنيسة - مقابل كلية القدس

هاتف : 96265713906+ فاكس : 96265713907+

جوال : 00962-797950880

الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - شارع الملكة رانيا العبد الله مقابل كلية الزراعة - مجمع سمارة التجاري

هاتف : 96265347917+ فاكس : 96265347918+

info@al-esar.com - www.al-esar.com

ISBN 978-9957-83-396-1 (ردمك)

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	13

الفصل الأول
المدخل إلى الثقافة

مفهوم الثقافة	17
نشأة الثقافة وتطورها	18
مكونات الثقافة	21
خصائص الثقافة	25
وظائف الثقافة	27
مستويات الثقافة	28
السلوك الثقافي	32
التكامل الثقافي	35
التثقيف	40
التثاقف	42
اتجاهات رئيسية في الثقافة	43

الفصل الثاني
القيم والثقافة

مفهوم القيم	49
خصائص القيم	50
أنواع القيم	51

الموضوع	رقم الصفحة

وظائف القيم........................ 52

القيم جزء من الثقافة........................ 54

التربية والقيم........................ 54

نماذج من القيم........................ 55

الفصل الثالث

دور المعتقدات في الثقافة

مفهوم الاعتقاد........................ 61

المراحل الاعتقادية للإنسان........................ 61

أهمية الاعتقاد........................ 62

أنواع المعتقدات........................ 63

الاعتقادات والخرافات السائدة عند الأردنيين........................ 64

الفصل الرابع

العادات والتقاليد عنصر من الثقافة

مفهوم العادات........................ 75

أنواع العادات........................ 75

مميزات العادات........................ 77

وظائف العادات........................ 77

العادات الاجتماعية الحديثة........................ 78

مفهوم التقاليد........................ 79

الفرق بين العادات والتقاليد........................ 81

الثقافة بين العادات والتقاليد........................ 81

الموضوع	رقم الصفحة

رأي ونقد 85

الفصل الخامس

الأخلاق عنصر من مفهوم الثقافة

مفهوم الأخلاق 89

أنواع الأخلاق 89

أهمية دراسة الأخلاق 89

تصنيف الأخلاق 90

مراحل نمو الأخلاق 91

العوامل المؤثرة في الأخلاق 91

نماذج أخلاقية في ثقافة المجتمعات المختلفة 93

المؤسسات الثقافية ودورها في تنمية الحس الأخلاقي 94

توصيات بتطبيق التربية الأخلاقية في البلاد العربية 99

الفصل السادس

النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية

مفهوم النظم الاجتماعية 105

خصائص النظم الاجتماعية 105

وظائف النظم الاجتماعية 106

النظم السياسية 115

الفصل السابع

المهارات ودورها في الثقافة

مفهوم المهارة في الثقافة........ 123

نماذج حضارية من المهارات الثقافية........ 125

الفصل الثامن

الفكر والتفكير وارتباطهما بالثقافة

مفهوم الفكر والتفكير........ 133

مزايا التفكير........ 134

مستويات التفكير........ 135

طرق التفكير........ 136

علاقة الفكر في التربية والثقافة........ 139

الثقافة الإسلامية من منظور طرق التفكير........ 141

استراتيجية تعلم التفكير........ 147

التفكير الناقد في الثقافة........ 149

برامج تعليم مهارات التفكير في الثقافات المختلفة........ 153

الفصل التاسع

العرف وأبعاده الثقافية

مفهوم العرف........ 159

نشأة العرف........ 160

أهمية العرف........ 161

عناصر العرف........ 161

الموضوع	رقم الصفحة

صور العرف........................ 162

أنواع العرف........................ 163

الأبعاد الثقافية للعرف........................ 163

نماذج من العرف في بعض المجتمعات........................ 166

الفصل العاشر

الفن: عنصر من مفهوم الثقافة

الفن والثقافة........................ 175

الفن والتأثير الثقافي........................ 176

الفن وسيلة الثقافة........................ 177

التراث الشعبي وعلاقته بالفن........................ 178

الموسيقى والثقافة........................ 179

الغناء والثقافة........................ 180

التمثيل والثقافة........................ 182

الفصل الحادي عشر

الرسم والنحت والتصوير عمليات إبداعية في الثقافة

مفهوم الإبداع........................ 187

الثقافة الفنية........................ 188

أثر الميكنة في الرسم والنحت والتصوير........................ 189

دور الثقافة في تنمية التذوق الفني في الرسم والنحت والتصوير... 191

الرسم والنحت والتصوير أداة من أدوات التثقيف........................ 192

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الثاني عشر
الرقص الشعبي وعلاقته بالثقافة

مفهوم الرقص الشعبي وعلاقته بالثقافة........ 197
أهم الرقصات الشعبية في المناسبات قديماً وحديثاً كعنصر ثقافي. 199
القيم في الرقص الشعبي........ 205
نماذج من الرقص الشعبي وأهدافه........ 206

الفصل الثالث عشر
الثقافة من زاوية الرواية والقصة القصيرة والشعر

الثقافة والمعايير الجمالية........ 211
الثقافة والأدب........ 211
الثقافة وفن الرواية........ 212
القصة القصيرة والثقافة........ 215
الشعر والثقافة........ 218
الشعر والثقافة العربية........ 219

الفصل الرابع عشر
دور الأساطير في الثقافة

مفهوم الأساطير........ 223
خصائص الأسطورة........ 224
وظائف الأسطورة........ 226
أنواع الأساطير........ 227
الأساطير في الثقافة........ 228

الموضوع	رقم الصفحة

نماذج من الأساطير.................................... 228

الفصل الخامس عشر
الثقافة وعلاقتها بوسائل الاتصال والانتقال

مفهوم الاتصال.................................... 236

أهداف الاتصال.................................... 237

الاتصال والانتقال كعملية.................................... 238

مستوى الاتصال.................................... 239

وسائل الاتصال والانتقال.................................... 240

الاتصال والثقافة.................................... 248

الوظيفة الثقافية لأجهزة الاتصال وأجهزة الانتقال.................................... 251

الوظائف الخاصة لأجهزة الاتصال والثقافة في العالم العربي...... 253

الفصل السادس عشر
من نتاج الثقافة الشخصية

مفهوم الثقافة الشخصية.................................... 257

سمات الثقافة الشخصية.................................... 258

وظيفة الثقافة حيال الشخصية.................................... 260

قواعد تفاعل الفرد مع النمط الثقافي.................................... 263

دراسات في أثر الثقافة في تكوين الشخصية.................................... 264

دوافع الشخصية وتأثرها بالثقافة.................................... 267

عوامل تكوين الشخصية.................................... 268

الثقافة ودورها في تطوير بناء الشخصية.................................... 270

أنواع الشخصية من منظور ثقافي.................................... 273

المراجع.................................... 279

مقدمة:

الثقافة ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وبخاصة إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن، وهي كذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية، فالثقافة تهتم بكل طبقة من طبقات المجتمع بما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، فالثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة، كما تعالج مشكلة الجماهير.

والثقافة كلمة تداولتها كل الأوساط والطبقات والفئات، كما تداولتها ولا تزال كل الأمم والشعوب. كلٌ يتناولها من الزاوية التي تهمه، أو ترضي حاجة عنده، وهي في كل الحالات وكل الاستعمالات، تتحدث عن نفسها، فهي تفصح عن نفسها باعتبارها نتائج لممارسات أهلها. كما تتحدث من خلال الأدوات والأجهزة، والآلات، والعمارات الشاهقة، والبيوت بجميع أشكالها وأحجامها، وتفصح عن نفسها بسلوكاتنا الحياتية، وطريقة تربيتنا لأطفالنا، وأسلوب كتاباتنا، وتاريخنا وكتابة هذا التاريخ، وممارستنا لفنوننا التشكيلية، وأدائنا لرقصاتنا الشعبية، واستعمالنا لأمثالنا، ونحتنا لأشكال، ونماذج تجريدية نابعة من داخلنا، وتصورنا لأمور معينة، وطرقنا في الحصول على أشيائنا.

إنَّ الثقافة تعلمنا كيف يتعامل أحدنا مع الآخر، كما تبين لنا ما نتوقع من بعضنا بعضاً. إنها تدلنا على الطرق التي بها نحل مشكلاتنا الصغيرة والكبيرة، البسيطة والمعقدة، كما تعلمنا طرق التعامل في المناسبات المختلفة في أفراحنا وأتراحنا مع أحيائنا وموتانا، كما ترشدنا الثقافة إلى ما نعبد، ومن نعبد، وكيف نتعامل مع القوى الخفية العليا، فالثقافة إذن مستودع متراكم من المعارف والمعتقدات، والقيم، والفنون، والأخلاق، والعرف، والعادات، وسائر أساليب حفظ البقاء التي اكتشفها الإنسان، باعتباره يعيش بين جماعة تحافظ على هذا التراث وتؤمن به وتؤيده.

وما دام أمر الثقافة هكذا فهي مكتسبة، يكتسبها الإنسان نتيجة عيشه في مجتمع معين، ثمّ إنها مزدحمة ومليئة بالعناصر، فلا بدّ من تعلمها ولا بدّ من معرفة عمومياتها على أقل تقدير، لأنه يستحيل على أي فرد أن يعرف كل شيء عن الثقافة، وأي ثقافة مهما كانت بسيطة فإنها تحتاج تعلم الخبرة والمعرفة واكتسابها.

ومن هنا؛ جاءت فكرة التركيز على عناصر الثقافة وتفصيلها على اعتبار أنّ الثقافة جاءت لتشير إلى ذلك الجزء من الموجودات التي قام الإنسان بنفسه على صنعها، متمثلاً في الأفكار، والمثل، والمعارف، والمعتقدات، والمهارات، وطرق التفكير والعادات، وطرق معيشة الأفراد، وقصصهم وألعابهم، وموضوعات الجمال وأدواته عندهم، ووسائلهم في الإنتاج والتقدم، والموسيقى التي يعزفونها، والنظام الأسري الذي يسيرون عليه، ومعنى الحق والواجب، ووسائل انتقالهم واتصالهم، وغير ذلك.

المؤلفان

الفصل الأول

المدخل إلى الثقافة

المدخل إلى الثقافة

أولاً: مفهوم الثقافة (*Culture*):

1. **لغة:** أصل الثقافة في اللغة العربية مأخوذ من الفعل ثقُف بضم القاف وكسرها، وللفعل ثقُف معانٍ كثيرة، أوردها هندي (1995) كما هي في القواميس العربية، ومن هذه المعاني:
   أ. الحذق والفطنة نقول: ثقِفَ الرجل؛ أي أصبح حذقاً وفطناً.
   ب. سرعة أخذ العلم وفهمه نقول: ثقِفَ الطالب المعلم؛ أي فهمه بسرعة.
   ج. التهذيب والتأديب نقول: ثقّف المعلم الطالب؛ أي هذبه وأدبه.
   د. تقويم المعوج من الأشياء نقول: ثقّف الصانع الرمح؛ أي سوى اعوجاجه.
   ه. إدراك الشيء والحصول عليه كما أشار الله تعالى في قوله: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم} حيث ذكر القرطبي (1967) في تفسيره، أنّ ثقف في الآية الكريمة تدل على الأسر والظفر بالعدو فيكون المعنى: تأسرونهم وتقدرون عليهم وتغلبونهم.
2. **اصطلاحاً:**

هناك تعريفات كثيرة للثقافة أوردها علماء الأنثروبولوجيا، من أبرزها ما يلي:

أ. تعريف كلباتريك Kilpatrick: «هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من أشياء ومظاهر في البيئة الاجتماعية؛ أي كل ما اخترعه الإنسان، أو ما اكتشفه، وكان له دور في العملية الاجتماعية» (الرشدان، 1998).

ب. تعريف كلكهوث Kluckhoha: «هي وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ، السافر منها والمتضمن، العقلي واللاعقلي، التي توجد في وقت معين تكون وسائل إرشاد توجه سلوك الأفراد الإنسانيين في المجتمع» (ناصر، 1989).

ج. تعريف تايلور Tylor: «هي ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والقانون والأخلاق والعادات، والتقاليد، وغيرها من القدرات التي يتحصل عليها المرء كعضو في جماعة» (خليفة، 1983).

د. تعريف ابن خلدون: «العمران الذي هو من صنع الإنسان، بما قام به من جهد وفكر ونشاط ليسد به النقص بين طبيعته الأولى، وخاصة في بيئته حتى يعيش معيشة عامرة زاخرة بالأدوات والصناع» (عطيطي، 1973).

ه. تعريف الجابري: «هي ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتغيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ بها لجماعة بشرية» (الجابري، 1989).

لقد تعدّدت الآراء حول مفهوم الثقافة، ولكننا يمكن أن نجمع كل هذه التعاريف معاً لنخرج بتعريف شافٍ وهو الذي سنتبناه مركزين فيه على عناصره المختلفة، فالثقافة إذن هي: «مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات، والتقاليد، والعادات، والأخلاق، والنظم، والمهارات، وطرق التفكير، وأسلوب الحياة، والعرف، والفن، والنحت، والتصوير، والرقص الشعبي، والأدب، والرواية، والأساطير، والفلسفة، والتاريخ، ووسائل الاتصال والانتقال، وكل ما صنعته يد الإنسان وأنتجه عقله من نتاج مادي وفكري، أو توارثه من الأجيال السابقة، أو أضافه إلى تراثه نتيجة عيشه في مجتمع معين».

ثانياً: نشأة الثقافة وتطورها:

إن تاريخ الإنسان الثقافي هو مثل تاريخه البيولوجي قصة تلاقٍ وقصة تواصل وتجمع، وإذا كان من المحال أن تتصور تكاثر الجنس البشري وتجدد نوعه واستمراره عضوياً بدون – هذا التواصل والتجمع، فإنه كذلك من المستحيل أن نتصور تفتح قدراته الإنسانية، ونمو خبراته اجتماعياً بغير هذا السبيل، فعن طريق تجمع الإنسان بأخيه الإنسان ظهرت الأشكال المختلفة للتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما ظهرت اللغات والديانات والمخترعات التكنولوجية.

والذي نهدف إليه من هذا أنّ الاجتماع الإنساني؛ اجتماع الناس وتواصلهم وتفاعلهم اجتماعياً، هو الأساس الجوهري في نشأة الثقافة ونموها وتطورها وضرورتها، وهذه الثقافة هي ميزة الجنس البشري، والتي يكون بها الإنسان ما هو، ويكون بها المجتمع البشري – متكامل.

ولقد لجأ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا إلى تفسير نشأة الثقافة وتطورها بعامل واحد فقط في نشأة الثقافة لا يتفق ووجهة النظر الاجتماعي المتكاملة:

1. **الجبريون الطبيعيون:**

ويقسمون إلى قسمين هما:

أ. **الجبريون المكانيون الجغرافيون:** فالجبرية المكانية قضى عليها الإنسان أو كاد يفعل؛ إذ إنّ قصة الثقافة هي إلى حد بعيد قصة صراع ضد هذه الجبرية، فقد تمرد الإنسان على البيئة، وتغلب عليها فمهد الأرض واستنبط الماء واستنبت الزرع، وهزم الأبعاد المكانية، فاجتثت الغابات وأنيرت الظلمات، واستأنس الحيوان، وسيطر على الميكروبات، واخترع أشياء كثيرة، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع السيطرة على البيئة الطبيعية (الرشدان، 1998).

ب. **الجبريون الزمانيون:** فالجبرية الزمانية هي التي بشر بها التطوريون المحدثون والقدامى، وقد تأثروا باكتشافات دارون الحيوية، وراحوا يطبقون ذلك المنهج على الدراسات الاجتماعية لكنّهم لم ينجحوا؛ فقد ذهبوا إلى أن التطور الثقافي يبدأ من البسيط ويسير إلى المعقد كما يحدث في عالم الحيوان، وهذا الافتراض لا يفسر لنا ما نشاهده في المجتمعات، بل إن ما حدث حدث ويحدث وهو العكس تماماً متمثلاً ذلك في كثير من جوانب الثقافة كالطقوس الدينية، واللغات بعيدة الانتشار، والنظام العائلي.

2. التفوق العنصري:

يرى أتباع هذا الرأي أنّ الثقافات الكبرى العظيمة اختص بصنعها عنصر معين من الجنس البشري هم الآريون، وأنّ عناصر أخرى من شأنها أن تنتفع بتلك الثقافات وتحافظ عليها، وهي التي تنتمي إلى الجنس الأبيض عامة، وأنّ هناك عناصر أخرى هم الملونون، من السود والصفر، والسمر، وشأنهم في هذه الحياة القضاء على الثقافات العظيمة التي صنعها قوم، وانتفع بها آخرون، وأنّ صيانة الثقافة واجبٌ مقدس، وهذا الواجب يفرض سيادة العنصر الذي يصنع الحضارة، وإخضاع العنصر الذي يفهمها ويصونها، وإفناء العنصر الذي يفنيها ويهدمها، وهذا هو منطق النظرية العنصرية بزعامة الحزب الوطني الاشتراكي.

3. الاقتصاديون:

يرى أتباع هذا الرأي أن الاقتصاد وما ينشئه من علاقات، وما يدفع إليه من نشاط، هو وحده سبب نشأة الثقافة وتطورها، وإنّ كل ما كان وما سوف يكون هو في خدمة هذا النشاط، وصورة من صوره.

4. العوامل الميتافيزيقية الفلسفية النفسية:

يرى أتباع هذا الرأي أن الثقافة تنشأ نتيجة لعوامل ميتافيزيقية أو فلسفية أو نفسية، وهذا الرأي غير سليم؛ لأنها جميعاً من اختراع الإنسان وتصوراته واكتشافاته.

وخلاصة القوْل: إنه من العسير الركون إلى تفسير مقنع بإسناد الثقافة ونشأتها إلى عامل واحد مهما كان ذلك العامل أساسياً وجوهرياً، بل تنشأ عن طريق الأسباب المتعددة المتكاملة؛ فالثقافة كالوليد البشري، أبواه الإنسان والطبيعة معاً، فليست الطبيعة وحدها هي أمه، فلا جبرية مكانية أو زمانية، وليس الإنسان هو وحده هو أبوه، فلا عنصرية، ولا سببية فردية متصلة بنشاطه الاقتصادي أو الفكري، وإنما الثقافة هي الإنسان والطبيعة وما نتج عنهما.

ومن هنا، نستطيع أن نقسم مدارس الاتجاه التطوري الثقافي إلى ما يلي:

أ. **المدرسة التطورية الأولى:** تأخذ هذه المدرسة بالمسلمة القائلة: إن التاريخ الإنساني إنما يتجه في تتابع وحيد، إذ تتطور النظم والعقائد استناداً لمبدأ الوحدة السيكولوجية لبني البشر، ومن هنا تتطور الثقافة في العالم الإنساني، وتتشابه الظروف العقلية والتاريخية.

ب. **مدرسة المنهج المقارب:** تعالج هذه المدرسة هذا التتابع التطوري للنظم والمعتقدات الإنسانية بعقد المقارنات المنهجية المنظمة بين الشعوب والثقافات في سائر المراحل المبكرة، لأطوار الثقافة بحثاً عن المصادر الاثنرويولجية للسمات الثقافية.

ج. **مدرسة الرواسب الثقافية:** تأخذ هذه المدرسة بفكرة البقايا والمخلفات باعتبارها شواهد من الناحية المنطقية وانطلاقاً من أنّ هذا المجتمع موضوع الدراسة، قد مرّ أصلاً بمراحل أقل تطوراً ثمّ تقدم إلى مراحل أكثر تركيباً (إسماعيل، 1986).

ثالثاً: مكونات الثقافة (***Culture Contents***):

يمكن تقسيم مكونات الثقافة في أي مجتمع إلى ما يلي:

أ. العموميات (***Universals***):

وتشمل الأفكار والسلوك وطرق التفكير التي يشترك فيها أفراد المجتمع العاملين جميعهم، وتوجد بصفة عامة عند أعضاء المجتمع كلّه، وتختلف العموميات من ثقافة إلى أخرى، وهي التي تكون الأساس العام للثقافة التي تتميز به ثقافة عن ثقافة أخرى.

وتتضمن العموميات طرق اللبس واللغة والشعائر الدينية وطقوس الأفراح، والعلاقات بين الأفراد ومعاملة الناس في البيئة الواحدة، ومعاملات الجماعة فيما بينها، ويمكن أن تسود العموميات هذه في مرحلة زمنية معينة، وعن طريقها يستطيع الفرد أن يميز الشخص الذي ينتمي إليه إذا ما عرف هذه العموميات.

إن وجود العموميات واشتراك أفراد الجماعة فيها يؤدي إلى ظهور الاهتمامات المشتركة التي تجمع بين الأفراد وتولد بينهم شعوراً بالتضامن وبالمصير المشترك، أما إذا تعارضت الاهتمامات؛ فإن ذلك يؤدي إلى الصراع والتمزق، وتتخذ التربية من عموميات الثقافة وسيلة لتوحيد المجتمع وتماسكه الاجتماعي، فهي التي تكسب أفراد المجتمع الأنماط السلوكية المتشابهة في المراحل الأولى من التعليم (النجيحي، 1976).

ب. الخصوصيات (***Specialties***):

هي تلك العناصر من الثقافة التي تشترك فيها مجموعة معينة من الأفراد لها تنظيمها الاجتماعي الخاص، لا يشترك فيها أفراد المجتمع جميعهم، ففي المجتمعات كلّها نجد أن هناك أشياء يعرفها أو يقوم بها جزء معين من السكان، وتؤدي إلى الصالح العام للجماعة، - ومثال ذلك الرجل العادي لا يعرف الكثير عن عمل النجار ولكن هذا لا يمنعه من — أن يفرق بين الصنعة المتقنة وغير المتقنة (الرشدان، 1999).

وتقسم الخصوصيات إلى الأقسام التالية:

1. **الخصوصيات الطبقية:**

هي السلوكات الثقافية التي تسلكها فئة من المجتمع دون غيرها، ويتضح ذلك في طريقة المعاملات والعلاقات بين أفراد تلك الطبقة وطريقة لباسهم، وتصفهم حيال المشكلات وطريقة حياتهم العامة وسلوكهم.

2. **الخصوصيات المهنية:**

هي العناصر الثقافية، أو السلوكات، أو الممارسات الخاصة بأصحاب مهنة معينة دون غيرهم، فهناك سلوكات ثقافية خاصة بالأطباء مثلاً، وسلوكات أخرى خاصة بالمحامين والحرفين... الخ.

3. الخصوصيات العقائدية:

لكل عقيدة عناصرها الخاصة بها، وتظهر من خلال الطقوس الدينية الخاصة بكل فئة، - فهي تمارس في أوقات معينة وبطريقة محددة- ، ومثال ذلك الطقوس الموجودة عند المسلمين والمسيحيين.

4. الخصوصيات العنصرية:

وتظهر في ممارسة بعض الأقليات الموجودة في المجتمع لأسلوب الحياة التي يعيشونها وممارساتهم لتقاليد عادات وقيم خاصة بهم دون غيرهم في المجتمع الواحد الذي يعيشون فيه ومثال ذلك طريقة اللباس أو التحية أو الطعام (ناصر، 1983).

ج. المتغيرات أو البدائل (***Alternatives***):

هي تلك العناصر الثقافية التي نجدها لدى أفراد معينين، ولكنها لا تكون مشتركة بين أفراد الثقافة جميعهم، بل إنها لا تكون سائدة بين طبقات لها تنظيم اجتماعي معين؛ أي أن هذه العناصر من العموميات يشترك فيها أفراد طبقة اجتماعية أو أفراد مهنة أو حرفة، تشمل مجالات واسعة ومختلفة من الأفكار والعادات والأنماط السلوكية وطرق التفكير، وتظل هذه المتغيرات حائرة على سطح الثقافة حتى تتحول إلى خصوصيات وعموميات فتثبت.

وهناك من العلماء من يقسم عناصر الثقافة إلى:

أ. لب الثقافة:

ويشمل العموميات والخصوصيات في دائرة واحدة مركزها أكثر العناصر ممارسة وتسمى بؤرة الثقافة.

ب. إطار الثقافة:

هي البدائل التي تقع على الإطار الخارجي للدائرة السابقة قد يقبلها البعض ويصبح في لبه ومن خصوصياته، وقد تتعمق لتصبح من العموميات (ناصر، 1987).

يرى بعض علماء الإنسان أنه يمكن تقسيم عناصر الثقافة إلى قسمين كبيرين هما:

1. العناصر المادية:

تُعد الماديات إحدى الجوانب المهمة من مكونات الثقافة الرئيسة من المادة وما ينتج عنها من أشياء مصنوعة مادياً في وضع معين، وتتمثل في السيارات والقطارات والآلات والطرق والعمران والملابس، ولا ريب في أن هذه الماديات جميعها هي من نتاج الإنسان.

2. العناصر اللامادية:

هي من أهم مكونات الثقافة، بل هي الجزء الأساسي منها، وتبدو مظاهر الثقافة اللامادية في الأنماط المتمثلة في التقاليد الاجتماعية للجماعات، والمعرفة، والأفكار، والمعتقدات والقيم، والأخلاق. كما تبدو أيضاً في المشاعر التي تسود جماعة ما.

وتصنف اللاماديات إلى عنصرين رئيسيين هما:

أ. الأفكار: تكوّن الأفكار الأصولية الحقيقة للثقافة وهي أكثر العناصر أهمية ولعلّ الجانب الرئيس من مكونات الأفكار في نظر (بيرستد) ما يندرج تحت مفهوم الحقائق العلمية، والمعتقدات الدينية والخرافات والأساطير والأدب والحكم والأمثال.

ب. **المعايير**: المعيار الاجتماعي هو ميزان أو مقياس أو قاعدة أو طار مرجعي للخبرة والاتجاهات الاجتماعية والسلوك الاجتماعي (مدبولي، 1979).

وهناك من يرى أن الثقافة تتكون من قطاعات رئيسة هي:

1. **المكونات المادية**: أو ما يسمى القطاع المادي للثقافة.
2. **المكونات الاجتماعية**: أو ما يسمى القطاع الاجتماعي للثقافة.
3. **المكونات الفكرية**: أو ما يسمى القطاع الفكري للثقافة.

رابعاً: خصائص الثقافة (***Culture Characteristics***)

يوضح تحليل كل من تعريفات الثقافة وعناصرها المختلفة، أنها تحمل مجموعة من السمات أو الخصائص ***Characteristics***، تميزها عن غيرها من المفهومات التي سعى إلى تحليل خصائصها كلّ من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والنفس والتاريخ.

ومن أهم خصائص الثقافة التي يتفق فيها العلماء ما يلي:

1. **الاستقلالية *Dependent***: تتميز الثقافة بأنها شيء مستقل تماماً عن الأفراد الذين يكتسبونها عن طريق الخبرة أو التعليم، نظراً لأنها جزء من التراث الاجتماعي الذي يورث من جيل إلى آخر. وهي أيضاً حصيلة النشاط الإنساني وأنماط السلوك والتفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.
2. **الاستمرارية *Continuous***: الثقافة لا ترتبط بالأفراد بقدر ما يحتفظ بكيانها لأجيال عدة على الرغم من أن المجتمعات تتعرض لكثير من التغيرات السريعة أو الفجائية، أو قد تفنى الأجيال وتموت أفرادها. ولكن الثقافة وما تشمل من عادات، وتقاليد، وأساطير، وطقوس، ومبانٍ، ومنشآت، وتكنولوجيا، سوف تبقى مستمرة لفترة طويلة، على الرغم من حدوث تعديلات وتطورات على مضمون عناصرها العامة.

3. التعقيد **Complexity**: تمتاز الثقافة – كما وضحها تايلور – بأنها الكل المعقد، الذي يحتوي بالطبع على كثير من العناصر والسمات المتداخلة، فليس من السهولة على الفرد أن يفصل بين مكونها، مثل: الفصل بين العادات والتقاليد، أو القيم والأعراف، أو الطقوس والرموز، أو الأسطورة، أو نوعية الأفعال والسلوك البشري، فجميعها متداخلة ومعقدة، ومن الصعوبة بمكان فصل عناصرها دون الأخرى. وهذا ما ينطلق أيضاً على مجمل العناصر الثقافية المادية، فالفنون الهندسية، مثل: إنشاء الكباري، وطرق الاتصالات؛ فكل هذه العناصر يصعب الفصل بينها، وبين مضمون السمات الثقافية الفنية أو المعمارية في إحدى الدول عن الأخرى.

4. الإشباع **Satisfaction**: للثقافة مجموعة من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية، فهي تكرس لإشباع الحاجات الإنسانية الأساسية، والعمل على رفاهيته وتلبية احتياجاته المستمرة والمتغيرة بمرور الوقت أو الزمن. فالإنسان يسعى دائماً لإشباع غرائزه وانفعالاته ودوافعه وغرائزه المختلفة. علاوة على أن له مطالب أخرى من الثقافة وعناصرها سواء كانت ماديّة أو غير ماديّة؛ فحاجات الإنسان من المأكل والملبس، والمسكن، والتعليم، والتنشئة، والرفاهية، جميعها تستلزم من الإنسان العمل على إشباع تلك الحاجات بصورة أساسية.

5. التكيف **Adaptation**: تمتاز الثقافة بأن لديها خاصية التكيف مع الظروف البيئية المختلفة، فاستعارة سمات ثقافية معينة وانتقالها إلى مجتمعات أخرى، أو إلى شعوب أخرى، تجعلها في موضوع يجب أن تتلاءم فيه مع نوعية العادات والتقاليد والوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي انتقلت إليه، مع حدوث نوع من التعديل والتطور على بعض جوانبها أو عناصرها المختلفة.

6. التكامل **Integration**: تعد خاصية التكامل من الخصائص العامة للعناصر الثقافية، ويحدث هذا التكامل نتيجة التكيف بين الأجزاء الثقافية ونوعية الظروف الاجتماعية. فإذا حدث نوع من التغير في القيم والعادات أو النظم أو القوانين؛ فإنها ما تلبث إلى أن تتكامل مرة أخرى حتى تضمن لذاتها

الاستمرارية، وبالطبع، توجد فوارق بين المجتمعات البسيطة والمعقدة من ناحية التكامل الثقافي نتيجة لعوامل التغير والتحديث والاتصال أو الانتشار الثقافي.

7. الانتقائية **Selection**: لا تنقل الثقافة من جيل إلى جيل أو لا تتوارث الأجيال الثقافة بصورة كاملة، كما لا تنتقل الثقافة من مجتمع إلى آخر بصورة كاملة، وهذا يعد نسبياً مستحيلاً، خاصة، وأنّ الثقافة تعتبر من الأشياء الموروثة، التي ظل جزء منها له طابع الاستمرار، وهذا يعني أن هناك كثيراً من العناصر الثقافية تم اختفاؤها أو طمس معالمها أو نسيانها. فالثقافة، كأشياء ملموسة وغير ملموسة تختلف عن العناصر البيولوجية التي لا تنتقل أيضاً بالكامل عبر الأجيال، فقد يحدث نوع من الانتقاء لهذه العناصر دون الأخرى.

8. التغير **Change**: وتمتاز الثقافة بخاصية أخرى، إذ إنها لا تعد شيئاً جامداً في الكون أو العالم المحيط الخارجي للأفراد والجماعات. لا سيما، أن الثقافة في حالة من الديناميكية المستمرة. فأنماط التكنولوجيا من مبان ومنشآت واختراعات متعددة في حالة من التغير والتطور. وهذا ما ينطبق أيضاً، على المكونات الثقافية غير الماديّة، مثل: العادات، والتقاليد، والفنون، والأفعال، والنظم الاجتماعية، وهذه المكونات تعتريها عوامل التغير المستمر. وقد يحدث نوع من التغير السريع على الجوانب المادية التكنولوجية، والتغير البطيء على الجوانب غير الماديّة، وهذا ما وضحه لنا عالم الاجتماع وليم أوجبرن في نظريته عن التخلف الثقافي Cultural Lage (عمار، 1998).

خامساً: وظائف الثقافة (*Culture Functions*)

تعددت مكونات الثقافة وعناصرها في جوانبها المختلفة سواء أكانت ثقافة مادية أم غير مادية، فجميعها موجهة لإشباع الحاجات الأساسية للإنسان، لتحقيق أعلى درجات من الرفاهية للجنس البشري. وتقاس درجات الرفاهية والتقدم في المجتمعات الغربية أو المتحضرة، بما لديها من مستويات وإمكانات ثقافية، تهدف إلى

إسعاد شعوبها في مختلف الوسائل. حقيقة، لقد تعددت وظائف الثقافة سواء أكان ذلك للفرد، أم للجماعات، أم للأسرة، أم للمجتمع كله.

وتحقق الثقافة بالنسبة لحياة الجماعة أهدافاً هامة ووظائف أساسية أهمها:

1. تمد الأفراد بمجموعة من الأنماط السلوكية لتحقيق حاجاتهم البيولوجية من مأكل وملبس ومشرب ومسكن وتناسل للمحافظة على بقاء الجماعة واستمرارها.
2. تمدهم بمجموعة من القوانين والنظم التي تتيح التعاون بين أعضائها مما ينتج عنه تكيف الجماعة مع المواقف البيئية المختلفة وتوحيد استجابتها لمواقف معينة.
3. تقدم الثقافة لأعضائها الوسائل المختلفة التي تهيئ لهم التفاعل داخل الجماعة مما يهيئ قدراً من الوحدة يمنعها من السقوط في أنواع الصراع المختلفة.
4. تخلق حاجات يكتسبها الفرد، ثم تمده بوسائل إشباعها، فالاهتمامات الجمالية والأخلاقية والدينية تخلقها الثقافة ثم تهيئ للفرد وسائل إشباعها.

سادساً: مستويات الثقافة (***Culture Standard***)

- يمكن النظر إلى الثقافة بأنها نظام كلي ينقسم إلى أنظمة فرعية يطلق عليها المستوى الثقافي الأول للثقافة، وتنقسم هذه الأنظمة الفرعية إلى أنظمة فرعية أخرى يطلق عليها المستوى الثاني للثقافة، وتنقسم هذه بدورها إلى أنظمة فرعية أخرى يطلق عليها المستوى الثالث للثقافة، وهكذا... وتستمر عملية انقسام النظام الكلي للثقافة إلى نظم فرعية (مستويات) صغيرة كلما أمكن ذلك. ويمعنى آخر، هناك ثقافة أو وثقافات متفرعة عنها. ولنأخذ على سبيل المثال الثقافة الشرقية التي هي جزء من

الثقافة العالمية، إذ تنقسم إلى ثقافة صينية وثقافة هندية وثقافة باكستانية وثقافة عربية... الخ (المستوى الأول). وتنقسم كل ثقافة من هذه الثقافات إلى ثقافات فرعية أخرى (المستوى الثاني)، وينقسم الثاني إلى مستوى ثالث ورابع... الخ، وكلما أمكن ذلك. ولنأخذ الثقافة العربية على سبيل المثال التي هي ثقافة فرعية من الثقافة الشرقية، ويمكن النظر إليها أيضاً بأنها ثقافة كلية إذا ما أخذت منفصلة عن الثقافات الشرقية الأخرى. وتنقسم الثقافة العربية إلى ثقافة أدنية وفلسطينية وثقافة سورية وثقافة جزائرية... الخ. وإذا ما أخذنا الثقافة الأردنية مثلاً يمكن تقسيمها أيضاً إلى ثقافة الشمال وثقافة الوسط وثقافة الجنوب، أو إلى ثقافة إربد وثقافة جرش وثقافة البلقاء وثقافة الزرقاء وثقافة الكرك وثقافة معان وثقافة الطفيلة... الخ. وعلى هذا الأساس يمكن تحديد ثقافات فرعية في كل مجتمع وفقاً لمتغيرات عديدة كالعمر أو المستوى التعليمي أو المهنة أو الانتماء الطبقي أو الديني أو غيرها. وبذلك الثقافة الفرعية ثقافة قطاع متميز من المجتمع لها جزء ومستوى ما للمجتمع من خصائص، بالإضافة إلى انفرادها بخصائص أخرى.

(يوضح الشكل الآتي المستويات التركيبية للثقافة)

شكل رقم (1)

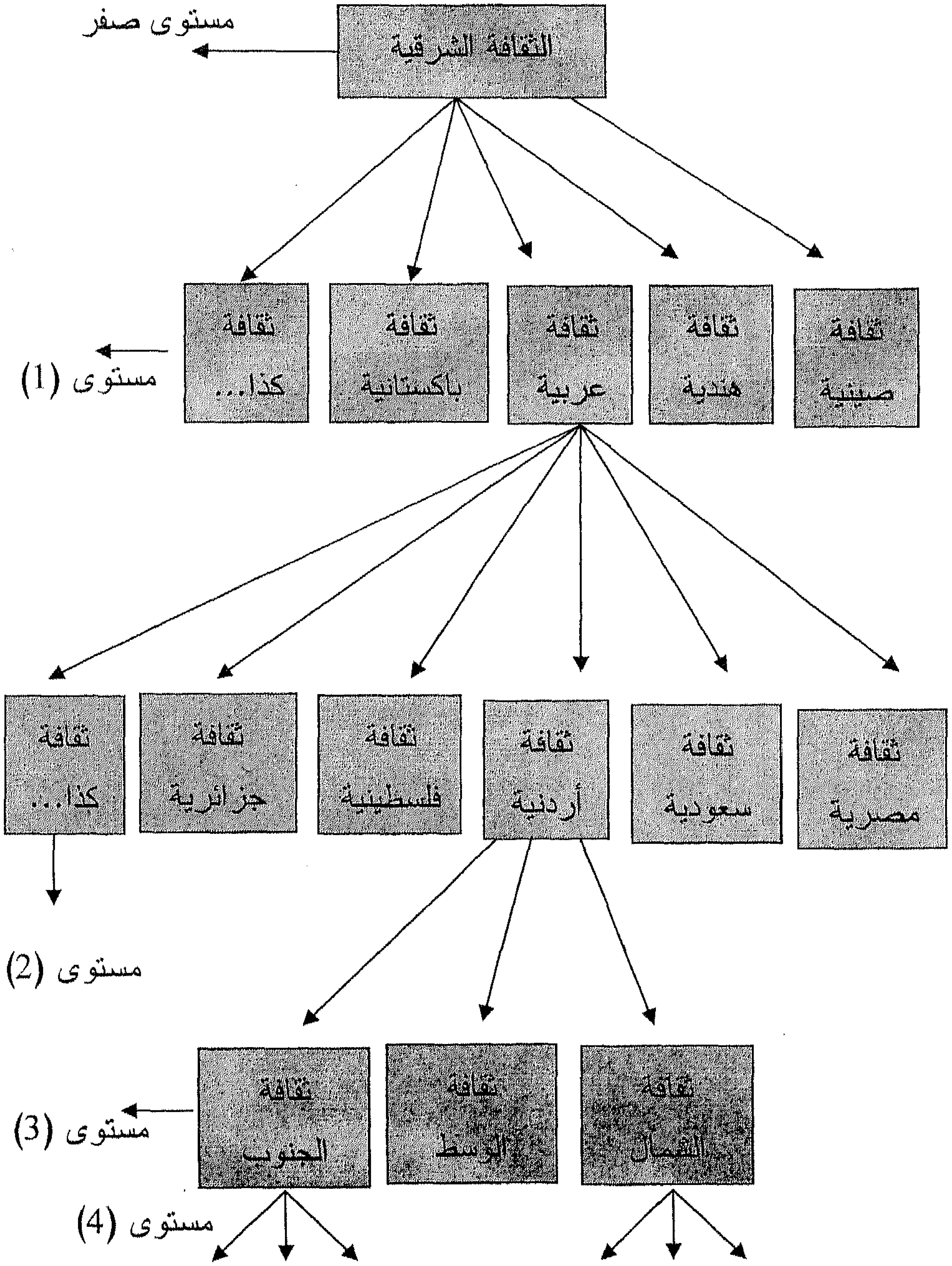

ويمكن تقسيم ثقافة المجتمع إلى نظم فرعية أيضاً كما هو مبين في الشكل رقم (2)

شكل رقم (2)

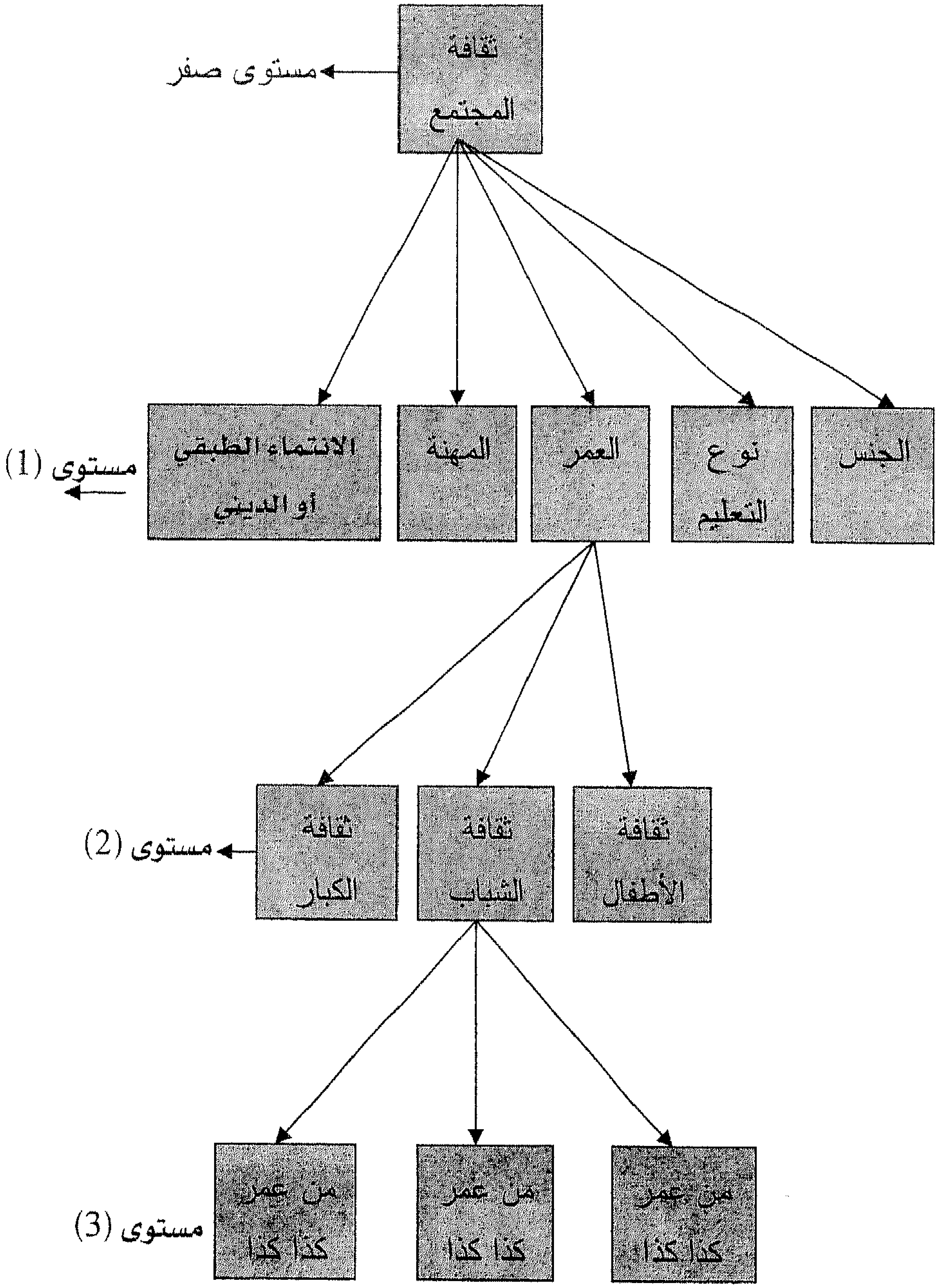

وقد قسم بعض العلماء الثقافة أيضاً بحسب طبيعة الحياة التي تعيشها جماعة معينة إلى مستويين هما: الثقافات البدائية البسيطة، والثقافات المتحضرة (المتمدنة، المتقدمة)، وقسمها بعضهم بحسب الطريقة التي تعيشها جماعة معينة، فمثلاً هناك مستوى ثقافي بدائي، ومستوى ثقافي رعوي، ومستوى ثقافي زراعي، ومستوى ثقافي صناعي، ومستوى ثقافي تكنولوجي...الخ بينما قسمها آخرون بحسب طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، فهناك الثقافة البدوية، والثقافة الريفية المدينة. (همشري، 2001، 157- 158).

سابعاً: السلوك الثقافي:

الإنسان بصفته مخلوقاً بشرياً لديه القدرة الكاملة على التعلم والتفكير الرمزي، وما يمكن أن يتعلمه يعتمد كلياً على ما يقدم إليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعملية التعلم تتوقف على عامل الخبرة، والوعي والإدراك للعناصر المحيطة بالتعلم، فالثقافة لها دورٌ بارز في مساعدة الفرد على التبوء بالسلوك الإنساني؛ إذ إن معرفتنا بثقافة مجتمع ما تسهل علينا معرفة ما يمكن أن يصدر عن أفراد ذلك المجتمع من سلوكات لدى احتكاكهم مع غيرهم من الأفراد، أو تفاعلهم، أو بناء علاقات اجتماعية معهم، سواء كان ذلك ضمن إطار المجتمع الواحد أو خارجه (المعايطة، 2006).

ومن المعلوم أنّ السلوك الثقافي لا ينتقل بالوراثة، وإنما يكتسب من خلال الأسرة والرفاق والمدرسة والمجتمع على نحو عام. وتقع على عاتق المجتمع هنا مسؤولية تقديم قاعدته الثقافية لأفراده بطريقة منظمة ومفهومه ومتكاملة، فلكل مجتمع تراثه الثقافي الذي تراكم عبر تاريخه الطويل وتفاعلاته مع المجتمعات الأخرى، ويكتسب الفرد من خلال تعايشه مع هذا التراث أدواره المختلفة: (ثقافية، اجتماعية) باختلاف مراحل العمر، وباختلاف جنسه وطبقته الاجتماعية وطبيعة العمل الذي يمارسه، ويكوّن عادات وقيماً موجهة لسلوكه، ويجد نفسه منتمياً لمؤسسات اجتماعية تشعره بمكانته في مجتمعه، وتعطي لحياته معنى جديداً

بالنسبة لعلاقته مع الآخرين، وبمعنى آخر أن لكل فرد مركز معين في الثقافة، ومرتبة تعتمد على هذا المركز، وغالباً تكون قائمة على العمر أو الجنس أو الوظيفة أو الطبقة الاجتماعية...، ويتأثر السلوك الثقافي للفرد بمركز الفرد ورتبته الثقافية والاجتماعية بدرجة كبيرة (عريفج، 2006).

ويتأثر السلوك الثقافي للفرد غير السابق بعوامل أخرى منها:

أ. مدى وعي الفرد ونضجه الثقافي، ويقصد بالوعي: سلامة المعرفة لدى الفرد، إذ تسند إلى تعميق الإدراك لثقافة مجتمعة وتأصيله، فدرجة معرفة الفرد بثقافة مجتمعه ودرجة استيعابه لها وتاريخها، وعمق رؤيته لها، تؤثر بدرجة كبيرة في سلوكه الثقافي؛ لذا يقع على عاتق الفرد السعي بكل طاقاته وقدراته ووسائله لاستيعاب مفردات ثقافته وعناصرها.

ب. مدى إشباع الفرد لحاجاته المختلفة وخاصة الثقافية منها. فغالباً ما يتقرر نوع السلوك الإنساني الثقافي بمدى إشباع الفرد لحاجاته.

ج. مدى توافر المعايير، إذ ينبغي أن توفر الثقافة للأفراد المعاني والمعايير التي يميزون في ضوئها بين ما هو مناسب أو غير مناسب من السلوك، وما هو طبيعي أو غير طبيعي، وما هو عادي أو ير عادي، وما هو جميل أو غير جميل.

د. مدى الانفتاح على الثقافات الأخرى، إذ تحرص المؤسسات التربوية التقليدية على حماية الفرد والمجتمع على حد سواء من المتغيرات الثقافية الواردة من ثقافات أخرى، لمجرد أنها حملت تجديداً؛ فقد تؤدي إلى عزل الفرد عن مجتمعه ما دامت هذه المتغيرات أخذت طريقها إليه، فيعيش في حالة اغتراب ثقافي يؤدي إلى تخبط في السلوك، ويجب على التربية هنا أن تجعل هذه المتغيرات الثقافية موضوعاً للدرس والنقاش، وإلاّ فإنها قد تكون أبعدت نفسها عن الواقع، وأصبحت منعزلة عما يجري حولها.

ه. مدى التناقض، ليس أسوأ من أن يجد الأفراد أنفسهم يعيشون في تناقضات مختلفة ضمن المجتمع الواحد، من خلال ما يدور داخل أسوار المدرسة مع ما يجري خارجها، وتناقض التربية الأسرية مع ما يجري في مجتمع الرفاق أو

في إطار العمل، وتكون مؤسسات المجتمع غريبة بعضها عن بعض بدل أن تكون متصلة ومتكاملة؛ فهذا التناقض يؤدي إلى تشويش السلوك الثقافي وتخبطه.

1. من الذي يعطي السلوك الثقافي؟

المعطي هو أي شخص يحمل أنماط سلوك غير معروف لدى الآخرين أو جديد بينهم، ويتضمن كل أنواع السلوك الإبداعي الأصيل الجديد على الآخرين، وهذا الفرد يكون مدعماً بمعلوماته وخبراته وجهوده لإحداث التغيير من خلال أنشطته المختلفة المستمرة، ومن المعلوم أن المعطي يُعطي الحق من قبل المجتمع لتقديم أنواع معينة من السلوك، مثال ذلك المعلم الذي يسمح له بتقديم سلوك ثقافي معين، ولا يسمح له بتقديم سلوك ثقافي آخر. (ناصر، 1983).

2. من يتعلم السلوك الثقافي؟

الأفراد العاديون في المجتمع هم المتلقون لمحتوى السلوك الثقافي وهم المتعلمون، وتحدد العوامل البيولوجية أنواع السلوك التي يجب أن يشارك فيها المعلمون، فمن الناحية البيولوجية يعتمد حق الفرد في تعلم أنواع معينة من السلوكات لكل رئيس على جنسه وعمره.

إذ تتعلم الإناث سلوكات (العناية بالأطفال، والحياكة، والطبخ) إذ تختلف عن تلك السلوكات التي يتعلمها الذكور التي تتعلق بالأعمال الجسدية الشاقة، ويحتاج الأطفال إلى تعلم سلوكات ثقافية تختلف عنها لدى الكبار، ويكون الكبار في غالبية الأحيان هم المعطون السلوك الثقافي للأطفال، إذ يحاول الكبار مثلاً، إبعاد الأطفال عن المواقف غير الحميدة والمؤلمة. (ناصر، المرجع السابق).

ونستطيع القول: إنّ السلوك الثقافي عام ويتعلمه الجميع كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً كلّ حسب ما يقرره المجتمع، وفي ظل التراث الثقافي، ورضا النظام الاجتماعي.

ثامناً: التكامل الثقافي Cultural Integration

هو العملية التي يتم بها اندماج عنصر ثقافي جديد في حياة جماعة من الجماعات سواء أكان هذا العنصر الثقافي قد انتقل إلى هذه الجماعة عن طريق الاتصال بجماعة أخرى أم كان تجديداً من داخل الجماعة (النجيحي، 1981).

ونسارع إلى القول: إنّ العناصر اللامادية يصعب اندماجها في الثقافة إذ إنها تحتاج إلى وقت وجهد أكثر مما تحتاجه العناصر المادية، والعناصر اللامادية ترتبط ارتباطاً كبيراً بنسيج الحياة التي يعيشها مجتمع من المجتمعات، وهذا التكامل معناه أنّ هناك قدراً معيناً من الانسجام الداخلي والارتباط الوظيفي بين عناصر الثقافة المختلفة، عناصر المجتمع المختلفة، ويضمن للثقافة عدم انحلالها، وعدم وجود هذا التكامل في الثقافة يسبب اضطراباً للفرد ويفقد المجتمع كفاءته، وتظهر أنواع من الصراع قد تكون خطيرة؛ لما يترتب عليها من فقدان للتكيف داخل الجماعة.

ومن مظاهر عدم التكامل في الثقافة أن يكون هناك نظام ديمقراطي يسود الناحية السياسية بينما تكون هناك أتوقراطية في الناحية الاقتصادية ، والاقطاع والاستغلال في الناحية الزراعية.

وليس معنى التكامل الثقافي أن تظل الثقافة على حال واحدة من الجمود والثبات أو أن يكون التكامل تاماً فحسب، بل يمكن للثقافة أن تمر بعملية تغيير وتحويل نتيجة مرونتها. وتتحدث (روث بنديكت) Ruth Benedict عن النمط الثقافي الذي يسود ثقافة من الثقافات، فعندما نتفحص العناصر المكونة لمحتوى ثقافة ما، فإننا نجد أنّ هذه الثقافة تدور حول مركز معين هو النمط الثقافي. ولقد استطاعت الثقافات في مستوياتها التطورية جميعها أن تحقق هذا التكامل، ولقد أجرت بنديكت بعض البحوث في هذا الصدد على أربع مجموعات بدائية من قبل الهنود الحمر سكان السهول، وقبائل الزوني في الساحل الجنوبي الغربي، وقبائل الكواكيوتل في الساحل الشمالي الغربي، والدبوان في ميلانيزيا.

وتوصلت الدراسة إلى أن النمط الثقافي العام الذي يميز كل ثقافة من هذه الثقافات هو على النحو التالي:

- الديونيزي (المهووس).
- الأبولوني (المعتدل).
- جنون العظمة.
- النمط الشبيه بالفصامي الهذائي.

وهذه الدرجة العالية من التكامل لا تستطيع أن تصل إليها الثقافات جميعها (الرشدان، 1999).

1. مراحل التكامل:

يمر التكامل الثقافي بثلاث مراحل حتى تصبح العناصر الجديدة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة:

أ. **المرحلة الأولى:** تقديم العنصر الجديد للمجتمع، وتعريفه به عن طريق الوسائل العديدة ابتداءً من الاستعمال الفردي إلى استخدام حملات الدعاية، ويقدر محاول الأفراد الذين لهم مصالح في بقاء الوضع الراهن أن يسدوا الطريق على العناصر الثقافية الجديدة في هذه المرحلة.

وقد تكون هذه المقاومة قوية قوة الإيمان بالقديم، والشك في الجديد، وترجع مقاومة الأشخاص للتجديد المادي والاجتماعي باعتباره خطراً يهدّدهم ويهز كيانهم وتكامل شخصياتهم هزاً عنيفاً، ومنهم من يلجأ إلى الهروب منه ليريح نفسه من الاعتراف بالجديد ومناقشته، وهذان العاملان الأساسيان المعوقان لعملية تكامل العناصر الثقافية الجديدة هما: المجهودات القصدية الواسعة التي يقوم بها أصحاب المصالح الخاصة، وجحود الأفراد الإنسانيين على نمط ثقافي معين.

ب. مرحلة قبول العناصر الثقافية الجديدة، والعناصر المعارضة السابقة تستجمع هنا لتحديد قبول العناصر الجديدة وضعها واستعمالها، وإذا مرت العناصر الجديدة من المرحلة الأولى بسلام؛ فإنّها في هذه المرحلة يجب أن تدعم قواها. وأن تثبت أنّ لها فائدة، وأنها تحقق حاجة من الحاجات الأساسية في المجتمع، وعليها كذلك أن تكمل خوض المعركة ضد القديم، هذه المعركة التي لا تفتر في أي مرحلة من المراحل.

ج. مرحلة التكامل والاندماج، إذا ما استطاعت العناصر الثقافية الجديدة أن تمر بالمرحلتين السابقتين بنجاح، فإنّ هذه العناصر الجديدة يجب أن تحتل مكانها في النمط الثقافي في زمان ومكان محددين، وعدم الوصول إلى التكامل الثقافي سوف يسبب مشكلات اجتماعية خطيرة (النجيحي، 1981).

2. **مكونات التكامل:**

التكامل في الجماعة أو المجتمع، هو مجموعة الروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض، وهذه الروابط تختلف من جماعة إلى أخرى، ولهذا نجد جماعات تامة التكامل وأخرى غير تامة التكامل؛ وليس معنى هذا أن هناك طرفين للتكامل. ولكن في الواقع نجد درجات متعددة. ومثال ذلك أنّ الأسرة تكون عالية التكامل من حيث الإنتاج الاقتصادي، ضعيفة التكامل من حيث الروابط الاجتماعية، إذن ما هي المكونات التي تسهم في عملية التكامل؟

أ. **التكامل الآلي والعضوي:**

يقال إن التساند الذي يترتب على تقسيم العمل يعد عاملاً تكاملياً، وخير ما نفهم به هذا الموضوع أن نبرز العوامل والأسباب التي تجعل الأفراد يبقون في الجماعة أو ينصرفون عنها، وتعطينا الأسرة خير مثال على ذلك، ما الذي يقرر أنّ الرجال والنساء الذين تزوجوا سيبقوا متزوجين؟ أحد العوامل هو كفاية تقسيم العمل بين الزوج والزوجة، لأنّ الزواج وإن كان علاقة جنسية، إلاّ أنه علاقة

اقتصادية مهمة أيضاً، ولذلك كان الزواج تنظيماً فعالاً لإشباع الحاجات اللازمة للبقاء، ومعنى ذلك أن تقسيم العمل في الأسرة، أو في الجماعة أو في المجتمع يؤدي إلى التساند، فأعضاء الجماعة الواحدة يحتاج كل واحد منهم إلى الآخر، والحاجة المنبسطة تربط الجماعة معاً. وقد أشار دور كايم إلى أنّ هذا النمط من التكامل الجماعي المترتب على تقسيم العمل يعد تكاملاً آلياً **Mechanical**، وهناك نمط آخر من التكامل يحدث عندما يعمل الأفراد في عمل متشابه، فيسمى التكامل حينئذٍ تكاملاً عضوياً (**Organic**) والعمل المتشابه هنا هو العمل الذي تعمله جماعة معينة في مقابل عمل الجماعة الأخرى، ولذلك فالآلية والعضوية هنا مقتصرة على الجماعة لا على المجتمع؛ لأن دور كايم يقصد عكس ذلك بالنسبة للمجتمع ككل. (**Ogburn**, 1967).

ب. التكامل المعياري:

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له ثقافة، ولذلك قد تكون الثقافة في حد ذاتها عاملاً تكاملياً في الحياة الجماعية، وقد تبدو هنا أهمية المعايير الجماعية التي تنظم سلوك الأفراد، ومعنى هذا أن الاتفاق حوْل الآراء أوْ القيم في الجماعة يؤدي إلى ما يمكن أن نسميه الرضا العام أو الإجماع، ولذلك كان الرضا العام مقياساً من مقاييس التكامل.

وهناك ميلٌ عام إلى اعتبار الأصدقاء أحسن الناس، وأبناء الثقافة التي ننتمي إليها أفضل البشر، والمجتمع الذي نعيش فيه أفضل المجتمعات، ولكننا نلاحظ أن اشتداد هذا الميل أو ظهوره في اتجاهات السلوك يميز المجتمعات المنعزلة. ولذلك كان الاتصال الثقافي بثقافات أخرى يعدل هذه الميول عن طريق اطلاع الفرد على أنماط أخرى في الحياة قد تكون أفضل من نمط عند المقارنة، وعند ذلك قد يؤمن الفرد بالنسبية الثقافية حين تقدر كل ثقافة في ضوء ظروفها وقيمها.

ج. التكامل الاجتماعي النفسي:

التكامل يشتمل على اتفاق أو رضا عام حوْل معايير الجماعة، والرضا العام هو في الواقع ظاهرة اجتماعية نفسية، ولكن هناك ما هو أكثر من الرضا العام يشتمل عليه التكامل، وهو الشعور بالإشباع والراحة الذي نسميه الروح المعنوية؛ فالتماسك الجماعي يقوم إلى حد ما على الروح المعنوية، وهي شعور يبنى أساساً حول الإشباع أو عدمه (الرشدان، 1999).

3. العوامل المؤثرة في التكامل:

هناك عوامل تؤثر بالتكامل إما زيادة أو نقصاناً وهي:

أ. **حجم الجماعة:** تعد الجماعة ذات الحجم الصغير أكثر تكاملاً من الجماعة ذات الحجم الكبير، وهذا راجع إلى كثافة العلاقات في الجماعة الأخيرة واتساع مداها.

ب. التجانس: يرتبط حجم الجماعة على أساس كم التفاعل بطريقة مباشرة وعلى أساس فرص الاتفاق أو الرضا العام بطريقة غير مباشرة. ومن السهل أن تحصل على اتفاق في جماعة صغيرة، ومن الصعب أن تحصل عليه في جماعة كبيرة، وهذا ما يجعلنا ندخل التجانس عاملاً من عوامل التكامل في الجماعة. فالتجانس أكثر ظهوراً في الجماعة الصغيرة منه في الجماعة الكبيرة، والتجانس ينبع من التشابه، وخصوصاً التشابه في المهنة أو الأهداف أو التنظيم الأسري، وينبع اللاتجانس من الاختلاف في هذه المسائل (غيث، 1962).

ج. **التنقل الفيزيائي:** يعمل التنقل الفيزيائي ضد التكامل، لأن التكامل يفترض البقاء في الجماعة أو الرغبة في البقاء، ولما كان التنقل عملاً يفرق الفرد أو الأفراد ويبعدهم عن الجماعة، فإنه يصبح بهذه المنزلة عاملاً من عوامل انعدام التكامل، وإذا كان التحرك يتجه إلى ترك الثقافة

والانتهاء إلى ثقافة أخرى، فإن مشكلة التكيف للقيم الجديدة تصبح أهم موضوع يواجه الفرد. وإذا كان التحرك داخل النمط الثقافي في خز الحصول على الأصدقاء واكتساب المعارف الجدد؛ فعلينا أن نميز بين نمطين في الهجرة الأول: عندما تهاجر جماعة بأسرها، والثاني: عندما يهاجر عضو واحد أو أعضاء متفرقون منها.

ففي الحالة الأولى — ولاسيما الجماعات المختلفة نسبياً — لا تفقد الجماعة تكاملها غالباً وكذلك الحال في الأسرة. والمشكلة هنا هي مشكلة التكامل في المنطقة الجديدة.

وفي الحالة الثانية عندما يكون المهاجر عضواً واحداً في الأسرة، تصبح حياته معرضة للاضطراب، كما أنّ حياة أسرته معرضة أيضاً لعدم الاستقرار (غيث، مرجع سابق).

تاسعاً: التثقيف Enculturation

يبدأ الإنسان المولود التأثر بثقافة مجتمعه منذ ولادته، ففي البداية يكون الإنسان عضوياً (بيولوجياً) مئة، ومن ثمّ يبدأ بأخذ ثقافته ممن حوْله شيئاً فشيئاً، بواسطة ما يعطى له ويقدم من محتويات ثقافته، يقدمها في بداية الأمر الأم والأب، ومن يقيمون حوْل الطفل، وتكبر دائرة العلاقات الاجتماعية للطفل المولود إلى أفراد آخرين في العائلة، ومن يتصلون بهم من الجيران والأصدقاء. ثمّ عند الانتقال إلى مرحلة الدراسة تتسع الدائرة، ويدخل الطفل بعلاقات جيدة مع زملاء الدراسة ورفاق اللعب، وشيئاً فشيئاً يكتسب الإنسان الفرد ثقافة مجتمعه إلى أن يصبح إنساناً اجتماعياً، ويطلق على هذه المسيرة الحياتية مصطلح التثقيف (**Enculturation**)، بمعنى أن الطفل ينتقل من كونه كائناً عضوياً إلى كائن اجتماعي، بواسطة ما يقدم له من عادات وتقاليد ونظم حياتية، نابعة من ثقافته التي اكتسبها الكبار، ونقلها له كل من مركزه في العائلة والمجتمع المحيط.

وتشير الدراسات المتعلقة بتنشئة الأطفال إلى أن الطفل، يبدأ التحرك بعيداً عن السلوكات العضوية البيولوجية شيئاً فشيئاً، والاقتراب من السلوكات الثقافية التي يتعلمها، ويتشربها من مجتمعه الذي يعيش فيه، ومن جماعته الذين يعيش بينهم. وبهذه العملية يتمكن الطفل من التحكم بمجموعة ضخمة ومعقدة من السلوكات والأفكار، التي لها علاقة بالهوية الشخصية، والهوية القومية، والهوية الإنسانية، والطرق المقبولة للتفاعل مع الآخرين، سواء كان ذلك في مجتمعه المحيط أو المجتمع الأكبر (وطنه)، فالمجتمع الإنساني. وعلى الرغم وحدة الثقافة، واكتساب الإنسان الفرد ثقافة مجتمعه في بداية حياته، إلاّ أن ذلك لا يعني أن جميع الأفراد يكتسبون السلوكات والأفكار نفسها، إذ يصبحون نسخة طبق الأصل عن بعضهم بعضاً في طريقة حياتهم، أو ممارساتهم لما اكتسبوا من ثقافة محلية أو عامة، لأن هناك عناصر (سواء كانت داخلية موروثة أو خارجية مكتسبة) تؤثر في تعلم الفرد وممارسته لشؤون حياته، كما تتأثر عملية اكتساب الثقافة بالفروق الفردية لدى الأفراد.

ويرى علماء الإنسان أن عملية التثقيف فائدة كبيرة على الصعيد المعرفي للفرد، إذ إنها تساعد الفرد في التكيف مع مجتمعه الذي يعيش فيه، ثمّ إنها تساعد الآخرين في التبوء بالسلوك البشري، فإذا ما عرفت ثقافة الأفراد في مجتمع ما، فإنه يكون من السهل معرفة ما يتوقع من أصحاب هذه الثقافة، أو إنشاء علاقة فيما بينهم وبين الآخرين خارج نطاق جماعاتهم ومجتمعهم.

وعملية التثقيف هذه تؤدي إلى الحقيقة القائلة بأنّ «الأعضاء في أي مجتمع يميلون لإظهار سلوكات متشابهة تحت ظروف معينة مماثلة» وكذلك يجري تعلم مجموعة الطرق المتكررة للسلوكات والمعتقدات التي تصاحبها، ولكن مجموعة الطرق هذه كثيرة ومعقدة، ولا يمكن لأي فرد التحكم بها كلها، إلاّ أن الأعضاء البالغين في المجتمع يتعلمون الحد الأدنى منها، ويمكن القوْل أو الحكم على أن عملية التثقيف، تحدد الإطار العام للثقافة اللازمة للفرد كي يصبح عضواً يشار إليه بانتمائه إلى ثقافة دون غيرها.

عاشراً: التثاقف Enculturation

بما أنّ البشر لا يمارسون أبداً سلوكات ثقافية بطرق لم يتعلموها، فإنّ كل مجتمع يجب أن يوجد أسلوباً لتقديم قاعدته الثقافية للأجيال المقبلة، فليس هناك فرد يمكنه أن يلم بمجمل البناء الثقافي ككل.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ النظم العميقة الجذور في الثقافة تقاوم التغير، حتى لو كان التغير ملحاً، ولكن عملية التغير في الثقافة لازمة ولا بدّ منها ولا يمكن إلغاؤها، فالإنسان في أيامنا هذه، نتيجة لاتصاله بالمجتمعات الأخرى التي لها ثقافة خاصة بها، يواجه بإحباطات دائمة في علاقاته مع البشر الآخرين أصحاب الثقافات الأخرى؛ لأن ثقافتهم قد تكون بعيدة عن ثقافته، ولكنه مضطر للتفاعل والتعايش مع تلك الثقافات المحيطة؛ لذا يصبح من الضروري أن يتأثر بثقافة الآخرين، وقد يتأثرون هم أيضاً بثقافته. وهنا يحدث ما يمكن أن يسمى التبادل الثقافي أو الامتزاج الثقافي، والتثاقف بهذه الحالة، يعني العملية التي تنتقل بها الثقافة، خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات أو أفراد ذات ثقافات مختلفة، ويلقى التثاقف استجابات مختلفة تبعاً لطريقة الاستيعاب والممارسة، مثل: القبول الذي يقصد به استعارة الجانب الأكبر من الثقافة الجديدة، وتمثل أنماط السلوك، والقيم الداخلية لهذه الثقافة. والتكيف مع العنصر الثقافي الذي تمّ قبوله، والتواؤم مع نظائره في ثقافة المستعير الأصلية، وتكون النتيجة النهائية للتبادل الثقافي أو التثاقف ما يسمى التمثل أو الانصهار الثقافي بمعنى أن يصبح الفرد مستوعباً للثقافة الجديدة، وممارساً لها أو مازجاً بين ثقافته وتلك الثقافة. وتتم عملية التثاقف حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر ومستمر، مما يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الأصلية السائدة في إحدى هاتين الجماعتين أو فيها معاً.

لكن هذا لا يحدث في كثير من الحالات، بمعنى أن الإنسان المثقف قد يرفض الثقافة الجديدة، فيقف ضد التثاقف، ويتمسك بقيمه وبأسلوب حياته النابعة من ثقافته الأصلية، فيؤكد بذلك قوة عملية التثقيف لديه. لكن الشعوب والأمم باختلاطها معاً، أو قضاء فرد من ثقافة معينة فترة كافية من الزمن في

مجتمع آخر له ثقافته، يؤدي إلى اكتساب هذا الفرد بعض عناصر الثقافة الجديدة فيتمثلها كاملاً، أو أنه يكتسب بعض خصائص الثقافة الجديدة، وبهذه الحالة يكون التثاقف هامشياً، بمعنى أنه يكتسب شيئاً قليلاً منها، ويدمجه مع ثقافته الأصلية.

إحدى عشر: اتجاهات رئيسة في الثقافة:

لاحظنا أن كل مجتمع من المجتمعات له ثقافة خاصة به، فالشعوب تتميز عن بعضها باختلاف ثقافتها، والثقافة هي عامل أساس في تكوين المجتمع وفي تغيره، وهناك اتجاهات عدة لدى المفكرين في هذا المجال، مؤداها أن تفاعل العناصر الثقافية مع بعضها بعضاً يؤدي إلى تغيرات عميقة في المجتمع، ويحصر الدقس (1996) هذه الاتجاهات بما يلي:

1. الانتشار الثقافي:

يعني الانتشار نقل الأنماط الثقافية على المستوى الأفقي من مكان إلى آخر، وقد استخدم تايلور هذا المصطلح في كتابه «الثقافة البدائية» وهو يشير إلى الخرافات الروائية، ويشير في موضع آخر إلى السمات والعناصر الثقافية في مجتمعات متباعدة، وكانت إجابته أن هذا التشابه ناتج عن الثقافة وهجرتها وانتقالها من مصدر واحد، أو عدة مراكز مشتركة إلى مراكز ومجتمعات أخرى نتيجة للاتصال الثقافي بين هذه المجتمعات، وقد تكون هجرة هذه العناصر الثقافية كاملة أو جزئية مقتصرة على بعض ملامح العنصر الثقافي.

وهناك تعريف حديث آخر للانتشار للباحث (لينتون) إذ عرفه بأنه: «انتقال العناصر الثقافية من مجتمع لآخر»، أما (هيروسكوميتيس) فيعرفه بأنه: «دراسة النقل الثقافي الذي أنجز فعلاً».

أما فيما يتعلق بأصحاب هذا الاتجاه فيرون أنّ استعارة العناصر الثقافية عن طريق الانتشار هي السبب الرئيس للتغير، والانتشار هو العملية التي تنتقل بها

سمة معينة وتنال القبول في منطقة أخرى، وهو يشتمل على أنماط الاتصال وأساليبه المختلفة التي تحمل أسباب التغير الثقافي، فالنظم الاقتصادية والسياسية والدينية تنتقل بسرعة من خلال عمليات الانتشار، ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن من سمات الثقافة الانتشار.

والأصل في هذا الاتجاه الانتشاري أنه يقوم على فكرة مؤداها أنّ التغير يمكن تحقيقه من خلال انتقال العناصر الثقافية السائدة في المجتمعات النامية، ثمّ إنّ هذه المجتمعات الأخيرة يجب أن تشهد عملية احتكاك إذا أرادت تحقيق التغير، ويؤمن (راد كليف براون) بأنّ معظم التغيرات تحدث بفعل الاحتكاك الثقافي؛ أي من خارج الثقافة نفسها (الجولاني، 1993).

فالانتشار قد يتم عن طريق الهجرة أو عن طريق الاستعارة، فالهجرة تؤدي إلى انتقال وحدات ثقافية كبيرة، بينما الاستعارة عملية نقل وحدات ثقافية بسيطة دون حدوث حركات شعبية وانتقال شعوب بأكملها.

2. الارتباط الثقافي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه والذين يمثلهم سروكين (Sorokin) أن التغير يرجع إلى عوامل داخلية، وذلك بعكس اتجاه الانتشار الذي يرجع التغير إلى عوامل خارجية.

ولقد كان من المألوف عند مناقشة مسألة التغير بالنسبة لمجتمع معين طرح مسألة الدور الذي تلعبه العوامل الداخلية والعوامل الخارجية، وقد عد مثل هذا التصنيف للعوامل مسألة ضرورية، لتوضيح أثر كل فئة من هذه العوامل على التغير بشكل خاص.

ومن الجدير بالذكر أنّ التراث التغيري في علم الاجتماع كشف عن بعض الدراسيين أنهم كانوا ينسبون التغير إلى العوامل الداخلية ولا تقوم العوامل

الخارجية إلا بدور التعجيل، والمجتمع لا يتغير إلا إذا اختل توازنه بصورة ملحوظة، ويرى بعضهم أنه إذا كان هناك داع للتذكير بالعوامل الخارجية؛ فإن ما ينسب تأثيرها إلى العوامل الداخلية أيضاً، لأنها لا تستطيع أن تلعب دورها إلا من خلالها.

3. اتجاه الصراع الثقافي:

يضم اتجاه الصراع اتجاهات عديدة في حل إشكالية التغير، منها الاتجاه الماركسي الكلاسيكي والاتجاه الماركسي الحديث، إلا أن العنصر المشترك بينهما يتمحور في اعتبار التناقض الذي يؤدي إلى صراع هو وراء عملية التغير الاجتماعي.

والصراع عملية اجتماعية توجد بأوجه مختلفة في الحياة الاجتماعية، وأن المتناقضات الثقافية تنبع من داخل المجتمع، ويؤدي إزالة هذه التناقضات إلى تغيرات ثقافية مختلفة فيه، ويتم حسم الصراع بإنهاء جانب من العناصر الثقافية لحساب عنصر آخر، ويكون ذلك إما باستبدال عناصر جديدة، أو بتنمية العنصر الغالب في الثقافة وفي تلك الحالتين يؤدي الأمر إلى تغير داخل الثقافة، أي أن التصادم بين القيم مثلاً يؤدي إلى التغير في نهاية الأمر.

ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن الصراع يمنع تحجر النظام، وذلك بإيجاد ضغط من أجل الابتكار والإبداع، فلا بد للمجتمع من صراع لكي يجدد طاقته ويعيد الحياة إلى قواه المبدعة، ولولا هذا الصراع لانهارت الثقافة الإنسانية.

وللصراع أوجه عدة: فمنه الصراع السياسي، والصراع الطبقي، والصراع الصناعي والصراع الديني والصراع العرقي، ويؤثر الصراع في الأنظمة جميعها في المجتمع، وبخاصة في النظام الاقتصادي. (الدقس، 1996).

ويفسر هذا الاتجاه التغير بالرجوع إلى المتناقضات الثقافية داخل المجتمع وكلما زادت هذه التناقضات أدى ذلك إلى زيادة حدة الصراع، ثم إلى تعميق حدة التغير. (واسي، 1983).

ويؤكد (كارل ماركس) في المادية التاريخية أن تاريخ المجتمعات هو تاريخ صراع بين الطبقات، وهو صراع مبني على التناقض، فقد أدى الصراع بين عبيد الأرض وسادتهم إلى نشوء نظام اجتماعي جديد وهو النظام الرأسمالي الذي جاء على أنقاض النظم الإقطاعي، كما أن الصراع بين طبقة البروليتاريا والرأسمالية أدى إلى نشوء نظام اجتماعي جديد هو النظام الاشتراكي الذي حل محل النظام الرأسمالي.

فالصراع كما يراه ماركس هو صراع طبقي، ويحكم الماركسيون على التناقض القائم بين البروليتاريا والبرجوازية استناداً إلى الثورة الاشتراكية.

وترى الماركسية أن التناقضات تأتي على أشكال ثلاثة هي:

1. التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.
2. التناقضات بين البناء الاقتصادي والبناء الإيدولوجي.
3. التناقضات التي قد توجد داخل البناء الفوقي ذاته.

وترى هذه النظرية أن التوتر يزول بعد زوال العلة المسببة له؛ أي أن النظام يعود إلى حالة التوازن، ولكن سرعان ما تظهر تناقضات أخرى تؤدي إلى الصراع، أي أن التوتر يعود من جديد فيتوازن ثم يليه توتر، وهكذا ...

❖ **النقد الموجه لهذه النظريات:**

1. نظرية الانتشار التي تركز على العامل الخارجي في عملية التغير تلغي أو تكاد العوامل الداخلية التي تؤدي إلى التغير، وبذلك تلغي فاعلية المجتمعات الإنسانية وإرادتها في التغير وتحرم المجتمع من الابتكار والاكتشاف.
2. تفسير عملية التغير الثقافي بعامل واحد هو تصور خاطئ لهذه العملية المعقدة، وفي ذلك تبسيط لعملية التغير.
3. ليس بالضرورة أن تؤدي التناقضات الموجودة في ثقافة المجتمع إلى صراع فتغير جذري إيجابي.

الفصل الثاني

القيم والثقافة

القيم والثقافة

أولاً: مفهوم القيم:

القيم جمع قيمة، وهي لغة ما له قيمة، ويقال قومت السلعة ثمنتها. ويتحدث الناس عن القيم كثيراً، فالثوب ذو قيمة إذا كان غالياً، والإنسان الوجيه في قومه يقال: إنه ذو قيمة..... وهكذا. (أبادي، 1952).

لقد اختلف المفكرون والفلاسفة في تفسير القيم فمنهم من قال إنها مثالية أي وجدت قبل وجود الإنسان في المجتمع فليس للإنسان فضل في وجودها فقيمة الشيء كامنة فيه فهي إذن ثابتة لا تتغير عند هؤلاء. ويرفض بعض الفلاسفة هذا القول ويعدون أن القيم لم تكن موجودة أصلاً، وإنما وجدت نتيجة لاجتماع الأفراد مع بعضهم وتكوينهم لمجتمعات أفرزت هذه القيم، وبالممارسة ميّز الناس بين النافع والضار والخير والشر فصاغت الخير في قوالب سميت القيم.

والرأي الأخير هو الأصح، فتكون القيم بالمعنى الاصطلاحي: «أحكام مكتسبة من الظروف الاجتماعية يتشربها الفرد ويحكم بها، وتحدد مجالات تفكيره وسلوكه في المجتمع المحدد؛ لأنه يكتسبها من الجماعة المحيطة. فالقيمة إذن شيء يحظى بالتقدير والرغبة والقبول للغالبية العظمى من المجتمع إن لم يكن لأفراد المجتمع كلهم؛ لأنها تعبر عن مصلحة ومبلغ اهتمامهم جميعاً». (ناصر، 1993).

وتعد نظرية (سالف بري) في القيمة من أفضل ما كتب في القيم، وقد عد أن أي اهتمام بأي شيء يجعل هذا الشيء ذا قيمة، فالأشياء في ذاتها ليست خيرة، كما أنها ليست شريرة، ولكن اهتمام الإنسان بها هو الذي يرفع قيمتها أو يخفضها. فما يسمى قيمة إيجابية في مجتمع ما قد تقل قيمته في مجتمع آخر، فالقيم من نسج الخبرة الإنسانية، وهي جزء لا يتجزأ من كيانها. (دياب، 1980).

ثانياً: خصائص القيم:

للقيم خصائص وصفات، منها:

1. إنها نسبية: أي أنها تختلف عند الشخص لحاجاته ورغباته وتربيته وظروفه كما لا بد من ان تختلف ايضاً من شخص إلى آخر ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر. ففي الأردن مثلاً تعد الحشمة في اللباس قيمة، وتتمثل في ستر العورة، بينما في بعض المجتمعات يعد كشف العورة قيمة في حد ذاتها.
2. إنها ليست من وضع شخص معين، بل هي حصيلة تجربة اجتماعية.
3. إنها ليست صفات مجردة، بل يتوصل إلى معرفتها عن طريق دراسة أنماط السلوك التي تعبر عن هذه القيمة.
4. إنها معايير وضوابط للسلوك الإنساني، ما يعده الناس صحيحاً أو خطأ يؤثر في سلوكاتهم ويلتزمون بها تحت طائلة العقوبة كالعزلة ومن أمثلة ذلك ممارسة حق النبذ الاجتماعي في المجتمع الجاهلي لمن يتحدى قيم المجتمع العليا ويخالفها، فيما عرف "بالخلع"، فكانت القبيلة تخلع الأفراد الخارجين على قيمها وأعرافها فيحيا المطرود حياة الصعاليك، في حين أن من يلتزمون بقيم القبيلة يعيشون معززين مكرمين. (الأسمر، 1997).
5. تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التنشئة الاجتماعية.
6. لها صفة التعميم، فقد تختلف من فئة إلى أخرى في المجتمع الواحد ولكن قيماً معينة تظل ذات عمومية لأفراد المجتمع جميعهم.
7. لها صفة التغير والتطور على الرغم من بطئه، وهذا التطور يتم نتيجة عوامل داخلية سكانية أو اقتصادية أو فكرية أو عوامل خارجية.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن هناك صراعاً بين القيم السائدة في الثقافة الواحدة خصوصاً بين قيم الثقافات الفرعية. ويكون الصراع عادة بين القيم في أشد حالاته في الثقافات التي تمر في مرحلة انتقالية كالمجتمعات العربية، فيحصل فيها الصراع ويكون صحياً إذا دفع الثقافة إلى الأمام لذلك بالاستغناء عن القيم التي لا تتمشى وروح العصر الذي تمر فيه الثقافة. (أبو هلال، 1979).

وكمثال على ديناميكية القيم وتطورها بل وتغيرها تشجيع تعليم المرأة الأردنية في الوقت الحاضر والاعتزاز بذلك، بينما كانت أميتها قيمة مناقضة للوضع الحاضر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

وما دامت المجتمعات تتغير، وتتحول نتيجة للتقدم العلمي والتقني وظهور المخترعات الجديدة، فإن القيم بصفتها أحكاماً مكتسبة من الظواهر الاجتماعية تتغير هي الأخرى. (ناصر، 1993).

ثالثاً: أنواع القيم:

يورد الرشدان (1999) تصنيفات عديدة للقيم، منها:

1. على أساس المحتوى، ومنها: القيم النظرية التي يهتم بها الفرد باكتشاف الحقائق، وقيم اقتصادية ويعبر فيها عن اهتمام الفرد بما هو نافع، وقيم جمالية ويعبر فيها عن الاهتمام بكل ما هو جميل من حيث الشكل والتنسيق والتوافق والقيم الاجتماعية ويعبر فيها عن الاهتمام بالناس وحب مساعدتهم، وقيم سياسية يعبر فيها عن الاهتمام بالعمل السياسي وحل مشكلات الجماهير، وقيم دينية يعبر فيها عن حب معرفة أصل الإنسان ومصيره.
2. على أساس المقصد: وتقسم إلى قيم وسائلية مثل: الترقي وقيم غائية مثل: حب البقاء.
3. على أساس الشدة: وهي قيم ملزمة (آمرة ناهية) تحدد ما ينبغي أن يكون مثل تنظيم العلاقة بين الجنسين، وقيم تفضيلية مثل: إكرام الضيف، وقيم مثالية مثل التي تتطلب من الفرد أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

4. على أساس الانتشار: وتقسم إلى قيم عامة تنتشر في المجتمع كله ريفه وحضره، وقيم خاصة تتعلق بطبقة أو دور اجتماعي خاص مثل المتعلقة بالزواج والأعياد.
5. على أساس الوضوح: وتقسم إلى قيم ظاهرة أو صريحة مثل المتعلقة بالخدمة الاجتماعية، وقيم ضمنية مثل المرتبطة بالسلوك الجنسي.
6. من حيث الدوام: وتقسم إلى دائمة (نسبياً) وهي التي تبقى زمناً طويلاً، مثل: قيم الأعراف والتقاليد. وعابرة: قصيرة الدوام مثل المرتبطة بالموضات.
7. من حيث المعنى: وتقسم إلى موضوعية وذاتية، والموضوعية هي كل شيء يحظى بالتقدير والرغبة والقبول للغالبية العظمى للمجتمع. والذاتية هي كل ما يعد جديراً بالاهتمام لدى فرد معين لاعتبارات خاصة فيه، وقد تكون نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية.

ومن القيم الذاتية تلك التي تخص المبدعين مثل قيمة الإصلاح وقيمة الاستقلال وقيمة الإنجاز وقيمة الاعتراف وقيمة عبور اللحظة الراهنة. (حسين، 1981).

رابعاً: وظائف القيم:

إن القيم موجهات للسلوك وأحياناً تكون هدفاً له، وهي معايير مقننة وخيرة تقوم بضبط السلوك الفردي والجماعي. وهي ركن أساس في تكوين العلاقات البشرية في المجتمعات، إذ تعد عاملاً مهماً في عملية التفاعل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع الواحد، وبين الجماعة والجماعات الأخرى، لأن القيم الاجتماعية نماذج يفضلها الناس يرغبون فيها، لأنها من صلب ثقافتهم، ولأنها موجهة لسلوكهم.

وعلى العموم؛ فإن للقيم وظيفتين مهمتين هما:

1. **الوظيفة الأولى:** هي ربط العناصر الثقافية بنسيج محكم وربط الثقافات الفرعية في ثقافة واحدة. إن هذه الوظيفة مهمة بالنسبة للقيم، حتى إن بعض القيم الأنثروبولجيين ينظرون إلى المجتمع كأنه مجموعة من الناس يربطهم في نسيج واحد ونظام من القيم.
2. **الوظيفة الثانية:** هي تحديد أهداف الناس، وبذا تعطي الحياة لديهم شيئاً من المعنى، فبدل أن يدركوا أعمالهم وسلوكاتهم وكأنها محاولات لإشباع حاجاتهم فقط، نجد أنهم ينظرون إليها بشيء من الأمل لتحقق لهم أهداف يرنون إليها ويتلهفون لإدراكها ونيلها.

ولأن للقيم مكانة خاصة في عواطف الناس، فإنها بذلك تحافظ على استمراريتها، ثم تبقى تؤدي وظائفها باستمرار. (أبو هلال، 1979).

إن القيم تلعب دوراً مهماً في التوافق النفسي والاجتماعي، وفي عمليات العلاج النفسي، كما تعطي من الناحية الاجتماعية الوحدة للمجتمع والثقافة.

ولتوضيح هذا التوافق النفسي والاجتماعي الذي تسببه القيم فإنه على أساس منها تكون علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في كل نشاط يقوم به سواء أكان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو فكرياً، إذ لا بد من وجود قيم ومعايير يحتكم إليها الناس في تعامل بعضهم مع بعض ليعيشوا في سلام ووئام. (الرشدان، 1999).

إن البديل الذي يحتكم إليه الناس في غياب القيم هو القانون، ومهما بلغ القانون من الدقة والانضباط، فهو لا ينبع من داخل النفس البشرية التي تنبع منها القيم، وإنما من خارجها، لذلك يسهل الاحتيال عليه، والتلاعب به كما يحصل في هذه الأيام، ولم يعوض الفيض المادي في المجتمعات الغربية ذلك النقص في القيم مما دفع العلماء والمصلحين إلى المناداة برأب الصدع القيمي وتصحيح الانحرافات وذلك بالتمسك بالقيم العليا التي هي السد المنيع أمام هذه الانحرافات. (الأسمر، 1997).

خامساً: القيم جزء من الثقافة:

من خلال تعريف الثقافة نرى أن القيم هي إحدى مكونات الثقافة، وهي من عناصرها غير المادية، والمعتقدات والقيم يعبر عنها أحياناً بجوهر (Core) الثقافة، لأنها المستوى الواعي لعقول الأفراد.

إن نظرة إلى وظائف القيم التي أشير إليها سابقاً تبين أنه لا يمكن الفصل بين القيم والثقافة ووظيفتيهما في المجتمع، طالما أن القيم جزء من الثقافة وهي جوهرها، وإذا كانت الثقافة سلوكاً وأسلوب حياة، فإن هذا السلوك يحتكم إلى معايير يرتضيها أفراد المجتمع، وهذه المعايير هي القيم التي توجه سلوك الفرد وتضبطه، ويحكم عليه من خلالها إن كان منتمياً لمجتمعه أو خارجاً عليه.

هناك صراع كبير يحدث داخل الثقافات ويتعلق بالقيم، ويشكل أحياناً خطراً على الثقافة ووحدتها وأحياناً أخرى يكون هذا الصراع صحياً إذ يدفع بالثقافة التي يحصل فيها هذا الصراع إلى الأمام وذلك بالاستغناء عن القيم التي لا تتمشى وروح العصر الذي تمر فيه تلك الثقافة. (أبو هلال، 1979).

إن القيم لما كانت نسبية ومختلفة من مجتمع لآخر حتى بالنسبة للحدث الواحد، فإنها عندئذ لا تفهم إلا من خلال المجال السلوكي والإطار الثقافي الذي يعيش فيه الفرد.

سادساً: التربية والقيم:

إن الحديث عن التربية والقيم هو نفسه الحديث عن الثقافة والتربية، طالما أن القيم هي جوهر الثقافة. والتربية هي عامل من عوامل التثقيف من خلال مؤسسات التنشئة وعلى رأسها الأسرة والمدرسة، وهي أحد العناصر الثقافية وهي الجزء الرسمي لعملية التثقيف والمعلم الذي يربي، ويكون حاملاً لغالبية القيم والمعتقدات السائدة في ثقافته. والتربية ناقلة للتراث الثقافي وعلى رأسه القيم. لكن

ما يهمنا هنا من العلاقة بين التربية والقيم هو دور التربية في جمود القيم أو تطورها. ومن الطبيعي أن تلقى باللائمة على التربية التي يأخذ بها المجتمع نفسه إذا ما أصيب بالعقم القيمي وبالجمود فيما يأخذ بها نفسه من معايير في شتى المجالات، فالتربية تكون داعية للجمود القيمي والعقلي إن هي اقتصرت على مجرد تلقين مبادئ وأصول القيم الموجودة وتخويف الناشئة وترهيبهم إن هم حاولوا المناقشة أو التعديل أو اقتراح التنقيح. وهذا يؤدي إلى نضوب القدرة على النقد والاعتياد على التقبل والاستسلام الفكري. وفي المقابل، فإن تشجيع الناس على التجديد في مذاقاتهم وتقييماتهم لهو أكثر حملاً لهم على تحقيق إنسانيتهم وتفتيق قدراتهم واستعداداتهم. (أسعد، 1984).

سابعاً: نماذج من القيم:

لكل مجتمع قيمه الخاصة به، ولكن هناك قيماً عامة توجد في غالبية المجتمعات منها:

1. **التضامن أو التعاون:** وتعني التآزر والاعتماد المتبادل والعمل بروح الفريق من أجل إنتاج أفضل.
2. **العدالة:** وتكون بمساواة الأفراد في الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص دون تمييز.
3. **الكرامة:** وتعني احترام النفس، وفقدانها يعني الذل وفقدان الشخصية.
4. **الصبر:** وهو القدرة على انتظار الأحداث دون قلق، والتأني المناسب في حل المشكلات.
5. **التواضع:** وهو عدم التمادي في تقدير الذات، وعدم الاهتمام بالمظاهر أو إثارة الانتباه.
6. **التسامح:** ويعني الغفران لمن أساء للفرد وهو في مركز قوة: العفو عند المقدرة.
7. **الكتمان:** ويعني التحفظ في الكلام أو التصرف.

8. **العطف:** ويعني مساعدة الآخرين والشعور معهم في المحن والوقوف معهم في المصائب.
9. **المحبة:** وتعني حب الله والوطن والوالدين والأبناء والجنس الآخر.
10. **الصداقة:** لقضاء الوقت والشعور بالانتماء للمجموعة.

وهناك قيم تميز المجتمع العربي بشكل عام والأردني بشكل خاص، وقد لا نجدها في مجتمعات أخرى، ومنها:

1. **احترام الكبير:** ولا يكون هذا الاحترام حصراً في الأقارب، بل يتعداه إلى كبار السن في المجتمع بعامة، وكثيراً ما نجد الكبار يتدخلون في تربية أبناء الجيران وربما اللذين يلعبون في الشارع حتى لو كانوا لا يعرفونهم، فيتدخل الكبير بمعاقبة الصغير المدخن وإن علم والده لا يمانع في ذلك بل ربما يشكره على عمله، وهذا مثلاً مستهجن في الثقافة الأمريكية التي لا تتيح حتى للآباء معاقبة أبنائهم خاصة إذا أساءوا استخدام العقاب.
2. **التدين:** وهذه ظاهرة موجودة في المجتمع العربي بشكل واضح، وتعني الاعتماد على مجموعة من المعتقدات والالتزام بها في تفسير الظواهر التي لا يتمكن الإنسان من تفسيرها.

ومن القيم الإسلامية التي جاء بها الإسلام ورسخها ودخلت المنظومة الثقافية للمجتمع الإسلامي بعامة والعربي بخاصة ما يلي:

1. **النهي عن الحقد:** قال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة: 8).
2. **النهي عن الظلم:** قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} (النساء: 29).
3. **إصلاح ذات البين:** قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} (الحجرات: 10).

4. **الاقتصاد في النفقة والتحذير من الإسراف:** قال تعالى: {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان: 67).

هناك قيم إيجابية خاصة في المجتمع الأردني وهي في معظمها قيم إسلامية، وأخرى سلبية نمارسها ونأخذ بها، ولكننا نحاربها ونريد أن نتخلص منها، ومنها:

1. **الأخذ بالثأر:** يعد هذا قيمة نمارسها في الأردن ولا نستطيع التخلص منها على الرغم من اعتبارنا لها قيمة ضارة.
2. **العصبية القبلية:** تمارس على المستويات جميعها ومع أنها مذمومة.

هناك قيم موجودة في المجتمع الأردني وهي إيجابية وتمارس في مجالات الحياة جميعها ومنها: بر الوالدين، والعطف على الصغير (وفيه مبالغة) واحترام الكبير، والإيثار، والكرم، والمروءة، والشهامة، والنخوة، والإباء، والطهر، والصداقة......إلخ.

الفصل الثالث

دور المعتقدات في الثقافة

دور المعتقدات في الثقافة

أولاً: مفهوم الاعتقاد:

أ. لغة تعني: ما عقد عليه القلب أي جزم به وصدقة يقينا.

ب. عقدية *Dogmatism* مذهب اليقين أو القطعية أو الوثوقية أو الجزمية والعقيدة (*Dogma*) هي حكمة أصلها إغريقي تعني النظرية التي تقرها السلطة، ويلتزم بها الأفراد الواقعون تحت غطائها، أو هي المبدأ الذي يقوم عليه المذهب، وسلم معتنقوه بصحته ابتداء باعتباره نوعاً من الإيمان ولذلك ارتبطت الكلمة بالدين، لتعني ركنه أو مبادئه، وقد عد (كانط) الفلسفات العقلية فلسفات عقدية، لأنها تقدم نظريات عن العالم تقطع بصحتها.

ثانياً: المراحل الاعتقادية للإنسان:

1. الاعتقاد في الفكر البدائي:

أن الاعتقاد في الفكر البدائي يعني أن النزعة الأرواحية بالذات — هي النزعة التي يعتقد المرء بمقتضاها أن الكائنات من حوله جميعها تتضمن أرواحاً أو حياة شأنها في ذلك شأنه، لذلك كان الانغماس الوجداني الخالي من النظرة لموضوعية خلوا شبه تام، وكان الاعتقاد لدى البدائيين متخذاً معنى الاندماج أو الاتحاد، حيث كانت النزعة النحنية. أن الاعتقاد في الفكر البدائي صار على نوعين هما: اعتقاد يرتبط بالحب، واعتقاد يرتبط بالكراهية، فقد كانوا يعتقدون أن الآلهة تحافظ على القبيلة وأنها معهم وتقوم على رعايتهم وحياتهم ودرء الأخطار عنهم، بينما كانت آلهة القبائل الأخرى مرتبطة بالعداء والكراهية، وكانوا يعتقدون أن الآلهة والشياطين تدبر لهم المكائد وتنتهز الفرص لإيذائهم وتعطيل مصالحهم وحجب الخير وأسبابه عنهم والاعتقاد في هذه المرحلة مر بمرحلتين:

أ. مرحلة كان الاعتقاد فيها حسياً يرتبط بأشياء بالذات وبأناس بأعينهم، وهي مرحلة الإدراك الحسي المباشر أو مرحلة التخيل وتكوين الصور الخيالية التي لا وجود لها في الواقع المحسوس وهنا بدأ الاعتقاد السلبي والإيجابي في الأشياء، وكانت الآلهة في تلك الفترة محسوسة تتمثل في الأصنام والخشب والخيال أو الحيوانات أو الطيور.

ب. مرحلة خيالية تجريدية رمزية ظهرت في القبائل البدائية رغبة في الاستمرار وتقديس زعيم القبيلة بعد موته، أو بعد اندثار الآله الأصلي المحسوس. فذهب الخيال بهم إلى الاعتقاد في استمرار وجوده بعد الموت، وهكذا امتد الاعتقاد من نطاق المحسوس إلى نطاق المجرد الخيالي.

ثالثاً: أهمية الاعتقاد:

المعتقدات إما أن تكون فردية أو جماعية يمكن أن يكون لها أساس من الموضوعية، ويمكن أن تكون مجرد وهم لا يستند إلى أساس موضوعي مكين.

لذلك تلعب المعتقدات السحرية دوراً خطيراً في العلاقات الاجتماعية، فالخوف من السحر أو الحسد –سواء من جانب المرء في كلامه ونظراته خشية أن يتهم بأنه قد حسد، أو من جانب الآخرين خوف أن يصيبوه بالحسد- ومن ذلك عدم زيارة أي أسرة بعد تشييع الجنازة.

تلعب المعتقدات السياسية دوراً خطيراً في العلاقات الاجتماعية وتؤثر فيها بشكل واضح وملموس. فالديمقراطية والدكتاتورية والاشتراكية والرأسمالية والشيوعية معتقدات تلعب دوراً خطيراً في تنظيم العلاقات بين الناس ومن ذلك الاعتقاد بلون البشرة أو بنوع الدم كالدم الأزرق عند النازيين، فقد تجد الاعتقاد السياسي متزمتاً، إذ يصيب المواطنين في قالب واحد، وتجده أحياناً مرناً قابلاً لما تمليه التطورات الاجتماعية.

أما المعتقدات الدينية، فتلعب أخطر الأدوار في الحياة الاجتماعية، فكثير من فاعلي الخير يعتقدون أن ما يعتقدونه من تضحيات لا يضيع سدى، بل إنه راجع إليهم لا ما حالة في حياتهم الشخصية أو في حياة أبنائهم وأحفادهم من بعدهم، بل وفي الآخرة إذ سوف ينعمون بالخير الأسمى في رحاب الله.

رابعاً: أنواع المعتقدات:

أ. **المعتقدات البيولوجية:** هي اعتقادات لا شعورية بالمعنى العام.

ب. **المعتقدات الوجدانية:** هي اعتقادات لا شعورية أيضاً يبدي الإنسان فيها علاقات الارتياح أو الغضب أو الخوف.

ج. **المعتقدات الوجدانية العقلية:** وفيها حالة الاندماج الروحاني مع الله، فكما أن الجسم مشوق إلى الرجوع إلى أمه الأرض، فإن الأرواح مشوقة إلى العودة إلى الحضن الإلهي.

د. **المعتقدات الاجتماعية الأخلاقية:** مثل: الاعتقاد بالجن والسحر والحسد وهذه المعتقدات قد تكون أخلاقية أو نسبية.

ه. **المعتقدات الدينية:** الطوطم هو إله عند البدائيين وهو أصل وجودهم وقد انبثقوا عن إرادته؛ فلا بد من التقرب منه واسترضائه بالذبائح والقرابين، فكان الأسد يأكل الضحية ثم ينصرف لحال سبيله.

ومع تقدم الحياة البشرية وكلما تعقدت الحضارة أخذ التباين يضرب جذوره في أنواع الطوطمات التي أخذ الناس عبادتها والتقرب منها وتقديم الذبائح إليها، فانتقل الخوف من الحيوانات المفترسة إلى الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والبحر والعواصف والبرق.... وشيدت المذابح لتقديم القرابين عليها.

إلى جانب ذلك كانت تقدم خيرة أبناء القبيلة وبناتهم للذبائح، ثم تقدم الأمر فأصبحت الأضحيات حيوانية كالأبقار، والأغنام، وغيرها.

أما في الأديان السماوية الثلاثة الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام، فنجد أن الذبائح تحتل مكانة مهمة فإبراهيم أبو الأنبياء الذي يؤمن به اليهود والمسيحيون والمسلمون على السواء اعتزم بأمر إلهي أن يقدم ابنه ذبيحة على مذبح هيأه لهذا الغرض.

وفي المسيحية يعتقد أن المسيح هو الذبيحة الوحيدة التي تحل محل الذبائح جميعاً، وفي الإسلام نجد الذبائح الحيوانية وبخاصة في عيد الأضحى (الأضحيات) تتضمن في معانيها إطعام الفقراء والتكفير عن الذنوب.

وهنالك معتقد آخر يشترك فيه أصحاب الديانات الثلاث وهو حرق البخور، فهو بديل للذبائح الحيوانية التي كانت تحرق بالفعل على المذابح، وكان الاعتقاد السائد والشائع حول البخور وأهميته أنه وسيلة لإبعاد الشر عن الإنسان، ويتضمن معنى التقدمة والاسترضاء للقوى الروحية.

خامساً: الاعتقادات والخرافات السائدة عند الأردنيين:

لم يكن الاعتقاد بالخرافات عند الأردنيين وليد الساعة، بل توارثوا ذلك جيلاً عن جيل، فالاعتقاد بالأرواح والجن، والعفاريت يرجع إلى العصر الجاهلي. وعندما جاء الإسلام دعّم الاعتقاد بوجود الجن في نفوس الناس.

أ. مأوى العفاريت:

يعتقد بعض الأردنيين أن الجن يسكنون في كل مكان. وأفضل سكناهم ما كان في الأماكن المهجورة المظلمة: كالمراحيض، والآبار المهجورة، والكهوف القديمة والمقابر. ويعتقدون أيضاً أن الجن ينافس الناس في طعامهم وشرابهم، وأن البركة بين الناس تزول عن طريقهم. ولكي يتخلصوا من مشاركة الجن لهم في مأكلهم لابد لهم من أن يذكروا اسم الله قبل أن يبدءوا بتناول طعامهم وإلا زالت البركة، ومحق الطعام من أمامهم، أما إذا شبعوا فلا بد لهم من أن يحمدوا الله على هذه النعمة ليجعلها دائمة لهم. ولعل الاعتقاد حول مشاركة الجن للناس في طعامهم يرجع في جذوره إلى أصول دينية تتعلق بذكر الله وحمده.

إن الأردنيين لا يتذكرون الجن إلا عندما تصيبهم مصيبة أو أذى، وغالباً ما يتذكرون ذلك في الظلام والأماكن المهجورة الخالية من الناس.

ب. الجان يرصد الذهب:

يؤمن بعض الأردنيين بأن الجان يرصد الذهب المطمور في الأرض، وذلك بعد أن تمر فترة طويلة على طمره، ولا يستطيع أحد أن يستخرج منه شيئاً، إلا بعد قراءة التعاويذ والتمائم، التي تختص بها فئة معينة من الناس قرؤوا كتباً مغربية. وفكوا طلاسمها وقد رويت كثير من الروايات عن وجود حراس من الجان للذهب فصدق كثير من الأردنيين هذه الروايات، واتفق بعض المغاربة في استخراج الذهب من الأمكنة التي يرصدها الجان التي تحمل بعض العلامات المميزة لها على أنها أمكنة مرصودة تحتاج إلى قراءة الطلاسم، لفتح كنوز الذهب، وليس أفضل ولا أقدر من المغاربة وكتبهم في فك الطلاسم والكشف عن الذهب المدفون، فكان المغربي يتفق مع بعض الأشخاص للبحث عن الذهب في أماكن معينة.

ج. سكب المياه ليلتي الاثنين والجمعة:

تقتضي التقاليد عند بعض الأردنيين أن تتحاشى المرأة سكب مياه الغسيل على الأرض ليلتي الاثنين والجمعة من كل أسبوع، فتحتفظ بهذه المياه في أواني الطبخ حتى شروق الشمس، ثم تقوم بسكبها في أي مكان تراه، وتهدف من ذلك إلى أن هذه المياه قد اتسخت، فلا يجوز أن تسكبها على الأرض خوفاً من أن تلامس أحد أفراد الجان فيغضب منهما، فالجان هم مخلوقات الله كغيرهم من البشر يغضبون ويسرون، وأي إنسان يسكب عليه ماء وسخ لابد من أن يغضب يعد ذلك إهانة له، وقد يقابلها بالشتم والسباب، أما الرد العملي للجان، فهو الضرب على الوجه وتشويهه، أو القيام بحركة معينة من شأنها أن تشل الإنسان، وتجعله مقعداً طيلة حياته، وإذا كان ولابد من سكب الماء فيها. فيتخلص من شره وأذاه.

د. التبخر بالشعير المقرئ:

عندما يصاب الطفل الرضيع بمرض يمنعه عن الرضاعة، فإن بعض الأمهات يعتقدن أن عيناً حاسدة وقعت عليه فيقلن في ذلك (عين أصابته وما صلت على النبي) لذلك تبدأ بعض الأمهات بالبحث عن الشعير المقرئ، والشعير المقرئ وهو الشعير العادي الذي يزرع في الأردن، إلا أنه يصبح شعيراً مقرئاً إذا قرئ عليه بعض المدائح النبوية في مناسبة من مناسبات مولد النبوي الشريف، فتقوم هذه الأمهات بوضع الشعير المقرئ في صحن أو محماسة، ثم تقوم بحرقة حتى يتحول إلى اللون الأسود، ويظهر دخانه لكل مشاهد، وتحمل الإناء الذي يحتوي على الشعير المقرئ بيدها اليمنى، وتدور به حول الطفل على شكل دائرة فوق رأسه وهي تقرأ الرقية عليه، مثل: (اللهم صلي على محمد تايلين الحجر، تايخضر الشجر وتايلين الحديد، وتايصير كل أمر عسير يسير. اخرجي من الجماجم والرأس بجاه الخضر أبو العباس أخرجي من الجال اليمين بجاه رب العالمين واخرجي من الجال اليسار بجاه العزيز الجبار).

ه. اللجام:

يستخدم الريفيون والبدو على السواء (الموس) في عمل حرز للدابة الضائعة خوفاً من أن تأكلها وحوش البر ويطلقون على ذلك اسم اللجام؛ فإذا فقد أحد رأساً من الماشية كالغنم أو الماعز راح يبحث عنها في كل مكان، حتى إذا غربت الشمس ولم يجدها خاف عليها من الذئب أن يفترسها؛ لأن الذئاب في العادة تفتش عن طعامها بعد غروب الشمس، فهو يضطر عندئذ أن يلجم عنها فيأتي إلى أحد المتخصصين بذلك ومعه موس من الحديد له عمد متصل به، فيصف له ماشيته الضائعة ويطلب عمل لجام لها، فيتناول هذا الموس منه ويقرأ عليه: سورة الحمد ثلاث مرات، ثم سورة الفلق ثلاث مرات، ثم يختمها بسورة الفيل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...} إلى أن يصل إلى كلمته {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ} فيضع كلمة ملجوم بعد كلمة العصف بدلاً من وضع الكلمة الحقيقية التي وردت في القرآن (مأكول) ويكرر كلمة ملجوم ثلاث مرات، وبعدها يغلق الموس ويسلمه إلى صاحب الماشية ويحذره من فتحه.

و. الاعتقاد في أصحاب الكرامات:

مقام سيدنا الخضر:

يوجد في بعض قرى الأردن مقامات قيل إنها لسيدنا الخضر، فكانت المرأة العقيم تلتجئ إلى سيدنا الخضر وتشكو همها إليها وتطلبه منه أن يكون شفيعاً لها عند الله وأن يرزقها طفلاً، ليكون قرة عين لها، وكانت المرأة مقابل ذلك تشتري خلقة خضراء وتعلقها على المقام مقابل أن تأخذ جزءاً منه وتدسها في ثوبها بركة من سيدنا الخضر.

وكان الرجال في أوقات البيدر يستنجدون بالخضر أيضاً ليطرح البركة في غلة القمح التي يسمونها الصبة ويضعون في وسط الصبة عصا بعد أن يوشحوها بقماش أخضر جاءوا بها من مقام الخضر، وكان أهل القرية جميعهم يعتقدون أن الخضر يشفع لهم عند الله، ويقضي حوائجهم، وكانوا يلتجئون إليه كلما أرادوا حاجة.

ز. العين الحاسدة:

يعتقد بعض الأردنيين بالعين الحاسدة ويحسبون لها ألف حساب ويتحاشون مقابلة الحسود، ويعتقدون أن عينه تصيب بالسوء، وأنها إذا وقعت على طفل جميل، أصيب بمرض شديد، وقد يصيبه مرض الموت، حتى قالوا: (إن معظم الأموات هم من العين الحاسدة) وإذا رأى الحاسد بستاناً للفواكه فإن التسوس سيصيبه، وستتساقط أوراق أشجاره، وقد تذبل أشجاره وتموت.

وإذا مر الحاسد على كومة من القمح وداره حولها من الجهات جميعها فإن البركة تطير منها. وإذا دعي إلى وليمة واشتاقت نفسه إلى شيء في دار المضيف فلا بد أن يصاب أصحاب الدار بمكروه، والأردنيون عندئذ يتفاءلون ويقولون: (الحمد لله انكسر الشر)، (مليح أن ما جاءت العين بأحد الأولاد) ولكي يتجنبوا شر العين الحاسدة، فإنهم يلجؤون إلى تلاوة بعض الآيات مثل: آية الكرسي وسورة الفلق. وعلى

الرغم من ذلك، فإنهم يضيفون بعض التمائم كالخرزة الزرقاء التي تطرد شر عين الحاسد.

ومن هذا المغزى، يتبين لنا أن بعض الأردنيين يؤمنون بالأعمال الخارقة للعين الحاسدة وكأنها قديرة على كل شيء لا يقف في طريق أذاها إلا هذه الرقى والتمائم.

نموذج عن المعتقدات عند طائفة الدروز في الأردن:

الدروز: فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نشتكلي الدرزي، نشأت في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها حتى لأبنائها إلا إذا بلغوا الأربعين. والدروز يسكنون شرق الأردن في واحة الأزرق، ويسكنون فلسطين ولبنان.

الجذور الفكرية والعقائدية:

1. تأثروا بالباطنية عموماً، وبخاصة الباطنية اليونانية متمثلة في أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس وعدوهم أسيادهم الروحيين.
2. أخذوا جل معتقداتهم عن الطائفة الإسماعيلية.
3. تأثروا بالدهريين في قولهم بالحياة الأبدية.
4. تأثروا بالبوذية في كثير من الأفكار والمعتقدات.
5. تأثروا ببعض فلاسفة الفرس والهند والفراعنة القدامى.

الأفكار والمعتقدات:

1. يعتقدون بألوهية الحاكم بأمر الله ولما مات قالوا بغيبته وأنه سيرجع.
2. ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ويلقبونهم بالأبالسة.

3. يعتقدون بأن المسيح هو داعيتهم حمزة بن علي بن محمد الزوزني (375هـ) وقد ألف كتب العقائد الدرزية، وهو مقدس عندهم بمنزلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند المسلمين.
4. يبغضون أهل الديانات الأخرى جميعهم وبخاصة المسلمين منهم بخاصة، ويستبيحون دماءهم وأموالهم، وغشهم عند المقدرة.
5. يعتقدون بأن دياناتهم نسخت كل ما قبلهم، وينكرون أحكام الإسلام وأصوله وعباداته جميعها.
6. حج بعض كبار مفكريهم المعاصرين إلى الهند متظاهرين بأن عقيدتهم نابغة من حكمة الهند.
7. يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الثواب والعقاب يكون بانتقال الروح من جسد صاحبها إلى جسد أسعد أو أشقى.
8. ينكرون الجنة والنار والثواب والعقاب الأخرويين.
9. ينكرون القرآن الكريم، ويقولون: إنه من وضع سلمان الفارسي، ولهم مصحف خاص بهم يسمى المنفرد بذاته.
10. يرجعون عقائدهم إلى عصور متقدمة جداً ويفتخرون بالانتساب إلى الفرعونية القديمة وحكماء الهند القدامى.
11. يعتقدون أن القيامة هي رجوع الحاكم الذي سيقودهم إلى هدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى في أنحاء الأرض جميعها وسيحكمون العالم إلى الأبد.
12. يعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء هم: حمزة، وإسماعيل، ومحمد الكلمة، وأبو الخير، وبهاء.
13. لا يقبل الدروز أن يدخل أحد في دينهم، ولا يسمحوا لأحد بالخروج منه.
14. يعتقدون أن الهم خلق العقل الكلي، وبواسطته وجدت النفس الكلية، وعنها تفرعت المخلوقات.

مما سبق، نلاحظ أن الدين نظام سلوكي يقوم على معتقدات تمثل علاقات خلقية بين الناس ودينهم وبين ما يعبدون، ويحتوي الدين في أغلب الأحوال على احتفالات وطقوس وعبادات مقدسة، والدين موجود في كل حضارة على الرغم من اختلافه من شعب لآخر عقيدة وتطبيقاً.

أما السحر: فهو جملة من التطبيقات والمعتقدات التي تستند أساساً إلى بعض الأدعية والشعائر والطقوس التي تتأثر وتؤثر في قوى ما وراء الطبيعة، فتسبب أحداثاً يرغب الناس في وقوعها على الرغم من أنه يبدو لنا قائماً على مفاهيم باطلة، ولكنه مقدّس في نظر الشعوب البدائية التي تمارسه عملاً منطقياً، لأنه يوصلهم إلى نتائج طيبة حسب ما يعتقدون.

أما الوجه الآخر للمعتقدات فيكون في المعتقدات الشعبية التي تتضمن مجموعة من ثقافة والشعب وحضارتهم ومنها: التراث الشعبي، والحكم، والأمثال، والموروثات الثقافية ومثالاً على ذلك:- البشعة في المجتمع الأردني وخصوصاً عند عشائر الحويطات، التي يقوم أساسها على الاعتقاد بوقوع الضرر من استخدام البشعة على المتهم بقول الزور أو قذف المحصنين أو المحصنات باعتباره أسلوب من أساليب التحقيق في الجرائم الكبيرة كتلك التي اتهم بها المتهم كالقتل وما إليه من الجرائم الأخرى، وذلك بأن يؤتي بطاس من الحديد ويحمى حتى يحمر ويكلف المتهم أن يلعقه بلسانه بعد الإدلاء بأقواله في موضوع التهمة أو الشهادة، ثم يتناول جرعة ماء ويتمضمض بها، ثم يلقى بها خارجاً لدلالة على أنه بريء مما أسند إليه من تهمة، أو للدلالة على أنه شهد الحق بلسانه، وأصابه ضرر بعد المضمضة وعدّ مذنباً واستحق العقاب بموجب تلك المعتقدات الشعبية وفي كلتا الحالتين يعرض أمره على المحكمين ليقضوا في شأنه بما يرونه مناسباً وفقاً لعرفهم القضائي ووفقاً لتلك المعتقدات، أما إذا لعق الإناء ولم يصبه ضرر فإنه يعد بريئاً وينتصر له في رد الاعتبار إليه، وله الحق بالمطالبة بحقه ممن اتهمه بالجريمة أو بالشهادة الكاذبة وهذا ما يسمونه الشرفية ورد الاعتبار.

وقد جرت العادة أن يسمح المبشع الطاس المحمية بيده قبل أن يقدمها للمتهم من دون أن يناله ضرر من هذا أو ألم، لذلك كله نجد الثقافة ضرورة تربوية نفسية وأخلاقية متمثلة في تراث المجتمع ومعتقداته، وهي تشكل معالم الحياة الخاصة في المجتمعات ذات الاعتقاد وتمثل أيضاً نوعاً من أنواع الضبط الاجتماعي الذي يمارس سطوته ونفوذه على الأفراد والجماعات التي تتخذ منه مصدراً للاعتقاد، ثم يصبح الاعتقاد مفيداً لدى أولئك الأفراد وتلك الجماعات.

وخلاصة القول: إن الثقافة تمثل ضرورة إنسانية عامة ولازمة لرقي المجتمعات وتقدمها وخاصة لبلاد انخفض فيها مستوى الثقافي، أو لبلاد تفتقر إلى بعض مقومات الثقافة والمدنية والحضارة.

الفصل الرابع

العادات والتقاليد عنصر من الثقافة

العادات والتقاليد عنصر من الثقافة

العادات والتقاليد

أولاً: مفهوم العادات (*Customs*)

العادات هي: «أنماط من السلوك التي تنتقل من جيل إلى جيل وتستمر فترة طويلة حتى تثبت وتستقر وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها، والعادات مفردها عادة، وتشير إلى سلوك منتظم يكتسبه الفرد بفضل التعلّم». (خياط، 1986).

ثانياً: أنواع العادات:

1. **العادات الفردية**: تُطلق على المظهر السلوكي الذي نلمسه في ممارسة الأفراد، وتكون هذه الممارسة متجانسة تلقائياً ومعروفة ومحددة؛ لأننا نقارنها بممارسات فردية أخرى حيوية تظهر بين أفراد الجماعة الواحدة، وتختلف عن العادات الجماعية أو ما يُطلق عليها أحياناً العادات الشعبية (*Folk Ways*)، فالطرق الشعبية تشير إلى الأساليب التي تستخدمها الجماعة في إشباع حاجاتها وتنظيم حياتها وتفاعل أفرادها مع بعضهم بعضاً دون أن يكون هناك إلزام لاتباعها من قبل الجماعة. فالطرق الشعبية تساعد أفراد الثقافة في معرفة ما هو متوقع منهم في المواقف المختلفة وطرق السلوك المتقبل وأساليبه اجتماعياً في الثقافة. والعادات الفردية تختلف من شخص لآخر حتى في الأسرة الواحدة، فبعضهم يقوم بقص شعر رأسه أو شاربه، ويقوم آخر بالإبقاء عليه. (السيد، 1983).

إن العادات الفردية تُمارس بشكل تلقائي وعفوي وفق أمزجة فردية، وتتم ممارستها دون تعقيد وبيسر وبسهولة؛ لأن من يمارس عادة معينة يكررها مراراً حتى تصبح ملازمة له ومتوقعة منه وترتسم شخصيته بها، وفي هذه الحالة نقول: إن

العادة (*Habit*) هي صيغة مكتسبة في السلوك، تظهر كمهارة حركية، أو نظرية، أو طريقة في العمل أو في التفكير، وتتكرر هذه العادة أو هذه الممارسة بحيث يتصرف الفرد بطريقة آلية وبسرعة وبدقة عندما يتعرض لمثير معين أو لموقف خاص. (ناصر، 1992).

2. **العادات الاجتماعية**: هي الممارسات التي تستلزمها الحياة الاجتماعية في مجتمع من المجتمعات، إذ تتمثل في الأفعال والأعمال الضرورية التي تلتصق بمعاملات الناس مع بعضهم، والعادات في الواقع تعبير وممارسة تتناقلها الأجيال المتعاقبة في مجتمع معين، لتلبية مستلزمات الحياة الاجتماعية.

فالعادات الاجتماعية تكون عامة لأفراد المجتمع كلهم دون استثناء، ويشترك في ممارستها الكبير والصغير، الغني والفقير، العامل والموظف.

ومن الأمثلة الواضحة على العادات الاجتماعية "التحية" التي تعد من العادات الاجتماعية ويتميز بها كل مجتمع عن الآخر وحتى الجنس الواحد، وهذا ما نشاهده في البلاد العربية. ففي الخليج العربي على سبيل المثال تكون التحية ملاصقة أنف الفرد مع الآخر ومنها تقبيل جبين الشخص لشخص آخر، ومنها تقبيل يد الكبير أو الزعيم، في حين بعض البلدان تتوزع بين السلام باليد أو بكلتا اليدين أو العناق.

وفي المجتمع الأردني تأخذ التحية أشكالاً وألفاظاً عدة: منها السلام باليدين، والتقبيل، والعناق. ومن الألفاظ الشائعة:

1. مرحباً.
2. صباح الخير ومساء الخير.
3. السلام عليكم.
4. صح أبدانهم.
5. على العافية.
6. هلو.
7. جَوَّك.

ثالثاً: مميزات العادية:

1. التلقائية: تُمارس بشكل تلقائي دونما بحث عن مصادرها الأصلية.
2. الإلزامية والجبرية: فالفرد يمارسها لأنها مفروضة عليه ومن صنع المجتمع.
3. الأسطورية.
4. التنوع والنسبية.
5. الرغبة في التمسك بالعادة.

رابعاً: وظائف العادات:

1. **الوظيفة الاقتصادية:** هي توفر الوقت والجهد والمال بممارستها، مثل: عادات تقديم الهدايا، والنقود في الأفراح والمناسبات، فهي لو لم تكن موجودة لكانت تكلفة الحياة على الفرد أكثر.
2. **الوظيفة الإرشادية:** هي عادة اجتماعية مرشد وموجّه للتصرّف في الحياة الاجتماعية: بمعنى أن ترشد الفرد إلى طريقة التعامل أمام كل حالة تصادفها.
3. **الوظيفة التنبؤية.**
4. **الوظيفة الجمالية:** تتعلق بأسلوب التعامل مع الناس في شتى النواحي، فالعادات تساعد في كيفية تقديم الهدايا باعتبارها نوعاً من الجمال الظاهري، وتعلمنا جمال الشعور بالإحساس، كالإحساس مع الناس في مناسباتهم، ومعاملة الأبوين والأطفال وكبار السن. (عطية، 1991).

هناك نوع من العادات الاجتماعية تعرف بالعادات الحتمية، وفي ظل التعامل بها لا تتهاون الجماعة فيمن يخرج عليها فتعرّضه للعقاب. (مثال ذلك): لا يسمح للفرد بأن يخرج إلى الشارع عارياً، فلابد أن يرتدي شيئاً، ولكنها لا تمنعه من ارتداء زي معين، ففي الحالة الأولى يعاقب من يسير في الشارع عارياً، ولكنها لا تعاقب من يسير في الشارع مرتدياً زياً معيناً غير زي الجماعة، ولكنه لا يكشف عورته مثلاً، ولكن

من يخرج على زي الجماعة قد يُقابل بالسخرية أو الاستهزاء، فالخروج عن العادات الاجتماعية قد يقابل بالسخرية والاستهزاء في حالات معينة، وقد يخضع للعقاب في حالات أخرى.

وفي الحالات كلها تبرز أهمية اتباع العادات الاجتماعية في أنها ملزمة بمعنى أو آخر؛ لأن الجماعة تراها مناسبة وملائمة لضبط الجماعة وتنظيم المجتمع. (عطية، 1991).

خامساً: العادات الاجتماعية الجديدة «الحديثة»

هي الممارسات الجديدة التي تقوم بها جماعة وتتقبلها، وتنتشر بين أفرادها فترة من الزمن ثم تزول، أي أنها لا تستقر ولا تدوم، مثل: زي الملابس، والفن بأشكاله يطلق عليها اسم «الموضة»، وهي تختلف عن التقاليد لوجود عدد من الفروق منها:

الموضات	التقاليد
1. تنتقل بشكل أفقي من دولة إلى أخرى بواسطة وسائل الإعلام	1. تنتقل بشكل رأسي من جيل إلى آخر.
2. تمتاز بالحداثة.	2. تمتاز بالأصالة.
3. عابرة ومؤقتة.	3. تتصف بالقدسية والاستمرار والدوام.
4. يتأثر بها فئة قليلة من المجتمع.	4. يتأثر بها المجتمع معظمه.

أمثلة تطبيقية:

يُمارس الفرد كثيراً من العادات يومياً دون وعي منه، ودون تحليل لها أو تفكير بها. فالمرأة الأردنية تحبّ التزيّن بالحلي والمجوهرات، فلو خرجت عن هذه العادة ولم تلبس أي قطعة ذهبية لعُدّ ذلك أمراً عادياً، ولو مشى الرجل على قدميه مسافة داخل المدينة بدلاً من سيارة يركبها لما وُجد في الأمر نوعاً من الاستهجان.

وكذلك إن العادة في الأعراس الأردنية تقوم حالياً على ذبح الخراف عند الزواج، إذ يتسابق الناس فيها على الكرم. فمنهم من يذبح العشرات، ومنهم من يكتفي بذبح واحدة. فلو اختصر أحدهم هذه الشكليات، واقتصر ذلك على حفلة عائلية بسيطة، لكان الأمر طبيعياً، ولما وجد احتجاجاً، أو اعتراضاً على ذلك في المجتمع.

سادساً: مفهوم التقاليد (*Tradition*):

ممارسات اجتماعية مكتسبة، يكتسبها الفرد من المجتمع الذي تربّى وعاش فيه، وهي أشكال من السلوك والتصرفات الجماعية لها مكان القداسة لدى الأفراد في المجتمع الواحد لأنها تعد في نظرهم الأفعال التي تحفظ هيبتهم، وتمنحهم العزة، والاعتبار في المجتمع الذي يعيشون فيه، فهي على ذلك «اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يعقل من دون نظر في الدليل».

إن العادة تتعلق بالسلوك الخاص بينما التقليد يتعلق بسلوك المجتمع ككل، ومثال ذلك: الاحتفال بأعياد الميلاد الخاصة تعد عادة، في حين الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف يعد تقليداً، وكذلك الاحتفال بعيد زعيم سياسي أو قائد وطني يُعد تقليداً أيضاً. فالاختلاف هنا اختلاف في الدرجة وليس اختلافاً في النوع.

1. خصائص التقاليد:

أ. الاكتساب: التقاليد ليست فطرية عند الإنسان، بل هي مكتسبة، يتوارثها الأبناء عن الآباء وتنقل بثلاث طرق: (الطريقة الشفوية، والطريقة المكتوبة، والتجربة والممارسة) ويظهر ذلك في الرقصات الشعبية، أو الدينية والقومية.

ب. التمسك: ومن ذلك أن يُلقي جلالة الملك خطاب العرش عند افتتاح مجلس الأمة، أو الاحتفال بعيد الجلوس الملكي كل عام.

ج. الإصرار والتعمد.

د. الشعور بالطمأنينة.

ه. الصعوبة في التغيير.

2. **مجالات التقاليد:**

أ. الشعائر: هي ممارسات تُعبر عن المشاعر المشتركة والاتجاهات، من خلال أفعال منظمة رسمية تؤدى بدرجات متفاوتة وتستهدف تدعيم روابط التضامن بين الأشخاص المشاركين فيها. ومن ذلك قراءة الفاتحة عند الخطبة، وقراءة المأذون بعض الأدعية عند العقد، ومن أمثلة ذلك عدم البكاء في مناسبات الأفراح، وتناول الطعام في مناسبات الحزن مثلاً.

ب. الرموز: الرمز هو تعبير أو نشاط استجابي يشير إلى فكرة أو ميزة أو إشارة مجردة تحل محل الموضوع الأساسي أو الرئيس، وتصبح بديلاً عنه ومتمثلاً له. ومن الرموز التي تعد تقاليد خاصة: تقديم خاتم الخطبة عند إتمام عقد القران، والإشارات التي توضع على أكتاف الجند، وشعارات الكشافة والجوالة.

ج. الاحتفالات العامة: تظهر في النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن التقاليد المعروفة في الاحتفالات: الدبكة والسحجة والغناء والرقص.

3. **وسائل تدعيم التقاليد:**

الحكم والأمثال المتوارثة، والأغاني بأنواعها، والرقص الشعبي.

4. **أهمية التقاليد:**

أ. تشكّل ضابطاً مهماً في تنظيم الميول والاتجاهات والنزعات.

ب. تعمل على التماسك الاجتماعي وتقوية بنيان المجتمع.

ج. تنير للأفراد الطريق في التعامل مع بعضهم إزاء مواقف حياتية مختلفة.

د. توجّه الفرد إلى ممارسة ما هو مقبول ومُباح، وتبعده عما هو غير مقبول ولا مُباح، ومحرم.

سابعاً: الفرق بين التقاليد والعادات:

التقاليد	العادات
1. يشعر الناس نحوها بالتقديس ولا يمكن العدول عنها بسهولة.	1. لا يشعر الناس نحوها بالتقديس، ويمكن العدول عنها بسهولة.
2. سلوك يقبله المجتمع دون دوافع أخرى.	2. سلوك يقبله المجتمع حسب دوافع معينة.
3. تسير الممارسة السلوكية من البداية عن طريق عادة فردية ثم إلى عادة اجتماعية ثم تصبح تقاليد مجتمع وتصبح ملزمة.	3. قد تكون العادة فردية أو اجتماعية وهي ملزمة.

ثامناً: الثقافة بين العادات والتقاليد:

تمتاز العادات والتقاليد التي تنشأ في نطاق الجماعة بصفة العمومية والانتشار في الثقافة، فهناك بعض العادات لها صفة العمومية بين الطبقات الاجتماعية كلها والجماعات كلها، وأخرى خاصة بطبقة معينة أو جماعة معينة في المجتمع، كما أن طرق اتباع هذه العادات والتقاليد قد تختلف من جماعة إلى أخرى في المجتمع، ومما لا شك فيه أن للقبائل والعشائر تقاليدهم وعاداتهم الخاصة في الترويح عن أنفسهم. إن ثقافة الإنسان تعني هنا: "القيم ونظم الحياة والإدارة، والعادات والتقاليد والأخلاق..."، والقيم الاجتماعية، فيها ثقافة وحضارة، وعلم وحكمة، وعادة يقدسها الناس، وإن بدا فيها ما لا يفهم سببه، وما لا يقره العقل تماماً، وهي عنصر هام في السلوك والتربية... فهي ثروة خالدة من ثروات المجتمع... وإليها يرد كثير من النظم القائمة... يقدسها الشيوخ ويحاول الشباب

الخروج عليها... وهي في صراع مستمر مع التجديد والروح العصرية. ويدرك الفرد التباين الثقافي بين مختلف قبائل المجتمع الأردني وعشائره، ومنها: اختلاف دور المرأة والرجل، وما يسودها من أعمال عند البدو وعند الشركس، والخطبة (الزواج) كذلك تتشابه بعض الجماعات والعائلات من حيث عاداتها وتقاليدها. فالأسرة الأردنية محافظة سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو شركس.

❖ دور المرأة:

إن دور المرأة عند الشركس الطاعة العمياء للزوج. فلا أثر لرأي المرأة في مجتمعهم وليست مساوية للرجل في الحقوق والواجبات. أما في الوقت الحاضر؛ فقد أصبحت علاقتها مع زوجها علاقة تشاركية تعاونية، علاقة محبة وتفاهم بدلاً من علاقة السيطرة والاستعلاء.

أما عند البدو، فالمرأة تقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجل من رعي وزراعة، والزوج هو الحاكم بأمره داخل الأسرة، والمرأة تطيعه. فالحياة تعاونية تشاركية.

❖ الزواج:

من بين التقاليد عند الشركس أن الفتاة الشركسية تتزوج في كثير من الحالات عن طريق الخطف، وهذه التقاليد توارثها جيل بعد جيل، عندما كانوا يعيشون في بلاد القفقاس التي كانت فيها حياتهم: حياة قتال ونزاع وفروسية.

أما الزواج المتعارف عليه، فيتم عن طريق إرسال أم العريس وقريباتها لرؤية الفتاة، ثم يجتمع أهل العريس لإرسال الجاهة، وعادة ما يكونون من عليّة القوم، لهم وزن وجاه ومركز اجتماعي بين الناس، وهذا له مغزاه. فهو من جهة احترام وتقدير لأهل العروس، ومن جهة أخرى أن للعريس عزوة كبيرة ولعشيرته شأن.

❖ عادة الاختلاط عند الشركس:

الاختلاط بين الفتى والفتاة عند الشركس أمر طبيعي، وقد تجالس الفتاة أحد الفتيان في بيت والدها دون أن يجد أهلها غضاضة في ذلك، فيجلسان في البيت على انفراد يتسامران معاً دون أن يشكّ الأهل بنواياها.

وهذا ما يشبه التعليلة عند البدو، وقد يختار الضيف الفتاة التي تسامره زوجة له؛ أما المرأة المتزوجة فلا يحق لها مجالسة الضيف سراً، بل من واجبها الاهتمام بزوجها والعناية به.

❖ عادة الاختلاط في المجتمع الأردني:

إن اختلاط الرجل بالمرأة عادة طبيعية في الريف والبادية على السواء، ولكن هذا الاختلاط كان شريفاً مبنياً على الخُلق الحسن بعيداً عن الانحلال. وكان له ما يبرره، إذ تخرج الفتاة سافرة إلى الحقول جنباً إلى جنباً مع الرجل في جني المحصول، وكذلك كانت بعض الفتيات يردن الينابيع ليلاً ويملأن الجرار. والقرى تفتقر إلى الكهرباء والماء داخل المنازل، فكان يرافق الفتيات بعض شباب القرية لحمايتهن من الحيوانات المفترسة وعلى رأسها الضبع.

❖ وليمة العرس:

إن الثقافة هي التي تطبّع الناس بطباعها وتميز قوم عن قوم آخر، فالناس مفطورون على الكرم ويرون أن الكرم لا حدود له. ومن أكثر العادات تكلفة التي تطبع المجتمع الأردني "وليمة العرس" وعادة ما تتكون من الأرز واللحم، حيث يوضع الأرز في مناسف خاصة مصنوعة من الألمنيوم أو النحاس. ويعد المنسف الأكلة الدارجة في المجتمع الأردني، وكل ما عداه من طعام لا قيمة له في نظر المدعويين.

أما في الضفة الغربية، فالأكلة الدارجة "المسخن"، والمسخن هو أرغفة ملفوفة بالزيت والسماق والبهارات، بالإضافة إلى عدد من طيور الدجاج. أما اليوم؛ فقد شاع استعمال المنسف في كل من الضفتين، وأصبح الطعام التقليدي في المناسبات جميعها.

❖ النجمة والهلال في شهر رمضان:

إن الاعتماد على النجمة والهلال تقليد للدول الإسلامية الكبيرة (مصر، تركيا)، والهلال هو شعار إسلامي تُبنى عليه كل التقاويم الفلكية القمرية في بدايات الشهر الهجري ونهاياته.

ويشكّل النجمة والهلال زينة رمضانية وقد بدأت الأسر الأردنية وبخاصة في العاصمة عمان تستخدمها بصورة لافتة للنظر منذ ما يقارب الأربع سنوات، وامتدت لتشمل المحال التجارية والمرافق الخدمية وحتى واسطات النقل. وقد أصبحت هذه الزينة والتي تحمل مضامين دينية جزءاً من احتفالنا بشهر رمضان المبارك.

❖ السبحة "المسبحة":

وسيلة للعبادة، وفيها مآرب أخرى. تنتشر في شهر رمضان بشكل لافت للنظر، و"السبحة" والتي لم تعد تقتصر على كبار السن أو رجال الدين، متجاوزة إطارها الديني حتى وصلت إلى فئة كبيرة من الناس بهدف الوجاهة أو التسلية الخفيفة.

وعادة السبحة هي عادة وافدة من المجتمعات العربية الإسلامية وبالتحديد من الهند في فترة ازدهار التجارة العربية خلال العهد العباسي.

تاسعاً: رأي ونقد

1. مما سبق، يتبيّن لنا أن العادات فردية وجماعية، وهي مجموعة من الأفعال والأعمال وألوان السلوك تنشأ في قلب الجماعة بصفة تلقائية، وتمثل ضرورة اجتماعية لا يملك الأفراد الخروج على مقتضياتها والتزاماتها، وتتمثل في آداب المائدة، والحديث، وقواعد السلوك العام، وزيارة المقابر... الخ، وما يميز العادات أنها تمتاز بالعمومية والانتشار.

أما التقاليد فهي طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة أو طائفة أو بيئة، وهي تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعي على إجراءات وأوضاع معينة خاصة في المجتمع المحدود الذي تنشأ فيه، فهي مزودة بصفة الجبر والإلزام.

ويتضح أن العادات والتقاليد التي أشرنا إليها قد ضعفت هيبتها وضاع جلالها وقدسيتها إلى حد ما، فلم يعد الأفراد في الوقت الحاضر يحفظون لها في قلوبهم ما كان يحفظه السلف من التقدير والاحترام، لا سيما هؤلاء الذين يعيشون في بيئات متحررة أو في مجتمعات أكثر تطوراً.

2. وعلى صعيد البحث النظري، ثمة اعتراضات عدة على العادات والتقاليد تنطلق من واقع أن الدين الإسلامي يرفضها باعتبارها متحيزة ومهيمن عليها من قبل بعض العائلات والأفراد. وقد بات واضحاً التأثيرات السلبية بل والخطيرة للعادات والتقاليد خصوصاً على الخصوصيات الثقافية المهددة، وما على الثقافة العربية والأردنية خصوصاً سوى إقامة حوار داخلي بين اتجاهاتها وتياراتها الفكرية، فلا مانع من إعادة بناء الثقافة، بما يضمن حرية تداول الأفكار، والمنتجات الفنية والمادية إلى جانب تدعيم النشاط الإبداعي.

إن ذلك يرتب استحقاقات إضافية لا تستطيع المؤسسات التربوية والإعلامية مواجهتها، ما لم تتخل عن نظم عملها العتيقة وتتحرر من الرقابة.

3. تتضمن الخصوصيات الثقافية مجموعة من العادات والتقاليد الاجتماعية والقيم المرتبطة بفئات اجتماعية معينة في المجتمع قد تكون ممثلة في طبقات اجتماعية أو جماعات عرقية. وترتبط الخصوصيات الثقافية بالمجموعات الطبقية والعرقية وأفراد المهنة الواحدة.

إن دور التربية في ذلك العمل على تماسك المجتمع من خلال تقديم ثقافة مشتركة لأفراده تقرّب بينهم. فالتعليم العام والخاص يعمل على تدريب طبقة اجتماعية معينة على أنماط سلوكية خاصة بهم، فإن وجود نوعين من التعليم أو أكثر يؤدي إلى ثنائية التعليم مما يساعد في تأكيد الخصوصيات الطبقية والعرقية.

الفصل الخامس

الأخلاق كعنصر

من مفهوم الثقافة

الأخلاق كعنصر من مفهوم الثقافة

أولاً: مفهوم الأخلاق

أ. لغة: جمع خلق، فقد وردت في اللغة العربية بمعانٍ متعددة منها: الدين، والمروءة، والطبع، والسجية، والعادة (مدكور، 1990).

ب. اصطلاحاً: حالة في النفس، داعية للإنسان إلى أن يفعل أفعال النفس بلا روية واختيار (مدكور، المرجع السابق).

ثانياً: أنواع الأخلاق:

1. **الأخلاق العملية**: وهي الأخلاق التي ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها في حياته العملية اليومية، مثل: الصدق، والإخلاص، والأمانة، والوفاء، والعفة، والشجاعة، والعدل، والرحمة. وهذه كلها تمثل أنواعاً من الأفعال لها مثال في الخارج. وقد عرفت كل الأمم والشعوب في القديم والحديث هذا النوع من الأخلاق العملية. (زقزوق، 1983).
2. **الأخلاق النظرية**: وهي البحث عن حقيقة الخير المطلق وفكرة الفضيلة الكلية.

ثالثاً: أهمية دراسة الأخلاق:

يهتم الإنسان بما أودع فيه من العقل بمعرفة الحقيقة ولكنه بما أودع فيه من الشعور يهتم بممارسة الخير فإذا كان للعلم أهمية في رقي الإنسان المادي، فإن الأخلاق أكثر أهمية لأنها:

1. تتصل بالناحية الروحية عند الإنسان.
2. كل إنسان محتاج لأن يبني تصرفاته ويبررها بالرجوع إلى مبدأ خلقي.

3. إذا لم يتخذ الإنسان لنفسه موقفاً بالنسبة للمشكلات التي تعرض له وآثر أن يكون سلبياً، فإن هذه السلبية تكون ضد الأخلاق.
4. إن الضمير الأخلاقي عند الإنسان يتقيد كثيراً بما يسود في المجتمع من معتقدات وعادات وتقاليد، ولذلك فإن الإنسان يحكم على الأفعال والتصرفات لا من خلال ضميره فحسب، بل من خلال ضمير المجتمع.
5. الحاسة الخلقية حاسة متأصلة في الإنسان وخير شاهد على ذلك ميل الإنسان نحو الخير من تأنيب الضمير الذي يقلق راحة الإنسان حين يحس أنه أخطأ.
6. الحاسة الخلقية هي التي تدفع الجماهير إلى الدفاع عن حق الضعيف، ومعاقبة الظالم بالرجوع إلى المقاييس الأخلاقية للحق والعدالة، ويدخل هذا الحكم في أنواع النشاط السياسي والاقتصادي والتربوي...إلخ (بدوي، 1994).

رابعاً: تصنيف الأخلاق:

1. **عقلية:** من خلال تثقيف العقل وإعداده للتفكير السليم والحكم على الأشياء والإفادة منها.
2. **بدنية:** تنمية الجسم وحفظ الصحة.
3. **علمية:** إمداد العقل بالتراث العلمي.
4. **مهنية:** إعداد الفرد للاندماج في الحياة وكسب عيشه.
5. **فنية:** إيقاظ شعوره بجمال الكون، وتمكينه من التعبير عن هذا الشعور بصورة جمالية.
6. **اجتماعية وطنية:** تعريفه بالحقوق والواجبات في المجتمع الذي يعيش فيه وما فيه من نظم وقوانين.
7. **إنسانية:** إفهامه معنى الكرامة والأخوة العالمية.
8. **دينية:** هي الارتقاء بالإنسان إلى المعاني الروحية.

قد يعتقد من ينظر في هذا التقسيم أن الأخلاق تعنى فقط بناحية واحدة من هذه النواحي وهي التربية الخلقية، لكن الأمر ليس كذلك، فإن سلطان الأخلاق يسري على أنواع النشاط الإنساني جميعه، ولا يخرج عن حكم الأخلاق أي نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي.

مثال: الفنان الذي يجافي بفنه التقاليد الخاصة باللياقة والحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الخلقي وإن لم يكن بذلك قد خرج عن قواعد الفن، والعالم الذي يكرس جهوده العلمية لإلحاق الدمار بأخوته في الإنسانية يكون قد خرج على القانون الأخلاقي، وإن كانت بحوثه ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية (روس، 2001).

خامساً: مراحل النمو الأخلاقي:

1. **مرحلة الحذر:** عندما يبدأ الطفل في السيطرة على دوافعه الغريزية.
2. مرحلة السلطة: يصل الطفل إلى هذه المرحلة عندما يتمكن من التفرقة بين الناس والأشياء في بيئة العقاب.
3. **المرحلة الاجتماعية:** يصل إليها الطفل عندما تتسع دائرته الاجتماعية، ويكتشف أن أفعاله يجب أن تكون مسايرة لما يراه الرأي العام.
4. **المرحلة الذاتية أو الشخصية:** وهي أرقى مراحل النمو الخلقي، وفيها يتمكن المرء من السيطرة على دوافعه، والخضوع لمثل أعلى في سلوكه وهو الضمير الأخلاقي –الأنا العليا– .

سادساً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

1. **الوراثة:** هي انتقال بعض صفات الأصل لفرعه قل ذلك أو كثر، ومن خلالها تنتقل للفرد مجموعة من الصفات الجسمية عادية كانت أو شاذة.

2. **البيئة:** هي كل ما يحيط بالمرء ويؤثر فيه كثيراً أو قليلاً، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من منزل، ومدرسة، وأصدقاء، ورحلات، وتقاليد، ونظم، وقوانين...إلخ (زقوف، 1983).

مثال (1): إذا تغلب على الإنسان ميل البذل والعطاء كلما وجدت الظروف الداعية إلى ذلك، فإنه يقال حينئذ: إن هذا الشخص خلقه الكرم. فالخلق على هذا: هو تغلب ميل من الميول على الإنسان باستمرار.

مثال (2):

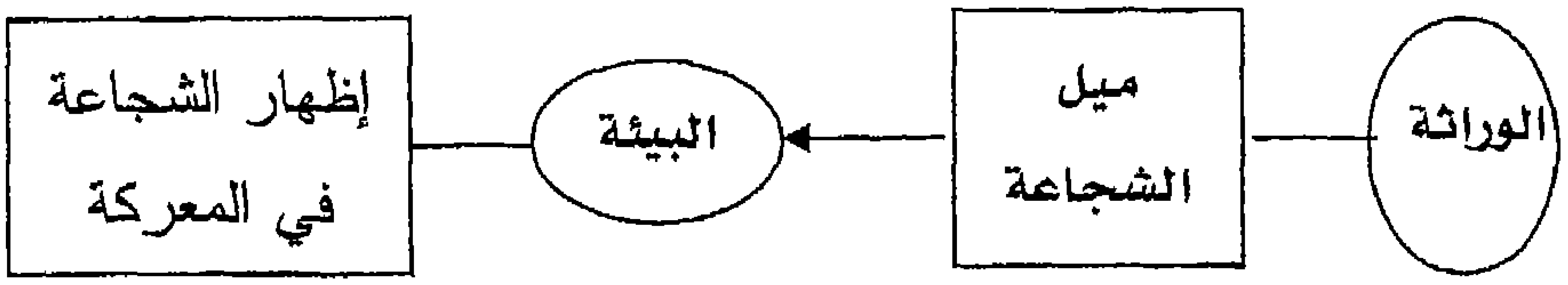

فللوراثة والبيئة معاً الأثر الأكبر في تكوين عادات الإنسان وأخلاقه، إذ إن الوراثة تمده بالغرائز والميول والاستعدادات المختلفة، والبيئة تميل به إلى ناحية الخير أو الشر بما تتيحه له من فرص ومناسبات.

سابعاً: نماذج أخلاقية في ثقافة المجتمعات المختلفة:

	المجتمع	النموذج الأخلاقي
.1	المصريون القدماء	"إني لا أقول كذباً لأني كنت إنساناً محبوباً من والدي، ممدوحاً من والداتي، حسن السلوك مع أخي، ودوداً مع أختي".
.2	الصينيون القدماء	"عامل أفراد أسرتك معاملة فاضلة، عندئذ تستطيع بعد ذلك أن تعلم أمة وتقودها بأكملها".
.3	الإغريق	"أترى أن حياة الرضا، وعيشة البطالة يعينان على تعلم ما يلزم معرفته وعلى الاحتفاظ بما تعلمه الإنسان، وعلى المحافظة على الصحة".
.4	العصر الجاهلي	"المروءة ألا تفعل سراً أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً".
.5	الإسلام	قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ثامناً: المؤسسات الثقافية ودورها في تنمية الحس الأخلاقي:

الرقم	المؤسسة الثقافية	ودورها في تنمية الحس الأخلاقي
1.	الأسرة	❖ دور أساس في مستقبل -الشخصية الأخلاقية للإنسان- إذ إن أول ما يواجهه الطفل هو الحاجة للقيم الأخلاقية مع خبراتها اللغوية. ❖ توافر الشروط المسبقة للتربية الأخلاقية، وهي تتمثل في قدر من الخبرات العائلية التي تزوده بالحب والاتجاهات، فدور الأسرة في تعليم الطفل تمييز السلوك أي كيف يجب أن يسلك؟ ❖ تبصير الفرد بالفضيلة حيث تنشئ المجتمع الخير الفاضل. ❖ أهم دور غرس المواطنة والإنسانية العالمية في الفرد على اعتبارها من أهم مبادئ التربية الأخلاقية لأن إنسانية الفرد وعالميته تنعكس على نفسه وأسرته ومحيطه إذ يجب أن يشعر بشعور الآخرين. ❖ تعويد الأطفال على العادات الخلقية الحسنة منذ الصغر حتى لا يعتاد عادة من العادات القبيحة فالوقاية خير من العلاج. ❖ على الآباء والأمهات مراعاة أساسيات التربية الخلقية في البيت وأن يربوا أنفسهم قبل تربية أبنائهم فمن لم يكن صاحب خلق لا يمكن أن يربي غيره تربية أخلاقية ولو عرف كل أساليب وطرق ووسائل التربية الأخلاقية.

الرقم	المؤسسة الثقافية	ودورها في تنمية الحس الأخلاقي
2.	المدرسة	❖ إن الأزمة الثقافية والأخلاقية التي تجتاح العالم كله أوضحت أنه لم يعد بمقدور المدارس تجاهل مسؤولياتها الأخلاقية في هذا الميدان من التربية. ❖ في المدرسة يمكن أن تنمي الأخلاق القائمة على المواطنة والعلاقات مع الآخرين والعمل الجماعي، والتسامح إزاء اختلاف وجهات النظر. ❖ لابد للمدرسة أن تتعاون تعاوناً متبادلاً مع البيت. ❖ <u>دور المعلم في المدرسة:</u> 1. المعلم يقف في موقع -صراع القيم- فهو يتعامل مع تلاميذ يأتون من خارج المدرسة ويحملون معهم أنماطاً من القيم الطبقية أو العرقية أو الإقليمية أو الدينية، بينما يتبنى المعلم قيماً معينة يغرسها في سلوك الناشئة. 2. أصبح دور المعلم حالياً: أ) نقل المعرفة. ب) مساعدة التلميذ على التكيف للحاضر، فهو منشئ اجتماعي وناقل معرفة ومربي أخلاقي. 3. على المعلم أن يراعي مبدأين اثنين، الأول: عدم تحويل التربية الأخلاقية إلى تلقين وقولبة (indoctrination)، والثاني: تربية التلاميذ

		أخلاقياً من خلال إكسابهم الخبرة بالمحاولة والخطأ والحوار الصريح وغيرها من الممارسات التربوية ليصل التلاميذ إلى الاستنتاجات الأخلاقية بحرية واستقلال. 4. يجب أن يكون المعلم قدوة لطلابه ومجتمعه، فعليه أن يسلك السلوك المناسب في الموقع المناسب والظروف المناسبة والزمن المناسب، دون مخالفة أخلاقيات المجتمع. 5. أن يكون المعلم مساهماً في أنشطة المجتمع وفي الطليعة دائماً. 6. لابد من تبادل المشورة بين المعلم وأولياء الأمور من خلال التفاهم على أسلوب موحد للتنشئة الاجتماعية للطالب. 7. إتاحة الفرصة لكل فرد للتعرف إلى العالم والاتصال ببيئة أوسع منها اتصالاً ثقافياً، وإيجاد النقاش بين فئات المجتمع. 8. على المعلم أن يكون موضوعياً؛ فلا يخرج عن الإطار الاجتماعي، وينمي روح الأخوة بينه وبين زملائه المعلمين والطلاب من جهة، والطلاب بعضهم ببعض من جهة أخرى.
3.	المؤسسات الدينية	❖ تعد الأديان السماوية أحد المقاييس الأخلاقية العملية الثابتة والصالحة لكل زمان ومكان. ❖ تزويد الطالب بإطار سلوكي نابع من الدين. ❖ إعطاء الفرد فكراً أخلاقياً مرتبطاً بنموذج من الدين وربطه بسلوك معين في الواقع.

الرقم	المؤسسة الثقافية	ودورها في تنمية الحس الأخلاقي
		❖ الدعوة إلى ترجمة التعاليم السماوية من خلال ممارسة عملية لتنمية الضمير عند الفرد والجماعة. ❖ الإرشاد العملي، وعرض النماذج السلوكية المثالية.
.4	جماعة الأقران	❖ من خلال ممارسة الطفل ألوان اللعب مع أقرانه، وتفاعله مع مواده وأدواته يتعلم ثقافة مجتمعه، ويطور مهاراته وأخلاقه. ❖ في سنوات المدرسة الابتدائية يبدأ ظهور تأثير جماعة الرفاق في تطور شخصية الطفل، إذ يصبح الرفاق نماذج سلوكية يمكن تقليدها. ❖ الرفاق مصدر للتفاعل الاجتماعي، ومتنفس لمشاعر الغضب والعدوان التي غالباً ما تكبت في البيت. ❖ يتعلم الطفل التعاون، وروح الجماعة، والتضحية، والمنافسة الشريفة، خاصة إذا كانت جمعة الرفاق متوافقة.
.5	وسائل الإعلام	❖ من الملاحظ في حياتنا المعاصرة أن وسائل الإعلام المرئية والمطبوعة تلعب دوراً بارزاً في الوقت الحاضر في تكوين شخصية الطفل الأخلاقية، وتطبيعه على أنماط سلوكية معينة. ❖ تيسر التأثر بالسلوك الأخلاقي في الثقافات الأخرى، بما تقدمه من أفلام ووسائل إخبارية.

الرقم	المؤسسة الثقافية	ودورها في تنمية الحس الأخلاقي
		❖ عرض النماذج المتنوعة، وهذه النماذج قد تكون شخصية يتمثل فيها سلوك معين لشخص معين فإما أن تكون موجبة يتضمن عرضها دعوة صريحة إلى تقليدها أو عدم تقليدها أو تكون سالبة..... ❖ تصحيح المفاهيم لدى الفرد ونشر القيم الصحيحة والعادات الخلقية. ❖ تزويد الوعي بالمسؤولية والمواطنة والحرية وتفعيل الديمقراطية.
6.	النوادي	❖ تعزيز المبادئ والاتجاهات الأخلاقية لدى الفرد من خلال الألعاب الفردية والجماعية باحترام الآخرين والتنافس الإيجابي البعيد عن التعصب والأنانية. ❖ إقامة الحفلات والرحلات التي تشجع على القيم الأخلاقية تجاه الأفراد والمجتمع، واحترام ممتلكات المجتمع. ❖ إقامة الندوات، ونشر الكتيبات الثقافية التي تحض على الأخلاق.

تاسعاً: توصيات خاصة بتوجيه تطبيق التربية الأخلاقية في البلاد العربية

أولاً: التوصية الخاصة بالآباء والأمهات بصفة عامة:

1. على الآباء والأمهات مراعاة أساسيات التربية الأخلاقية وتربية أبنائهم وبخاصة في المراحل الأولى، فيقتضي منهم أن يتعلموا أولاً كيف يربون أبناءهم تربية علمية فيجب أن يعرفوا كل الحقائق التربوية الأخلاقية.
2. أن يكونوا قدوة، على اعتبارها وسيلة من وسائل التربية الأخلاقية.

ثانياً: التوصية الخاصة بأصحاب القرار بوزارات التربية والتعليم في البلاد العربية

1. جعل التربية الأخلاقية مادة أساسية في المراحل التعليمية جميعها من الحضانة إلى الجامعة، على أن تراعى فيها التربية المباشرة وغير المباشرة والنظرية والعلمية معاً، وفقاً لمراحل هذه التربية بشكل عام ومراحل التربية والتعليم بصفة عامة.

والجدير بالذكر أن مادة التربية الأخلاقية طرحت في قسم أصول التربية لطلبة الدكتوراه متطلباً أساسياً في الأردن، وهذا دليل على أهمية تدريسها.

2. يجب أن يوزن المتعلم بمعيار التربية الأخلاقية مع معيار التربية العلمية والعقلية بمعيار التربية الأخلاقية مع معيار التربية العلمية والعقلية جنباً إلى جنب إذ لابد من تربية العقل مع تربية القلب أو الضمير.
3. توفير مربين ومعلمين متخصصين في التربية الأخلاقية وليس في التعليم الأخلاقي؛ لأن التعليم الأخلاقي غير التربية الأخلاقية، وقد يكون التعليم الأخلاقي جزءاً من التربية الأخلاقية النظرية إذا كان ذلك التعليم تعليماً نظرياً.
4. عمل منهاج كامل للتربية الأخلاقية في المراحل التعليمية كافة.

ثالثاً: التوصيات الخاصة بالدول العربية:

1. يجب على الدول العناية بالتربية الأخلاقية في مؤسساتها الإسلامية والتثقيفية والتعليمية جميعها، وإن أي دولة لا تعتني بالتربية الأخلاقية تجني على نفسها أولاً وعلى شعبها ثانياً. ذلك لأن الدوائر التي لا تسود الأخلاق موظفيها محكوم عليها بالانهيار والسقوط وانتشار الظلم بسبب الرشوة والمحاباة والتجسس والاختلاسات الظاهرة والباطنة من أموال الدولة أو صرف الأموال العامة في غير وجهها الصحيح.
2. العناية بمؤسسات السينما والمسرح والتلفزيون والإذاعة، وهيئة الكتب ودور النشر، فبقدر ما تسود هذه المؤسسات روح التوجيه والتربية الأخلاقية تسود الأخلاق في الحياة الاجتماعية.
3. إنشاء مؤسسات متخصصة لرعاية المنحرفين أخلاقياً وعلاجهم علاجاً يتناسب مع مستوياتهم.
4. عدم توجيه الجهود العلمية والأبحاث العلمية إلى بعض المجالات على حساب مجالات أخرى أكثر أهمية في حياة البشر، فإننا نجد مئات الأبحاث مثلاً قدمت إلى المراكز العلمية والجامعات في حياة الأدباء والشعراء، ولم تتقدم رسالة علمية في التربية الأخلاقية.
5. توجيه طلبة الدراسات العليا في الأردن والوطن العربي إلى كتابة رسائل الدكتوراه في التربية الخلقية ووضع حلول وبرامج تثقيفية للأفراد والجماعات.

رابعاً: التوصية الخاصة بالمراكز والمؤسسات الثقافية في الوطن العربي:

1. إعداد المتخصصين في هذا الميدان الكفاءات الخاصة جميعها؛ لإخراج موسوعة كاملة في التربية الأخلاقية.
2. نشر التربية الأخلاقية وتقديمها إلى الجمهور بصورة مناسبة عن طريق إلقاء المحاضرات العامة، والكتابات في دور النشر.

3. التعاون بين البلاد العربية في إعداد موسوعة أخلاقية تعلم في معاهدها وجامعاتها.

خامساً: تطبيق المبادئ التربوية

1. مبدأ التربية الذاتية: إذ يجب على كل فرد أن يتعلم كيف يربي ذاته، وكيف يستطيع المحافظة على تربيته في مختلف الظروف.
2. أن يكون كل فرد مربياً في المجتمع بعد أن يتعلم الأساليب التربوية بادئاً بتربية أفراد أسرته ثم أقاربه وأصدقائه.
3. التعاون في التربية.
4. أن على كل فرد أن يميز في المعاملة العامة بين الصالح والطالح، فيعامل الأول بالحسنى، والآخر بما يستحق، لأن الأفراد إذا علموا أن القيم الأخلاقية تقدر في المجتمع ويجد الصالح جزاء صلاحه، والطالح جزاء طلاحه، يكون هذا التمييز مشجعاً الأول على الفضيلة ورادعاً الثاني عن التمادي في الرذيلة والتحول إلى الفضيلة.

مثال تطبيقي:

"كيف يمكن للمدرسة تعليم خُلق الأمانة باعتباره عنصراً ثقافياً؟"

أولاً: لكي ننقل قيمة الأمانة كنوع من الثقافة لابد أولاً أن تكون هذه القيمة موجودة عند المعلمين ومدير المدرسة.

ثانياً: سرد القصص الدينية المحببة التي تحتوي في مضمونها على خلق الأمانة من خلال الإذاعة.

ثالثاً: استثارة خبرات الطلاب حول المواقف التي حصلت معهم في المدرسة أو في الشارع، التي تدل على الطريقة الصحيحة في التصرف نحو خلق الأمانة ورد الأمانة إلى أصحابها....

رابعاً: مكافئة الطلبة الذين وجدوا أغراضاً وسلموها للمعلم والإدارة من أجل إعادتها لأصحابها، وذلك أمام طلاب المدرسة في الطابور الصباحي.

خامساً: نشر صور ورسومات توضح قيمة الأمانة على اللوحات الجدارية في المدرسة.

1. صورة رقم (1): رجل ينسى حقيبته في الحافلة وينزل.
2. صورة رقم (2): طفل ووالده في الحافلة، شاهد الطفل الحقيبة وسلمها لوالده.
3. صورة رقم (3): يأخذ الرجل الحقيبة، ويلحق بالرجل ويسلمها له.
4. صورة رقم (4): يشكر الرجل الطفل ووالده على أمانتهم.

سادساً: نشر الأحاديث النبوية والعبر والأشعار التي تدل على الأمانة:

1. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والشهداء".
2. قصة بائعة اللبن مع ابنتها: "إذا كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا".

سابعاً: يقوم المعلم بإحضار أشرطة إلى غرفة الصف يستمع إليها الطلاب عن الأمانة، أو مشاهدة التلاميذ لفلم يحض على الأمانة في مركز المصادر إذا وجدت في المدرسة.

الفصل السادس

النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية

النظم الاجتماعية والسياسية والثقافة

أولاً: مفهوم النظم الاجتماعية:

تعد النظم الاجتماعية من عناصر الثقافة وصورها الأساسية وهي تنظيم يشتمل على عدد من العادات وجوانب مختلفة من العُرف والقانون في بعض الأحيان، فتدمج جميعاً في وحدة للقيام بعدد من الوظائف الاجتماعية وتتمثل النظم الاجتماعية الرئيسة في الزواج والأسرة والدين والتربية والاقتصاد والسياسة.

وتتكامل النظم الاجتماعية الواحدة مع الأخرى، بمعنى أن كلاً منها يتساند مع الآخر من حيث البناء والوظيفة، إذ تتصل نظم الدين والأسرة والاقتصاد والسياسة ببعضها الآخر.

وكلما استمرت النظم الاجتماعية في تأدية وظائفها استمر المجتمع واستقر. ويُعرف (راد كلييف -براون) النظم الاجتماعية، بأنها «أساليب نمطية للسلوك الاجتماعية، ويتكون منها الجهاز الذي عن طريقه يستطيع البناء الاجتماعي أن يستقر ويستمر».

النظم الاجتماعية: تمثل أنماطاً للعلاقات الاجتماعية وليس للحالات الفردية لتلك العلاقات.

وخلاصة القول: إن النظم الاجتماعية هي في مجموعها الجهاز الذي يعمل على بناء المجتمع واستقراره واستمراره الاجتماعي.

ثانياً: خصائص النظم الاجتماعية:

1. يتميز النظام الاجتماعي بأنه يقوم بوظيفته بصفته وحدة في النسق الحضاري ككل؛ لأن النظام لا يخرج عن كونه تنظيماً لنماذج السلوك والتعرّف والتفكير التي تظهر خلال النشاط الاجتماعي، وما يرتبط به من إنتاج مادي.

2. يتميز النظام الاجتماعي بدرجة نسبية من الاستمرار والدوام، فالعقائد وطرق العمل وغيرها لا تصبح نظماً اجتماعية، إلا أن تصل إلى مرحلة القبول بصفة عامة خلال فترة زمنية مناسبة، يتم فيها تجريب النظام وممارسته.
3. يتميز أي نظام اجتماعي بأن له هدفاً أو عدداً من الأهداف الواضحة.
4. تتميز النظم الاجتماعية بجمودها؛ لما تتميز به من استمرار ودوام لفترة طويلة من الزمن حتى لتكاد في بعض الأحيان أن تتحول إلى ما يشبه الطقوس.
5. تعد النظم الاجتماعية من عوامل التوفيق بين الأجزاء المختلفة للحضارة ككل، فهي تميل دائماً إلى التوحيد بين أجزاء النظام الاجتماعي الكلي.

ثالثاً: وظائف النظم الاجتماعية:

1. تيسر العمل بالنسبة للفرد، إذ إنها تنظم عدداً كبيراً من المظاهر السلوكية في نمط واحد متكامل.
2. تعمل المؤسسات الاجتماعية أو النظم باعتبارها وسيلة للسيطرة الاجتماعية.
3. تحدد النظم الاجتماعية مركز الفرد الاجتماعي والدور الذي يقوم به.
4. تعمل النظم الاجتماعية على انسجام الفرد في الإطار الثقافي العام، انسجاماً يؤدي إلى تكيفه وإلى حسن قيامه بأنشطته بصفته فرداً في مجتمع معين.

وفيما يلي عرض موجز لأهم النظم الاجتماعية:

أولاً: النظم القرابية/ صلة الدم والقرابة: هي العلاقة الأولى بين الفرد وأسرته، وحلقة الوصل بين الفرد والمجتمع، وهي علاقات أساسية تمدّ الفرد بالحماية، وتشكّل أساساً للتنظيم الاجتماعي الذي يفرض تأثيره، في أنشطة الحياة كلها سواء أكانت سياسية، أم اقتصادية، أم دينية، أم غير ذلك.

وخير مثال على ذلك، أن المجتمعات البدائية تعطي أهمية كبرى للنظام القرابي والأسري، إذ يترتب على العلاقات القرابية حقوق وواجبات ومميزات، وفي ذلك المجتمع يكون الفرد قريباً لجميع أفراده أو غريباً عنهم. وبناء عليه، فقد اهتمت المجتمعات البدائية بالنظام القرائبي والأسري بصورة أقوى كثيراً من المجتمعات المتمدنة. والأسرة عند المجتمعات البدائية والنامية هي جماعة اجتماعية تتميز بمسكن مشترك وتعاون اقتصادي. وعملية التكاثر ولها تأثير في حياة الأفراد والجماعات، ولها دور في بناء صرح المجتمع وتدعيم وحدته.

أما عند الرجل الأبيض والمجتمع الأمريكي المتمدن، فالأسرة ليست بتلك الأهمية، إذ يقوم البوليس والجيش بحماية الفرد، وتمنحه الحكم العادل، وتقوم مكاتب البريد بتوصيل رسائله، وتوجد المدرسة التي تعلمه هو وأولاده؛ بل إنهم يعتنون بالأطفال بعد موت أبيهم.

ويوجد النظام القرابي في كل مجتمع إنساني وكل حضارة، ولذلك يعد نظاماً عالمياً فلا يوجد مجتمع إنساني بدون نظام يحدد العلاقات القرابية بين أفراده، وتعرف الجماعات الإنسانية التي تقوم على أساس الصلات القرابية باصطلاح "الجماعات القرابية Kin Jroups"، وتنقسم إلى قسمين هما: "الأسرة الزواجية (Conjigul family)، والجماعة القرابية الدموية"، والفرق بينهما أن القسم الأول يتميز بالسكن معاً في مسكن مشترك ولذلك تسمى "جماعة قرابية سكنية". أما الجماعة القرابية الدموية، فلا تتميز بالمسكن المشترك. وكذلك يتميز القسم الأول بوجود علاقة قرابية أساسها الزواج، بينما لا توجد تلك العلاقة في القسم الثاني.

يطلق على القواعد التي تحدد أعضاء الجماعة الدموية لأعضاء مجتمع ما اصطلاح "قواعد التسلسل القرابي"، وتنقسم هذه القواعد إلى:

1. التسلسل القرابي الأبوي (***Patrilineal Descent***):

وهو أن الطفل سواء كان ذكراً أو أنثى يلحق أو ينتمي الى "الجماعة القرابية الدموية" التي ينتمي إليها والده.

2. التسلسل القرابي الأمي (*Matrilineal Descent*):

وهي الجماعة القرابية الدموية للفرد التي تنتمي إليها أمه.

3. التسلسل القرابي الثنائي الاختياري (*Bilateral Descent*):

وهي التي ينتمي إلها الطفل وتتكون من بعض أهل أبيه وبعض أهل أمه وليس كلهم، (مثل: العم، والخال، والجد).

4. التسلسل القرابي الثنائي الإجباري (*Double Descent*):

وهي الجماعة التي ينتمي إليها الفرد على أنها تجمع الجماعة القرابية الأبوية لأبيه، وكذلك الجماعة القرابية الأمية لأمه.

وأهم تلك القواعد وأكثرها انتشاراً في المجتمعات البدائية هي القواعد ذات التسلسل القرابي الأبوي، أما القواعد القرابية الثنائية فهي تنتشر في المجتمعات المتمدنة.

وتبيّن مما سبق أن قواعد التسلسل القرابي تحدّد نطاق الجماعة القرابية الدموية التي ينتمي إليها الفرد.

- **العشيرة:** يجب ملاحظة أن "العشيرة" هي أيضاً جماعة قرابية ولكنها تتميز بأنها وحدة اجتماعية يسكن أفرادها كلهم في مكان مشترك، وأغلب المجتمع العربي يتكون من العديد من الأسر والعشائر والقبائل. وتبيح العشائر الزواج من داخل الجماعة القرابية الدموية، كأن يتزوج الفرد من ابنة عمه، وهذه الظاهرة موجودة في أغلب العشائر العربية البدوية.

ثانياً: نظم الزواج والأسرة:

توجد رابطة ضرورية وثيقة بين الأسرة والزواج، فكلاهما مكمل للآخر ولا يوجد بدونه، ولكن على الرغم من هذا الترابط الوثيق إلا أنه يجب التفرقة بينهما.

❖ **الأسرة:** هي جماعة اجتماعية تتميز بمسكن مشترك وتعاون اقتصادي وعملية التكاثر، وتعد الأسرة من أهم الجماعات الإنسانية أعظمها تأثيراً في حياة الأفراد والجماعات، فهي الوحدة البنائية الأساسية التي تنشأ عن طريقها مختلف التجمعات الاجتماعية، وهي التي تقوم بالدور الرئيس في بناء صرح المجتمع وتدعيم وحدته، وتنظيم سلوك أفراده بما يتلاءم مع الأدوار الاجتماعية المحددة، ووفقاً للنمط الحضاري العام. والمثال التالي يوضح ما تمت الإشارة إليه:

المجتمع الغدامسي في ليبيا:

يعد مجتمع غدامس مجتمعاً صغير الحجم، إذ يتكون من مجموعة من أقارب ومن أسر سواء كانت أسرة وازيت من البربر، أو أسرة أفوغاس من الطوراق، أو أسرة أولاد بالليل من العرب، وتكون الأسرة الغدامسية وحدة اقتصادية واحدة، رئيسها ومنظمها هو الأب. وهذا الشكل من الأسرة يسمّى الأسرة الأبوية (*Patriarchal Family*) وهذا النمط يمارسه أهل غدامس.

❖ **الزواج:** ظاهرة اجتماعية، ويتخذ الزواج صورة خاصة في المجتمعات البدائية، ويمكن تعريف تلك الصورة الخاصة بأن الزواج يتكون من عقد بين جماعة قرابية معينة وجماعة قرابية أخرى، وفي ذلك العقد تكون أوضح رابطة هي التي تجمع بين الشخصين الذي يربط بينهما الزواج. وقد حصر نظم الزواج وتصنيفها في الآتي:

1. عدد المشتركين في علاقة الزواج: تختلف المجتمعات في نظم الزواج المتعلقة بعدد المشتركين في علاقة الزواج، وتلك النظم هي:

أ. نظام الزواج الفردي (*Monogamy*) ويتمثل في أن الزواج علاقة تجمع بين رجل واحد وامرأة واحدة، وهو نظام واسع الانتشار في المجتمعات الإنسانية.

ب. نظام الزواج المتعدد (*Polygymous*): وهو نظام يبيح وجود علاقة الزواج بين أكثر من رجل أو أكثر من امرأة ، وينقسم هذا النظام إلى صورتين، إحداهما واسعة الانتشار في المجتمعات الإنسانية وهي "تعدد الزوجات وزوج واحد" (Polygyny)، وتطبقه معظم المجتمعات الإفريقية وتبيحه في ظروف معينة المجتمعات الإسلامية. أما الصورة الثانية، فهي نادرة الوجود وهي "تعدد الأزواج ووحدانية الزوجة" (*Polyandry*).

فمثلاً يطبق هذا النظام في قبيلة "التودا" في أقصى جنوب الهند وقبيلة "ماركيزان" في بولينيزيا، ويرجع ذل لقلة عدد الإناث عن عدد الذكور.

1. **نظم السكن بعد الزواج:** تختلف المجتمعات كذلك في تحديد المسكن الذي يضم العروسين بعد الزواج، وخير مثال على ذلك ما هو موجود في المجتمع الغدامسي، فالأسرة الغدامسية تتكون من عائلتين مركبتين أو أكثر، ويُشترط توافر رابطة القرابة الدموية الأولية بين أعضاء تلك الأسر، ويعيش أفراد الأسرة الممتدة وحدة سكنية واحدة، ويسود بينهم التعاون الاقتصادي، ومن صورها أب وزوجته وأبناؤه الذكور وعائلتهم وبناته، وهو ما يعرف بالأسرة الممتدة (*Extended Family*).
2. **نظام اختيار شريك الزواج:** لا يترك المجتمع الفرد حراً في اختيار شريكة حياته، وإنما يضع له النظم التي يجب أن يسير عليها، وأهم تلك النظم ما يأتي:

أ. **نظام المحارم:** وهو منع الزواج بين الشخص وأصوله (والديه) وفروعه (أطفاله) وإخوته، وهو نظام عالمي مطبّق في المجتمعات الإنسانية الحالية كلها.

ب. **اختلاف الطبقة أو الدين أو المركز الاجتماعي:** تحتم معظم المجتمعات أن يتزوج الفرد من داخل فئة معينة، ويُعرف هذا "بالزواج من داخل فئة معينة (*Endogamy*) وقد تكون تلك الفئة القبيلة التي ينتمي إليها الفرد أو المجتمع القومي (الأمة) أو الجماعة الدينية، وقد تكون الطبقة الاجتماعية التي تتفق مع مركزه الاجتماعي. فمثلاً عند البربر في المجتمع الغدامسي يحذر الزواج من خارج القبيلة، ويمنع زواج الفتاة البربرية من أي شخص خارج القبيلة، فإن تزوجت تصبح منبوذة من قبل القبيلة وتقطع الأسرة علاقات الاتصال بها. ومثال آخر نجده في المجتمع الغدامسي يحذر الزواج من خارج القبيلة، ويمنع زواج الفتاة البربرية من أي شخص خارج القبيلة، فإن تزوجت تصبح منبوذة من قبل القبيلة وتقطع الأسرة علاقات الاتصال بها، ومثال آخر نجده في المجتمع الأردني، وبخاصة عند الشراكسة وهو عدم تزويج الفتاة الشركسية من خارج مجتمع الشراكسة".

3. **من يختار شريكة الزواج؟** اختلفت المجتمعات الإنسانية في تحديد الشخص أو الأشخاص الذين يختارون الزوجة المستقبلة لفرد ما، وأهم النظم في ذلك الشأن هي:

أ. **الوالدان والأقارب:** في معظم المجتمعات البدائية والريفية والنامية لا يختار الشاب شريكة حياته، وإنما يقوم بتلك المهمة، والداه أو أحد أقاربه.

وخير مثال على ذلك ما هو موجود في المجتمع الغدامسي، وبخاصة عند العرب والبربر، إذ يقوم أهل الشاب في اختيار شريكة حياته.

ب. **الخاطبة:** هي التي تقوم بالاتصال بعدد من العائلات بالتعريف بالفتى الراغب بالزواج، وتنتشر هذه العادة في الأرياف.

ج. **الشخص الذي يرغب في الزواج**: يحدث هذا في كل المجتمعات المتقدمة، يقوم الشخص الذي يرغب في الزواج باختيار شريكة حياته، فيذهب أهل الشاب إلى أهل الفتاة لخطبتها، وقد يتقدم الشاب إلى الفتاة ذاتها لخطبتها وتقوم هي بتقديمه لأهلها، وهذا النمط من المجتمعات المتقدمة جداً. وهناك مثال حول نظام الخطبة عند الطوارق، إذ يقوم الشباب الطارقي عند اختياره عروسه، ويأتي إلى جوار خيمة العروس ويلقي شعراً، فإذا أجابت العروس بشعر يعجبه، يقوم بإتمام مراسم الزواج، وإن لم يعجبه يتركها ويبحث عن فتاة أخرى.

4. **تقديم مهر للعروس وأهلها**: المهر يلعب وظيفة اجتماعية مهمة تساعد في إعطاء صفة الجدّية لتلك العلاقة الأساسية في الحياة الاجتماعية، وتساعد كذلك في ضمان استقرار تلك العلاقة، ثم استقرار الأسرة وهي الخلية الأولى في المجتمع. وينظر الإنسان البدائي للمرأة على أنها ذات قيمة تقوم بوظيفة بيولوجية مهمة لا تتوافر في الذكر ألا وهي إنجاب الأطفال ومدّ الأسرة أو العشيرة بالرجال والنساء ويستمر المجتمع ولا يموت. وفي المجتمعات البدائية يقوم أهل العريس بجمع المهر بصورة تعاونية، ويقدم ذلك المهر لأهل العروس، فتفيد أسرة العروس وعشيرتها من المهر وليس العروسان، ويلعب تبادل المهور بين الأسر والعشائر دوراً مهماً في تأكيد تماسكها ثم تماسك المجتمع.

وخير مثال على ذلك ما هو موجود عند قبائل الطوارق في عملية المهر، إذ يقوم أهل العريس بتقديم (جمل مُهر)(*) وعشرين رأس من الغنم، بالإضافة إلى الذهب والمجوهرات يكون مهراً للعروس. أما في المجتمعات المتمدنة، فيعود المهر للعروسين ، إذ يستخدمانه في تجهيز بيت الزوجية الجديد.

(*) الجمل المُهر: هو أغلى ما يملك الإنسان الطارقي، وهو يمثل لديه وسيلة النقل والمواصلات في الصحراء الكبرى، وله مميزات خاصة تختلف عن باقي الجمال الأخرى.

وهناك طرق في المهر والزواج، وهي طريقة خطف العروس: إن هذه الطريقة كانت منتشرة بين المجتمعات البدائية. كل المجتمعات البدائية لا تعترف بوجود تلك الطريقة كنظام متعارف عليه اجتماعياً للحصول على زوجة، ولكنها موجودة عند بعضهم ، ولدى قبائل "باهيما" و"البوشمن" في أفريقيا تدور معركة صورية بين أهل العريس وأهل العروس وتنتهي دائماً بفوز العريس وأهله واستيلائهم على الزوجة. وتوجد هذه الطريقة (خطف العروس) في المجتمع الشركسي، إذ يقوم الشاب بخطف الفتاة التي تحبه، ثم يقوم بالزواج منها.

◆ مثال على الملامح الثقافية للزواج والنظم الأسرية في المجتمع الليبي:

يعد المجتمع الليبي من المجتمعات الثنائية التي يتواجد فيها القطاع التقليدي جنباً إلى جنب من القطاع الحديث، لأنه ما زال يمر في مرحلة انتقالية متعرضاً فيها لتيارات التحديث والهجرة والثورة الاجتماعية والسياسية التي أحدثت تغيرات وتحولات كبيرة.

لقد مرّت الأسرة الصغيرة النووية التي يستقل في إطارها الزوجان والأبناء بمنزل خاص بحكم ملائمة هذا النموذج لحركة التحديث في المدينة التي يتركز فيها أغلب السكان، كما كان للتعليم وخروج المرأة إلى العمل ومساهمتها، تأثيرات عدة أهمها: ارتفاع معدلات سن الزواج، وعلاقات معدلات سن الزواج، وعلاقات قد تكون أكثر مشاركة تفاهماً، إلا أن الأسرة الليبية ما زالت بين القديم والحديث في كثير من القضايا، وعلى سبيل المثال: الأب قد يسمح لابنته أن تتعلم وتعمل، ولكنه يرفض أن تختار بنفسها شريكها، والزوج قد يقبل بكل أسس المساواة بينه وبين زوجته نظرياً، ولكنه يرفض أن تشاركه ولو جزئياً في اتخاذ القرارات المتعلقة بأدوار معينة، فهو يعترف بحقيقة تغيير أدوار المرأة، ولكنه يحاول أن يبقى على امتيازاته في علاقته معها يتجاذبه في ذلك تياران هما: التقليدي، والحديث.

والمجتمع العربي الليبي الإسلامي لا يقر قيام علاقات بين الجنسين في غير إطارها الشرعي، ومن المظاهر الثقافية للزواج إقبال الليبيين عليه في أوقات معينة من السنة كأعياد الفطر والأضحى، والمناسبات الدينية والعطلات الصيفية.

المهر: يقدر متوسط مهر العروس في الأسر الليبية بحوالي (800) دينار ليبي، وكان متوسط المؤجل (50) ليرة ذهبية، حسب دراسة قامت بها الباحثة مفيدة خالد الزقوزي.

وتلعب الخاطبة (أو النساء) دوراً رئيسياً في اختيار القرين، ويشكّل الحسب والنسب أهم قيمة في الزواج، إذ إن الزواج الداخلي يحافظ على العلاقات القرابية الديمومة. وفي ضوئه تنخفض قيمة المهر وتكاليف الزواج، أما عن العلاقة بين الزوجين والأبناء فهناك تفضيل للذكور وإنجابهم مما يعزز العلاقة بينهم.

وهناك ثلاثة أنماط للأسرة الليبية، التي لحقها التغيير غيرها من الأسر العربية؛ وشاركتها مؤسسات متخصصة أخرى وظائفها.

أولاً: النمط التقليدي: هو النمط الذي حافظ على خصائص البنية القديمة للأسرة الممتدة كاتساع حجم الأسرة والإقامة في مسكن واحد، وتأخذ العلاقة بين أفرادها طابعاً تسليطاً، إذ يتمتع رب الأسرة بأفضلية خاصة، وتتميز العلاقات القرابية بالتعاون والدعم المادي والمعنوي، وخير مثال على ذلك نمط الأسرة في المجتمع الغدامسي.

ثانياً: النمط الانتقالي (الأسرة الممتدة المعدلة): على سبيل المثال: قد تخصص أسرة الوالدين بعض الأحيان لابنها المتزوج جزءاً من مسكنها بمدخل خاص للعيش فيه هو وزوجته، فالمكان يجمعهم ورابطة الدم تؤلف بينهم، ولكن المعيشة ليست مشتركة. ومن الملاحظ انتشار هذا النوع في مدينة طرابلس، إذ تتميز الأسرة في ظل هذا النمط باستقلالية اقتصادية نسبية عن أسرة الوالدين، وربما تمارس النساء العمل المنتج في المنزل، وتشترك في ميزانية الأسرة. وفي هذا النمط يتقلص الزواج القرابي، ويقل دور الوالدين في عملية الاختيار، ويمارسه الأصدقاء والرفقاء ويتناقص أيضاً تعدد الزوجات.

ثالثاً: النمط الحديث: وهو النمط الذي لحقه التبديل والتغير في ملامحه جميعها، فانعكس على البنية الاجتماعية والاقتصادية للأسرة الحديثة، وهو نموذج الأسرة النواة المكونة من الزوج والزوجة والأبناء غير المتزوجين، وتتميز بصغر الحجم والمستقلة في السكن وفي الاقتصاد.

في ظل هذا النمط، تقوم المؤسسات جميعها بوظائف الأسرة، وتقتصر مهمة الأسرة على الإنجاب وتوفير الرعاية الاجتماعية والعاطفية لأفرادها.

ومن سمات هذا النمط: المساواة بين الزوجين والحوار المشترك بينهما، وتكتسب المرأة في ظل هذا النمط مكانة اجتماعية أخرى، وقد خرجت إلى العمل وبدأت تساهم في ميزانية الأسرة. أما الزواج فلم يعد قرابياً بل تحكمه قيم جديدة غير تلك القيم التقليدية، هذا النمط الحديث انتشر في أغلب المدن الليبية وخاصة الساحلية منها مثل طرابلس، وبنغازي، ومصراته، ودرنة، وسبها، وسرت.

رابعاً: النظم السياسية: هو أحد الأنظمة المكونة للنظام الثقافي، ويحتل فيها مركزية خاصة، لأنه يمثل دور القيادة والرئاسة في إدارة شؤون الكيان الاجتماعي.

وقد وجدت أبسط صورة للزعامة السياسية في العشيرة، فعند نجد أبسط المجتمعات الإنسانية تتكون العشيرة من عدة أسر تعيش في مكان واحد، وتتعاون في المعيشة تحت رئاسة "رئيس العشيرة (Headman)". وتعتقد بعض المجتمعات البدائية بأن رئيس العشيرة قائد بالفطرة وهو غالباً يتمتع بشخصية قوية، فيؤثر فيمن حوله، ومن المتوقع أن يتحدث الرئيس في المناسبات المهمة، ويقوم بمهمة حفظ الأمن بين أفراد العشيرة عن طريق فض المنازعات، ويحدد الرئيس الموقع المناسب للإقامة. إن سلطات الرئيس لا تأخذ شكلاً رسمياً وإنما صورة عرفية، ولا توجد أي مظاهر للرئاسة أو السلطة ولا يعاونه أحد في أعماله، ولا يتميز عن باقي أفراد العشيرة بأي مميزات عينية، ولكنه موضع احترام الجميع، ويمتاز هذا النظام بنوع

من الديمقراطية؛ إذ لا توجد مظاهر ديكتاتورية، ولا يتخذ الرئيس أي قرار إلا بعد موافقة معظم أفراد العشيرة عليه، وفي الغالب يكون الرئيس كبير السن ذا خبرة في إقامة الطقوس الدينية.

1. القبيلة: تتخذ العلاقات الاجتماعية في القبيلة التي تتكون عادة من عدّة عشائر صورة أكثر تعقيداً مما توجد في العشيرة، وذلك لكبر حجم القبيلة والوصول لحضارة أكثر تقدماً، فنجد الكثير من المخترعات والفنون الجديدة، ولذلك كان من الضروري أن يوجد قائد سياسي ليقوم بعملية الضبط الاجتماعي وليكون رمزاً يؤكد وحدة وتماسكها القبيلة. ويتمتع زعيم القبيلة بسلطات كثيرة تمتاز بالوضوح، والوظائف الخاصة بزعيم القبيلة تختلف من مجتمع لآخر، فمثلاً لوحظ أن زعماء قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية لا يتمتعون بسلطان واسعة ويحكم القبيلة مجلس يرأسه الزعيم، ويكون هذا المجلس من رؤساء العشائر، ولقد لوحظ أن الطريقة الديكتاتورية تسود في وقت الحرب، بينما تسود الطريقة الديمقراطية في وقت السلم. لا توجد وظائف سياسية واضحة لزعيم القبيلة لكن مهمته تكون الوظائف الطقوسية والدينية، مثل: تنظيم الاحتفالات الدينية وجمع التبرعات والاشتراكيات اللازمة لتلك الاحتفالات. وتختلف المجتمعات البدائية في طرق انتقال زعامة القبيلة فبعضها يتبع طريقة انتخاب مجلس القبيلة أحد أعضائه بصفته زعيماً، ويطبّق بعضهم الآخر مبدأ الانتقال الوراثي، وقد ترتّب على التمسك بالنظام الوراثي إلى ظهور صورة مبسطة للنظام الملكي.

ينتشر النظام الملكي بين المجتمعات البدائية المتقدمة بعض الشيء، ومن خصائص ذلك النظام انعدام الأسلوب الديمقراطي الذي كان يتبعه زعيم القبيلة ورئيس العشيرة، وذلك لتمركز السلطة في يد الملك الذي لم يعد يحتاج إلى رؤساء العشائر أو مجلس القبيلة لإعادة انتخابه أو لانتخاب أحد أبنائه بعده. ومثال على ذلك: تختلف المجتمعات البدائية في تفاصيل النظام الملكي الوراثي، فبينما

نجد في معظم مجتمعات إفريقيا وبولينيزيا يرث أكبر الأبناء الذكور عرش والده بعد الوفاة، فإن بعض القبائل تطبّق ذلك المبدأ بالطريقة الأكثر مرونة، ويقوم المجلس الملكي أو العشيرة الملكية (التي ينتمي إليها الملك) بانتخاب أصلح أبناء الملك المتوفى، ويستخدم الملك جهازاً إدارياً تنفيذياً يعاونه في حكم القبيلة، ويرأس ذلك الجهاز المجلس الملكي الذي يتكون من العائلة المالكة أو من زعماء القبائل أو العشائر تتكون منها المملكة. وفي معظم مجتمعات إفريقيا يحترم الملك رأي غالبية أعضاء المجلس، وفي بعض المجتمعات الأخرى يكون للمجلس الحق في معاقبة أو إعدام الملك إذا تبيّن لهم أن روحاً شريرة قد تقمّصته وجعلته دكتاتوراً. وأهم وظائف الملك هي: إعلان الحرب، وتنظيم الاحتفالات الدينية، وتعيين الرؤساء، وفض المنازعات بين العشائر. أما رقابة العرف فيقوم بها رؤساء العشائر ورؤساء العائلات.

وهناك عدة دراسات، وأمثلة على النظم السياسية في المجتمعات البدائية ومنها دراسة العالمين "فورتس" و "بريتشارد" المنشورة تحت عنوان "النظم السياسية الأفريقية"، فقد اختار ثمانية قبائل لتمثل النظم السياسية المختلفة الموجودة في إفريقيا جنوبي الصحراء، ولاحظا تشابهاً بين بعض تلك النظم السياسية، ولذلك قسما تلك القبائل إلى مجموعتين متشابهتين هما:

المجموعة (أ): تشتمل على خمس قبائل هي: "زولو" و "نجواتو" و "بمبا" و "بانيانكول" و "كيد"، وتتميز تلك المجموعة بوجود نظام "الحكومة"؛ أي توجد سلطة مركزية وجهاز إداري ومؤسسات قانونية. وفي تلك المجتمعات يوجد تطابق بين الطبقات القائمة على أساس السلطة والقوة والطبقات القائمة على أساس الثروة والامتيازات والمركز.

المجموعة (ب): وتشمل ثلاث قبائل هي "لجولي" و "تاللنس" و "النوير"، وتتميز تلك المجموعة بعدم وجود نظام "الحكومة" فيها أي تنقصها السلطة المركزية والجهاز الإداري والمؤسسات القانونية، ولا يوجد في المجتمعات طبقات قائمة على أساس المركز أو الثروة أو المكانة، وإنما توجد أسس أخرى مثل الصلات القرابية والصفات الشخصية.

وإذا سلمنا بأن المجتمعات المتمدنة والمتقدمة التي تؤمن بالنظرية القائلة: إن الدولة لا توجد إلا بتوافر نظام الحكومة، فيمكن القول: إن المجموعة (أ) تمثل دولاً بدائية، بينما تمثل المجموعة (ب) مجتمعات بدون دول. ولقد أثبتت تلك الدراسة الميدانية أن المجتمع الإنساني قد يوجد ويستمر في البقاء لقرون من الزمان بدون معرفة نظام "الحكومة" بالمفهوم المتعارف عليه؛ أي وجود سلطة مركزية وجهاز إداري ومؤسسات قانونية.

2. النظم السياسية في المجتمعات المتمدنة:

نعني بالمكونات العناصر الثقافية التي تتشكل منها بنية النظام السياسي على النحو الآتي:

1. رئيس الدولة وسلطاته السياسية الدستورية، وعادة يتم انتخابه حسب الدساتير الموجودة داخل المجتمعات الإنسانية.
2. الدستور: هو جملة ما يشتمل عليه من تشريعات وحزمة القوانين السياسية الموجودة في المجتمع، وتختلف الدساتير من الأنظمة الجمهورية إلى الملكية، ومن الأنظمة الاشتراكية والأنظمة الرأسمالية، وفي النظام الجماهيري توجد النظرية العالمية الثالثة (الطريق الثالث).
3. الحكومة: وتشتمل على رئاسات ووزارات وهيئات سياسية، وأمناء ولجان شعبية عامة.
4. السلطات التشريعية، والمجالس النيابية، واللجان السياسية المنبثقة، والمؤتمرات الشعبية الأساسية في النظام الجماهيري كما هو موجود في الجماهيرية الليبية.
5. الأحزاب السياسية الوطنية، وتشريعاتها الدستورية، وبرامجها السياسية.

6. فلسفة الإدارة العامة للدولة: وسياستها في توجيه النظم الأخرى المكونة للنظام الاجتماعي العام سواء أكانت اجتماعية، أم اقتصادية، أم ثقافية، أم تربوية، أم دينية... الخ.

أما عن النظام السياسي في الجماهيرية الليبية فهو السلطة الشعبية المباشرة عن طريق مؤتمرات شعبية تصنع القرار السياسي الديمقراطي داخل المؤتمر الشعبي الأساسي، ثم ترفع هذه القرارات إلى مؤتمر الشعب العام لصياغتها، ولجان شعبية تعمل على تنفيذ هذه القرارات التي اتخذتها الجماهير الشعبية داخل المؤتمرات الشعبية الأساسية التي صاغها مؤتمر الشعب العام. وهذه اللجان الشعبية مسؤولة أمام المؤتمرات الشعبية عن تنفيذ قراراتها، وهذه اللجان لجان شعبية اختارها الشعب في مؤتمراته الشعبية، مثل: اللجنة الشعبية للتعليم والبحث العلمي، واللجنة الشعبية للصحة، وغيرها.

وبعد دراستي لمكونات النظام السياسي وجدت أن هذه المكونات هي العناصر الثقافية التي تشرف على سياسة الدولة، وإدارتها، فضلاً عن توجيهها نحو أهدافها الوطنية التي تتمثل في الاستقلال والتحرر والسيادة الوطنية والنهوض بالإنسان والمجتمع والوطن، سعياً نحو التقدم والازدهار الاجتماعي في أبعاد الحياة المختلفة داخل المجتمع، ومما تقدم؛ فإن النظام السياسي يقوم بأدوار وظيفية ومهمات أساسية في سبيل إدارة الدولة، وسياستها في إطار فلسفتها وأهدافها الدستورية.

ونستخلص من ذلك أن النظام السياسي هو السلطة التي تتولى سياسة الأنظمة الأخرى جميعها، داخل الكيان الاجتماعي. ولهذا، فهو يمثل القائد العام، والدماغ المفكر والحكمة المدبرة لشؤون الأنظمة الأخرى العاملة في المجتمع بأكملها. وهذا يعني أن النظام السياسي هو الذي يوجه باقي الأنظمة العاملة في النظام الاجتماعي العام، الأمر الذي تصبح فيه الأنظمة الأخرى جميعها أدوات، أو وسائل تتعاون مع النظام السياسي في صناعة الأمن الوطني وازدهار الوطن، بأسلوب دستوري متميز بالعقلانية، والديمقراطية، والانفتاح والتكيّف مع المتغيرات الداخلية والخارجية.

الفصل السابع

المهارات ودورها في الثقافة

المهارات ودورها في الثقافة

أولاً: مفهوم المهارة:

المهارة هي تلك السلوك الذي يتصف بالتكرار ويتكون من سلسلة من الأعمال المعقدة التي يتم أداؤها بطريقة ثابتة، ومثال على ذلك: الطباعة على الآلة الكاتبة، والعزف على آلة موسيقية وهذه المهارات تصنف بأنها مهارات نزوعية (أي نفسية حركية) ومثل هذه المهارات لها أهميتها في إتقان المهن وأداء الفنون والألعاب. (أبو علام، د. ت).

والمهارة تتكون نتيجة الخبرة في عمل ما، ويتوقف اكتساب المهارة على عدة عوامل، ومنها: تضج المتعلم وتكوينه وبنائه الجسمي وأيضاً دافعية المتعلم ودرجة تعقد المهارة التي يريد الفرد تلعمها وأيضاً الأدوات المستخدمة على المواد الخام وأسلوب المهارة وأيضاً على التصاميم التي يستخدمها الفرد بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية أو الثقافية والاقتصادية التكنولوجية على كل مهارة. (موسى، 1986).

ومن هنا ؛ فإن اللغة الوحيدة التي لا يحتاج إلى أن تترجم إلى اللغات الأخرى لأن أبناء الجنس البشري بأسرهم يتحدثون بها هي لغة المهارات اليدوية.

فالإنسان في أي مكان وفي أي عصر يعبر بيديه، وهكذا نجد أن هذه اللغة اليدوية المشتركة أقوى لغة يمكن تخيلها في عالم الواقع، وهي تفوق لغة الكلام من حيث تحقيقها الغايات بشكل مباشر، إذ إن لغة المهارات تقضي الحاجات مباشرة بينما لغة الكلام طريقاً غير مباشر لقضاء الحاجات.

وعلى الرغم من أن لغة المهارات اليدوية لغة عالمية تشترك فيها الشعوب جميعها عبر العصور المتعاقبة، فإن تلك اللغة في تفصيلاتها وفي مستوياتها الحضارية المعقدة تتباين بعضها عن بعض أشد التباين.

فاللغة العربية واحدة بالنسبة لأبناء الدولة العربية كلّهم ولكنها تختلف من شعب إلى آخر في طرائق الاستعمال الكلامي أو الكتابي، بل يختلف المستوى الذي يسمح للشخص بتفهم الآثار اللغوية من سن لأخرى، ومن مستوى ثقافي إلى مستوى آخر.

وعلى النحو نفسه نستطيع القول: إن لغة المهارات اليدوية تختلف صعوبة وتعقباً من شعب إلى آخر ومن شخص إلى آخر مع تأكيد وجود أساس مشترك يجعل لغة المهارات اليدوية لدى شعوب الأرض واحدة.

فالأدوات المستخدمة في الأداء اليدوية تمثل الحروف الهجائية التي تعتمد عليها لغة المهارات اليدوية. فالمنشار وإن تباين شكله، والمادة التي صنع منها من شعب إلى آخر يظل موجوداً في أيدي شعوب الأرض جميعهم عبر العصور، فالقبائل البدائية ربما استعانت بالسلاسل الفقرية لبعض الحيوانات لقطع الأشجار أو استخدام الحجارة الصلبة وغيرها. وهذا الاختلاف ناتج عن التباين في المستوى الثقافي بين هذه الأفراد والقبائل.

وعلى الرغم من الاختلاف، فإن حروف لغة المهارات اليدوية أيضاً تطورت وتعقدت إلا أنها ظلت من حيث الجوهر تقوم على أسس واحدة.

ومن هنا، فإن السعادة والصحة النفسية والجسمية ناتجة من تعلم المهارات اليدوية، إذ إن تكامل الشخصية ونجوع الفكر لا يتحققان للمرء إلا إذا هو مارس هذه المهارات اليدوية.

فهناك مهن تحظى بالتقدير والإعجاب تعتمد على مجموعة من المهارات اليدوية، فالجراحة مثلاً تمارس ببعض الأدوات التي يستخدمها الطبيب الجراح.

وهكذا، فإن كثيراً من المهن والحرف ما تزال تحتل مكانة مرموقة في الثقافة الإنسانية وفي الحضارة.

ومن هنا، فإن الأعمال اليدوية أداة تعبيرية من جهة وحاجة سيكولوجية أساسية للمرء من جهة أخرى، وإن المهارات التعبيرية تعمل على تحقيق تكامل المجتمع وترابطه، وتعد ركناً أساسياً من أركان الثقافة الاجتماعية.

فالمهارات التعبيرية الأدائية بالصوت والحركة هي أداة من أدوات التثقيف الأساسية، وإذا أهملنا هذه الأدوات نكون كمن يهدم ركناً أساسياً من أركان عمارة.

ثانياً: نماذج حضارية من المهارات الثقافية:

بعد هذا المدخل البسيط إلى مفهوم المهارة وارتباطه بالثقافة لابد لنا من أخذ نماذج مهارية من حضارات مختلفة والوقوف عليها وتوضيح آثارها في حضارات وثقافات أخرى.

فالحضارات العربية الإسلامية من أبرز الحضارات في تاريخ البشرية التي اتسمت بالإنسانية، فكان عطاؤها أكثر في ميادين المهارات اليدوية على اختلاف أنواع هذه المهارات من أفاد العرب لاحقاً.

فالمهارات كانت جزءاً من ثقافة العرب وتحقق رغبة الإنسان العربي وقد زادتها دلالة معنوية وأبرزت جمالياتها الروحية.

وتتضح القيمة الفنية للمنتجات اليدوية في الحضارة العربية الإسلامية باعتبارها عنصراً مقيماً ومهماً من عناصره الثقافية؛ ولأنها تنطوي على غايات جمالية إبداعية مما يعطي ذلك الفن روحية ويقينية.

ويمكن أن يعد الابتكار الذي حصل في الزخرفة العربية حدثاً اجتماعياً فنياً وتطوراً فكرياً.

فالزخرفة بقية محافظة على العلاقة القائمة بين العنصر الزخرفي والعالم الخارجي وهذه الزخرفة اتخذت خصائص ثقافية عربية متميزة من روحية الإسلام وفكرة وفلسفته وتعاليمه.

فالأربسك العراقي الذي يحمل ثقافة العراق والزخرفة المصرية المرتبطة بالثقافة المصرية والشامية. والزخرفات جميعها ترتبط بالثقافة الأم وحب الثقافة العربية والإسلامية.

وقد نالت الزخرفة العربية اهتمام الفنانين الأوروبيين وعنايتهم في مختلف العهود واتخذوها مصدراً واستلهاماً يغني تجاربهم، فقد تأثر كبار المصورين في أوروبا بالزخرفة العربية والإسلامية، ومنهم: (بيكاسو) و(رامبرنت).

لعبت الزخرفة دوراً كبيراً في تزيين العمارات الأوروبية القديمة، واقتبس المعماريون والانجليز في عهد الملكة إليزابيث زخارف من فروع نباتية عربية.

وارتبط التذهيب الذي بالثقافة العراقية ثم انتقل إلى مصر وسوريا، وحول مهارة النجارة (المنابر الخشبية) فإنها تعد هذه القطع من أرقى النماذج المهارية وركن من أركان المهارة الثقافية المتصلة مع المجتمع العربي العراقي، فقد أصبحت هذه المهارات نماذج إبداعية دخل أسلوب سامراء وتكريت في النجارة إلى مصر وأصبح شائعاً في شمال أفريقيا (منبر القيران).

بالإضافة إلى مهارة صناعة المنسوجات المطرزة بخيوط الذهب، فأصبحت تشكل جزءاً من التراث الثقافي، فكسوة الكعبة وغيرها تدل على أن العرب قبل الإسلام وبعده قد اشتهروا بهذه المهارة.

فالبصرة عرفت بعمل الأكسية وهي جمع كساء وهي العباءة والمطارف وهو أيضاً ثوب مربع له أعلام، وهو لباس عربي أصيل أصبح جزءاً من تراث المجتمع العراقي وثقافته.

ومن هنا، فقد أصبحت هذه المهارات (مهارة المنسوجات والتطريز) جزءاً من ثقافة المنطقة، حتى أن الأسماء الأوروبية للقماش مشتقة من هذه المناطق؛ ومنها: (جودي، 1999):

فستيان (*Fastian*) مشتق من فسطاط.

الدامست (*Damasques*) من دمشق.

الديميتي (*Dimiti*) من الدمياط.

نماذج من المهارات الثقافية لبعض المجتمعات العربية:

1. **نماذج من العراق:**

المهارات الشعبية التي وجدت عبر العصور وليدة الحرفة ومن أهم هذه المهارات الثقافية:

- **الحياكة (النسيج):** كانت تُنسج أنواع متعددة من الثياب القطنية والحريرية والصوفية والكتانية، ومن أهم هذه الثياب المشهورة: العتابي نسبة إلى محلة (العتابية) وهي ثياب من حرير وقطن. وأيضاً الخانقيني نسبه إلى مدينة خانقين بالإضافة إلى مهارة نسج الشاش الموصلي. (مرسي، 1986).
- **البصامة:** هي مهارة نقش الخام الأبيض بالنقوش المختلفة المحفورة عند البصام على خشب أعد لهذا الغرض وهذا الخام يستعمل بعدم نقشه عصائب يتعصب بها النسوة او تصنع منها البقج.
- **مهارة صناعة الدلال (دلة القهوة):** يوم كان للقهوة العربية مجدها هذه الصناعة التي ما تزال محفورة في الثقافة العربية.
- **مهارة صناعة الحلي الذهبية والفضية:** كانت هذه المهارة اليدوية من أهم المهارات الثقافية التي تعبر عن ثقافة المجتمع ومن أهم هذه الحلي

العراقية (المينا السوداء) والطاسة وطاسة المجيديات وهي تشكيل نقدي من نقد المجيديات العثمانية توضع على الرأس.

❖ **مهارة عمل (بيض اللكلك)**: تتداخل الصنعة بالمهارة اليدوية وكان الصانع يدخل زقاق المدن (ويغني):

اللكلك عله وطار	وكرأ بيت المختار.
شاف الحلوة تتبختر	الشعر منثور أحمر.

2. نماذج من فلسطين:

من أهم المهارات الثقافية اليدوية مهارة بناء البيوت والمنازل، فالمنزل هو بيت كبير تتراوح مساحته ما بين ستين إلى مائة متر (60 – 100م) تكون كلها غرفة واحدة، أما ارتفاعه فيتراوح من خمسة إلى ستة أمتار (5 – 6م) وهو مكون من نوافذ وساحات وبئر.

وبعد الانتهاء من بناء البيت كانوا:

أ. يضعوا الشبه والخرزة الزرقاء لرد العين.

ب. قراءة قصة المولد النبوي قبل السكن.

ج. وضع الأغصان الخضراء والنقود الفضية لاعتقادهم أنه الخير.

د. الابتعاد عن عملية البدء في البناء أيام الشؤم مثل: الثلاثاء، والأربعاء.

وبعد الانتهاء من البناء كانوا يغنون (أغاني متعلقة بالبيت) ومنها:

شوف أبو فلان باني عمارة	انيها ما هي من حجارة.
خشبها لولو وسن المنشارة	شرع نوافذها للغرب دوماً.
يا دار أبو فلان دقي العبي رهجي	يك الإمارة وفيك قصورة البهجي.
فيك أبو فلان يا ريت العز إلو دايم	ما دامت الإمارة في قصوره البهجة.

(حداد، 1985)

- ❖ أيضاً من أهم المهارات اليدوية التي ما زالت تشكل جزءاً رئيساً من الثقافة الفلسطينية.
- ❖ **مهارة الصناعة الخشبية**، مثل: صناعة الكراسي (كراسي الزيتون).
- ❖ **مهارة صناعة الأدوات الموسيقية الشعبية**، مثل: الشبابة والمجوز واليرغول وتصنع من البوص.
- ❖ **مهارة التطريز**: تقوم النساء بتطريز الثياب والمخدات والشراشف بالخيطان الحريرية بواسطة الإبرة اليدوية وهناك أنواع من القطب، منها: (القدسية) و(اللف) وهناك أسماء للعروق، ومنها: عرق التفاحة، وعرق الورد، وعرق الدالية.

3. نماذج من الكويت:

من أهم المهارات اليدوية الثقافية في الكويت مهارة صناعة البشوت وهي مهارة نسيج تعتمد على مواد أولية من أصواف الأغنام والجمال الملونة.

فالعباءة من أهم الأزياء التي عرضها العرب، واتخذت زمرداً للسيادة والهيبة.

والبشت تعتمد على مهارة يدوية فائقة التطور ومرتبطة بمهارات القبيلة العربية وتقاليدها.

وخلاصة القول: يقول مكسيم غوركي: (إن بداية الكلمة هي في التراث).

ويقول: (اجمعوه وادرسوه ثم صوغوه وسينتج عنه قدر كبير من الفائدة، وبقدر ما تعرف الماضي جيداً سنفهم الحاضر فهما ميسرا عميقاً مبهجاً).

ومن هنا؛ فإن المهارات باعتبارها جزءاً من أجزاء الثقافة تشكل معلماً من أبرز معالم الحياة الشعبية والثقافية المادية التي تحتل بدورها قطاعاً أساسياً في مجال الإبداع الشعبي.

ولا تنفصل المهارات الثقافية عن أنواع التراث الثقافي الأخرى كالعادات، والتقاليد، والأدب، والفنون، بل تكون معها كلا متناغماً، وتتداخل أجزاؤه في حقل الدراسات الثقافية.

ويتضح تداخل المهارات الثقافية مع غيرها من أنماط الإبداع الثقافي في مدى تعبيرها عن عادات وتقاليده ومعتقداته.

الفصل الثامن

الفكر والتفكير

وارتباطهما في الثقافة

الفكر والتفكير وارتباطها في الثقافة

الإنسان في حياته التي بدأت في ضباب الماضي قد سار في مراحل طويلة، وخلّف في تلك المراحل آثاراً بعد أن رأى عجباً من الأسرار والأمور المجهولة، ورأى تعبيرات في شكل الأرض، كما شاهد البراكين والزلازل والفيضانات والغابات تبيد والحيوانات تنقرض ما رأة بحيرات وجبالاً تتحول ومحيطات تتبدل حدودها.

كل ذلك فعل في ذهنه، وقلبه من تحسين قواه الفكرية، فابتدع المصنوعات واكتشف ثم اخترع واستطاع أن يجعل قوى الطبيعية تخدم إرادة وجدانه باجتماعه بأخيه الإنسان وتعاونه من أجل بقاء الجنس. ولم يكن هذا التعاون أقل مشقة مما رآه من قوى الطبيعة.

والإنسان عبر تلك العصور نجح وأخفق، وصعد وهبط، وعمل بفكره ومنطقه، ومضى يعمل بطريقة الخطأ والصواب. إلا أن الثقافة لا تتعدى أن تكون أفكاراً وأعمالاً اخترعها الإنسان لسد حاجاته الأولية، وهي نمط كلي للفكر والسلوك المميز لمجموعة من الناس.

أولاً: مفهوم الفكر والتفكير:

1. **في الموسوعة الميسرة:** كل عمل عقلي يشمل التصور والتذكر والتخيل والحكم والتأمل، ويطلق على كل نشاط عقلي، ومنه قول (ديكارت): "أنا أفكر إذن أنا موجود". (الحاج، د.ت).
2. **يعرف السجود (*Osgood*):** التفكير بأنه: تمثل داخلي للأحداث والوقائع والأشياء الخارجية.
3. **اما في قاموس علم الاجتماع: الفكر:** هو النتاج الأعلى للدماغ باعتباره مادة ذات تنظيم عضوي خاص وهو العملية الإيجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي في مفاهيم وأحكام ونظريات.

4. **يعرف قسطندي نقولا:** التفكير هو كل نشاط عقلي أدواته الرموز؛ أي يستعيض عن الأشياء والأشخاص والمواقف والأحداث برموزها بدلاً من معالجتها معالجة فعلية واقعية، ويقصد بالرمز (Symbol) كل ما ينوب عن الشيء أو يشير إليه أو يحل محله في غيابه. (نقولا، 1976).

أما الرموز التي يستخدمها التفكير: فهي الصور الذهنية والمعاني والألفاظ الأرقام، ومنها: الذكريات، والإشارات، والتعبيرات، والإيماءات، وكذلك الخرائط الجغرافية والعلامات الموسيقية والصيغ الرياضية... الخ.

أما المعنى الشامل للتفكير عند د. أحمد عزت راجح: هو العمليات العقلية بأكملها من تصور وتذكر وتخيل وأحلام يقظة إلى عمليات الحكم والفهم والاستدلال والتعلل والتصميم والتخطيط والنقد وغيرها.

ثانياً: مزايا التفكير:

1. التفكير من باعتباره نشاطاً يستخدم الرموز، وقد أعان الإنسان على استعراض الماضي، والانتفاع من خبراته السابقة، كما أعانه على التنبؤ بالمستقبل والاستعداد له.
2. يساعد في التبصر في عواقب أعماله فبفضله تسنى للإنسان أن يعيش في الماضي وفي المستقبل.
3. استطاع بواسطته أن يتميز عن الحيوان بقدرته على تصور الغاية من سلوكه، وتخيل الوسائل، وابتكار الحيل التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية.
4. استطاع بالتفكير أن يتعلم من خبرات الآخرين ممن هم في غير زمانه ومكانه.
5. وفر التفكير على الإنسان كثير من الوقت والجهد وعصمه عن كثير من الأخطار؛ فعن طريقه يستطيع الإنسان حل كثير من مشاكلاته في ذهنه. وعن طريقه استطاع أن يستخدم جدول الضرب بدلاً من العد على أصابعه.

وبالتفكير يمكن استرجاع تنظيم الماضي لحل المشكلة الحاضرة، وبالتفكير استخدم الرموز لحل المشكلات، ولخلق شيء جديد أصيل وهو ما يسمى الابتكار.

يقول (ستوبنهاور) عن الابتكار: "ليس المهم أن نرى شيئاً جديداً بل الأهم أن نرى معنى جديداً في شيء يراه كل الناس". أي أن توحي لنا الأشياء المألوفة بأفكار جديدة.

أما الإبداع في الفكر فلا بد أن يسبقه جهد عنيف موصول.

ثالثاً: مستويات التفكير:

أ. **المستوى الحسي**: يدور تفكير الأطفال الصغار دون السادسة أغلبه في مستوى الإدراك الحسي، وليس على الأفكار عامة ومعان كلية.

ب. المستوى التصوري: أي الاستعانة بالصور الحسية المختلفة، والتفكير عند الصغار ما بين (6- 12) هو الأكثر شيوعاً أما الكبار فهو وسيلة لحل بعض المسائل.

ج. **مستوى التفكير المجرد *Abstract thinking***: وهو أرقى من المستوى التصوري إذ يعتمد على معاني الأشياء وما يقابلها من ألفاظ وأرقام لأعلى ذواتها المادية المجسمة أو صورها الذهنية، فهو يرتفع عن مستوى الجزئيات العينية الملموسة، ويبدأ في العادة ما بعد سن 12 الثانية عشرة.

ولا شك في أن حل المشكلة الواحدة قد يحتاج إلى التفكير في المستويات الثلاثة على درجات متفاوتة؛ لذا تميز الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل، كما تميز بأنه صانع ثقافته فالعقل أداة الإنسان الذي ينظم به خبراته بطريقة معينة استعداداً لحل المشكلة، أو إدراك علاقة جديدة بين أمرين أو أكثر.

وهذا يعني ان العقل مركز التفكير لدى الإنسان، ونظراً لأن الإنسان يتعلم معظم ما يتعلمه عن طريق التفكير. فلا غرو أن تعد المعرفة كلها نتاج التفكير. (زيتون، 1994).

رابعاً: طرق التفكير:

اتبع الإنسان طرقاً تفكيرية متعددة للوصول إلى المعرفة أو البحث عن تفسيرات للظواهر التي تحيط به، أو لإيجاد حلول للمشكلات التي تواجهه أو تسد حاجاته.

ويمكن تقسيم الطرق إلى ثلاثة أقسام:

أ. طرق تقليدية.
ب. طرق متقدمة نسبياً.
ج. طرق علمية.

ما زال الإنسان المعاصر هذه الطرق حتى يومنا الحاضر يستخدم هذه الطرق كما استخدمها أسلافه.

أ. **الطرق التقليدية:** تعتمد على الصح والخطأ، والاعتماد على الحدس والخيال والصدفة، والاعتماد على الخبرة الذاتية الشخصية أو قبول ما يقول به الآخرون.

مثال: "الأقوام البدائية في جنوب أستراليا وهنود أمريكا".

ب. **الطرق المتقدمة نسبياً وتتكون من:**

- ❖ طريقة القياس (الاستنتاج). مثال: الحياة الفكرية عند المصريين القدماء.
- ❖ طريقة الاستقراء. مثال: الحياة الفكرية عند اليونانيين القدماء.

وطريقة القياس أو الاستنتاج طريقة استدلال تشتمل على مقدمات ونتائج؛ أي أن التفكير يعتمد على قضايا وبديهيات ومسلمات وقرائن ليخرج منها بنتائج.

فإذا ما قبلت بصحة المقدمات، فلا بد من القبول بصحة النتائج، وهذا التفكير أسلوب قديم استعمله الإنسان في التعامل مع مشكلاته اليومية. لكن أي خطأ في صحة المقدمات يقود بالضرورة إلى خطأ الاستنتاجات. (شواهين، 2002).

1. **الاستقراء:**

مجموعة أساليب وطرق علمية وعقلية يستخدمها الإنسان في الانتقال من الخاص إلى العام، أو من الجزئيات إلى الكليات، أو من الظواهر إلى قوانينها. وينقسم إلى قسمين هما:

1. **استقراء تام:** يكون حكم الإنسان فيه كلي مجرد، وتلخيص للأحكام التي يصدرها على مفردات الموضوع.
2. **استقراء ناقص:** يكتفي بدراسة بعض النماذج، ثم يحاول الكشف عن القوانين العامة.

والجدير بالذكر أن التربية الإسلامية والعلماء المسلمين اتبعوا أسلوب الاستقراء في بحوثهم أمثال الحسن بن الهيثم وكذلك اليونانيين القدماء.

2. **الاستنباط أو الطريقة العلمية:**

تتم وفق قواعد وخطوات محددة، ومنها: التاريخية، الوصفية، التجريبية، الإجرائية، التطويرية.

والتربية الحديثة ركزت على هذه الطريقة تحت شعار تعلم الإنسان أن يتعلم، وتربية دائمة، والمجتمع المتعلم.

لذا تجد أن العمليات العقلية ذات طبيعة متدرجة والتفكير أعلاها مرتبة الإدراك الحسي أدناها مرتبة. (زيتون، 1994).

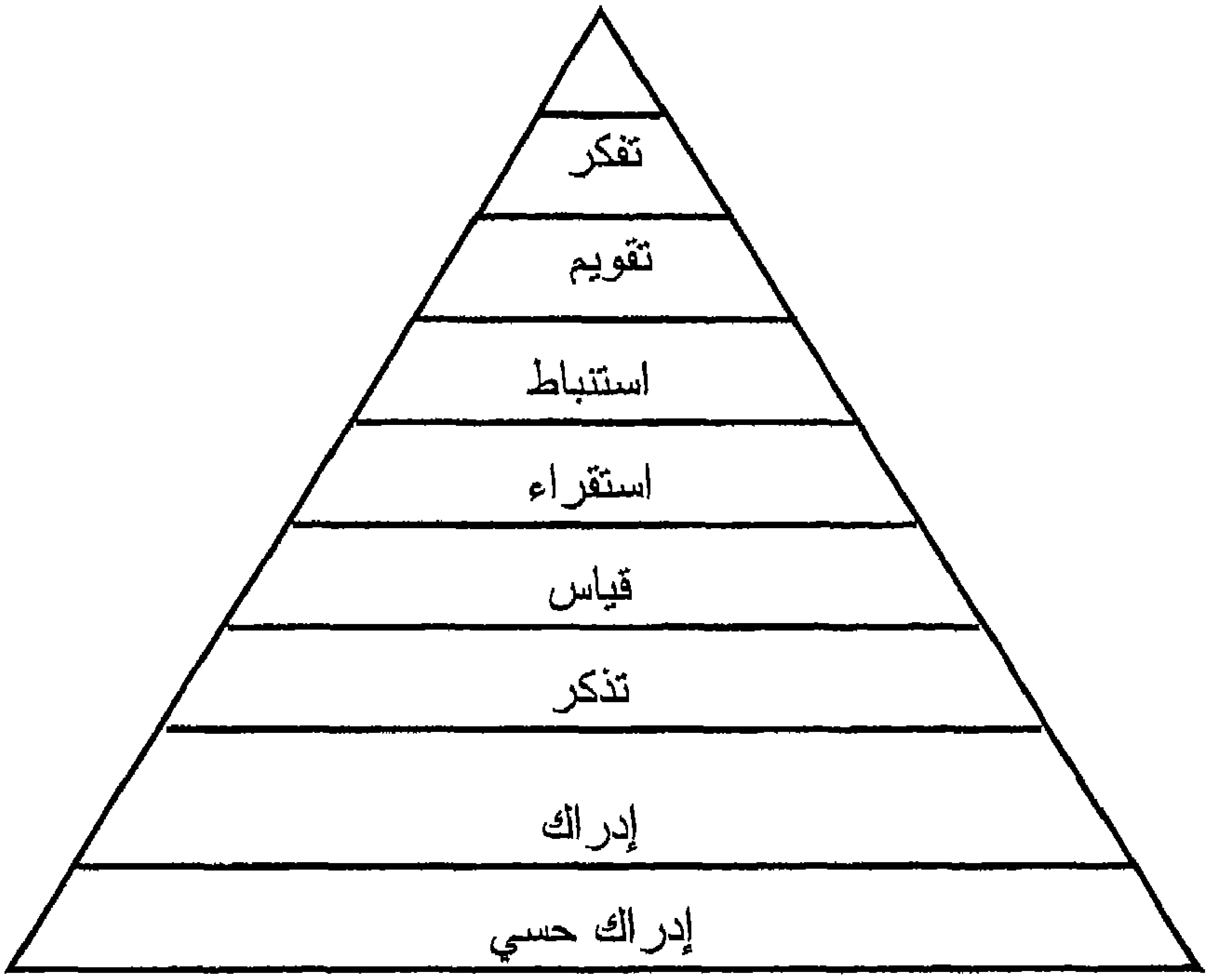

العمليات العقلية:

والفكر هو نتاج العقل ويتأثر في عوامل كثيرة: منها: العامل الجغرافي، والثقافي السائدة، وطبيعة العصر، والعوامل السياسية، والاجتماعية، والنظام الاجتماعي، والمستوى الاقتصادي، والعقيدة السائدة. فكان لكل مجتمع فكره المميز.

الفكر التربوي عند اليونان: صورة المواطن الصالح، وعلاقته بالدولة، والأساليب التي تستعمل لتنشئة الفرد على ذلك.

والفكر في العصور الوسطى المسيحية: يركز على غرس فكرة الخلاص التي توفر للإنسان النجاة من شرور الدنيا وتهيئته للسعادة الآخرية.

والفكر في عصر النهضة الأوروبية: أصبح يركز على إعداد الفرد للاستمتاع بالحياة واستغلال البيئة المحيطة به، والاهتمام بالتربية الجمالية والبدنية والتركيز على الطريقة الاستقرائية في أصول التدريس، كالتربية الواقعية الحسية.

الفكر في الإسلام يركز على إعداد الإنسان دينياً ودنيوياً. (الكيلاني، 1987).

رابعاً: علاقة الفكر في التربية والثقافة:

الثقافة هي الإنسان والطبيعة وما ينتج عنهما، والتربية عملية تكيف بين الإنسان وبيئته الطبيعية، والاجتماعية، والحياتية، والمعنوية، وهي عملية تطبيع اجتماعي هدفها الإنسان. وهي قصة تلاق وتواصل وتجمع.

أما التعليم فينحصر بالجانب العقلي.

نجد أن التربية أم الحضارة وحاميتها، فدورها ليس نقل معلومات ومعارف وإن كان هذا جزء منها، لكن العملية التربوية مادتها فرد في المجتمع بكل ما يتضمنه مفهوم الفرد ومفهوم المجتمع، بالإضافة إلى نقل التراث من جيل إلى جيل وإكساب الفرد الخبرات الاجتماعية من قيم ومعتقدات وسلوك اجتماعي، فضلاً عن تنوير الأفكار بالمعلومات.

وكلما ارتقى الإنسان وتقدمت وسائل الحضارة لديه، احتاج إلى التربية أكثر، واحتاج إلى واسطة ينقلها إلى الأفراد بشكل منظم، وذلك عن طريق العملية التعليمية التعلمية.

وبهذا يختلف مفهوم التربية من مجتمع إلى آخر، لأن ذلك يتوقف على نوع الثقافة التي توجد فيها التربية، إلا أن الفكر التربوي يعكس تطور المجتمع.

والفكر التربوي شأنه شأن الفكر على وجه العموم كائن حي متصل الوجود لا يبدأ من نقطة الصفر، وإنما هو وليد مراحل أخرى سابقة -وهو قياساً على ذلك- والد مراحل أخرى تالية. فهو يؤثر ويتأثر مع الظروف المحيطة به، فهو يرتقي بخبرة الواقع وينمو بحركة الأحداث وينير لها الطريق، ويفتح أمامها الآفاق. (علي، 1987).

لكن ذلك لا يحدث دائماً بدرجة واحدة. ففي المجتمعات المتخلفة يكون الفكر عادة هشاً مفككاً مما يحيله بالفعل إلى ما هو أقرب إلى المرآة التي تعكس سلبياً ما يحيط بها من ظروف، فيعجز عن أن يقوم بدور فعال نشيط في السيطرة على حركة الواقع وتوجيه مسارها. أما إذا كان متقدماً، فدوره في التصحيح والتوجيه.

ومن الواضح أن حركة الواقع الاجتماعي هي غذاء الفكر، فإذا اكتمل الغذاء ونضج بالإنتاجية المرتفعة والتقدم الملموس اكتسب الفكر صحة وسلامة تشيعان فيه العافية والقوة.

واللغة وعاء الفكر، وأساس الصلة بين الماضي والحاضر والمعبرة عن تجارب الأمة في التاريخ والمصورة خبراً بالصورة اللغوية للأوجه المختلفة للإنجازات الحضارية.

واللغة أيضاً هي الوسيلة الوحيدة التي تسجل نشاط الإنسان وإبداعاته وإنجازاته المختلفة. وهي مهمة لكل الأنشطة البشرية. فكل إنسان عضو في جماعة اجتماعية يتعامل مع أفرادها ويشارك في فعاليتها، وعليه؛ فلا بد من استعمال اللغة باعتبارها وسيلة للاتصال والتفكير، فهي حافظة للتراث.

والثقافة هي النمط الكلي للفكر والسلوك المميز لمجموعة من الناس. تقررت في ذهن الفرد منذ الصغر واستوعبها كلها أو معظمها على الأقل، وتصبح مخزوناً فكرياً داخلياً؛ لذا نقول: إن الثقافة هي أسلوب حياة. (ناصر، 1996).

خامساً: الثقافة الإسلامية من منظور طرق التفكير:

يتأثر التفكير والمنطق تأثراً بالزمان والمكان والمادة الموروثة والعقيدة بشكل عام. فالتفكير عند الإنسان إنما هو منطلقات فكرية مبنية على ما قدم له في سنوات طويلة، من حصيلة علمية، ونوعية هذه الحصيلة، وتأثرها وتفاعلها في المجتمع المحيط.

فمن هنا تنشأ الاختلافات الفكرية بين العقول.

كما أن الرجل الذي يعيش في حقبة زمنية عابرة لو حدث ضمن العقل بأشياء من مخترعات القرن العشرين، ما كان منه غير الاستغراب. بخلاف من يعيش في زمننا هذا، لوجود مقدمات عقلية متقاربة مع مقدمات عقله المعاصر.

والإنسان الذي يعيش في بيئة جغرافية معينة بما فيها من أفكار وآثار لو طلب منه أن يخرج عما نال من مسلمات مكانية لاستبعد تقبله لذلك، ويبقى الإنسان محصلة أدبه الديني والدنيوي.

- ❖ هناك دراسات كثيرة عن مكانة العقل في الإسلام، منها: دراسة ابن الجوزي وتربية العقل. وقد تعرضت هذه الدراسة لمفهوم العقل وربط بين العقل والإيمان، كما أكد الجوانب السلوكية للتربية العقلية.
- ❖ دراسات عنيت بمكانة العقل في الإسلام، وخاصة في الكتاب والسنة. ومن الأمثلة على ذلك: دراسة بعنوان الإسلام والعقل على ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي للدكتور صلاح المنجد.
- ❖ وهناك دراسات كثيرة أخرى لتوظيف طرق التفكير من خلال القرآن الكريم. (صالح، 1996).

الإدراك الحسي: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} . (يونس: 67).

{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ} (يونس: 10).

فالإدراك الحسي هو أول العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان، فالسمع والبصر وسائر الحواس لها ارتباط وثيق بأولى العمليات العقلية. وهي العملية لإدراكية الحسية. التي لا تتم إلا بواقع محسوس، وحواس تنقل الواقع المحسوس إلى الدماغ.

ومن آياته تعالى: {يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} . (الروم: 24).

الإدراك المعنوي: إن الله تعالى أنعم على الإنسان السمع والبصر وعلمه تسمية الأشياء لقوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا} (آية البقرة: 31).

فالإنسان المسلم الذي يقرأ الآيات القرآنية التي تصف الجنة، تتكون لديه صورة حية عن النعيم، مع أن النعيم لا تدركه الأبصار.

التذكر: أحد العمليات العقلية الأساسية التي أكدها القرآن الكريم وذكرها أكثر من (275) مرة.

قال تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} . (الأعراف: 74).

القياس: هو مقارنة موقف أو شيء بموقف معلوم يماثله أو يناقضه.

قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} . (سورة آل عمران: 59).

التطبيق: المقارنة بين أمرين، سواء كان في الاختلاف أو التماثل.

الاستقراء: عملية التدرج من الجزء إلى الكل.

يقوم العقل الإنساني بتتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام ينطبق عليها جميعاً.

قال تعالى: {سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} . (سورة الأنعام: 11).

الاستنباط: هو عملية عقلية تقوم على الاستقراء والقياس، ونجدها في باب الاجتهاد في الفكر الإسلامي، والمنهج العلمي.

التقويم: إصدار حكم في القضايا التي يدركها العقل. أي اكتشاف حقيقة أو موقف عن طريق الطرق السابقة كالقانون.

قال تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً}.

التفكير: هو العبور من عالم المحسوس إلى خالق هذا العالم، وهي أعلى مرتبة (الإيمان بالله)، ولا يصل إليها إلا المؤمن.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. (سورة الرعد: 3).

من هنا، نرى أن عملية التفكير ذات صبغة شمولية، وأن التفكير شامل لجوانب الحياة جميعها. (صالح، 1996).

تطبيقات على طريقة التفكير في الثقافة الإسلامية:

1. **تنمية التفكير والتخلص من الخرافات والشعوذة:**

عملت التربية الإسلامية على تحرير العقل من أوضاع الجهل والخرافات والأوهام والجمود الفكري، وذلك بمعرفة الحقائق عن طريق اليقين والمنطق العقلي، مثل: وأد البنات.

2. **نهى المنهج الإسلامي عن استخدام السحر والشعوذة**، والتنبؤ بعلم الغيب، والاعتقاد بالخرافات، إن ذلك لا يعد من الجهل فحسب، بل هو الكفر والشرك في الإيمان.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً}.

روي عن ابن مسعود عن الرسول عليه السلام أنه قال: «من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً، يؤمن بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد عليه السلام» (رواه الطبري في الكبير).

3. **عدم الأخذ بالظن أو اتباع حكم الهوى:**

هو الاعتماد على العقل في البحث والأدلة المنطقية والبراهين العقلية، فالظن والتخمين لا يوصل إلى الحقيقة.

قال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} (سورة يونس: 36).

أي أن اتباع البراهين في الحكم على الأمور هو طريق الحق، فالحكم بين الناس في المجتمع يتطلب الأدلة (الشواهد)، واعتماد العقل والنزاهة. فلا يجوز اتباع الهوى لضمان العدالة الاجتماعية.

قال تعالى: {يداوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ} . (سورة ص: 36).

4. **عدم التقليد دون نظر وفكر:**

التقليد دون تفكير ليس طريقاً للعلم ولا موصلاً له. وشبه الله تعالى المقلدين الكافرين بالأنعام فهم لا يعقلون. لقد بنيت التربية الإسلامية على النظر والتفكير واستخدام الحواس في الملاحظة واستخدام القلب في الاستبصار والتدبر. (عبد الدايم، 1976).

والهدف من ذلك تنمية العقل والفكر، قال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (سورة محمد: 24).

5. توجيه العقل إلى النظر في حكمة التشريع:

من هنا كان القرآن الكريم كتاب النفس الأكبر وكتاب التربية الأول.

ويبين الأستاذ مصطفى نظيف في كتابه القيم "الحسن بن الهيثم" بحوثه وكشوفه البصرية كيف توافرت لدى ابن الهيثم مميزات التفكير العلمي الصحيح وعناصره من استقراء وقياس واعتماد على المشاهدة أو التجربة ومن تمثيل وغيره والأمثلة عديدة.

ويكفي القول: إن الملوك الأوربيين جمعوا علوم العرب وكتبهم في القرن الثاني عشر وأشاعوها في الجامعات.

فالعرب هم من مزجوا بين الثقافة الإنسانية العامة وبين الثقافة العلمية التجريبية وبينوا أهميتها الثقافية، وهذا كله إن دل على شيء فهو يدل على المكانة الأولى للدين.

وإن قيمة العلوم بمقدار نسبها إلى العلم الأول علم الإلهيات وما حوله.

فالإسلام ليس مجرد شريعة ودين، إنما طريقة حياة شاملة، وقد تضمنت هذه النظرة الشاملة تصوراً لموضوع الألوهية والإنسان والهدف من الحياة المعرفة، وتتضح الإيدولوجيات في الإسلام من خلال هذه المنظومة. فالتربية الإسلامية متكاملة الجوانب لا تقتصر على علم دون آخر. فجاء الفكر الإسلامي ليربط بين التعليم والممارسة، بل اتخذت من حياة الدنيا مجالاً لها (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، ولآخرتك كأنك تموت غداً).

لذلك نجد في التربية الإسلامية معظم الأساليب جنباً إلى جنب، فمن القدوة الصالحة إلى التلقين، إلى أسلوب الترغيب والترهيب وأسلوب الوعظ والنصح إلى أسلوب الممارسة العملية. وأخيراً الحوار والمناقشة، أو ما يسمى المناظرة.

سادساً: إستراتيجية تعليم التفكير:

تتنوع استراتيجيات تعليم مهارات التفكير التي يمكن استخدامها في المواد الدراسية المختلفة.

ويرى بعض الباحثين أن يكون تعليم مهارات التفكير وعملياته بصورة مباشرة، بغض النظر عن محتوى المواد الدراسية، بينما يرى آخرون أنه يمكن إدماج هذه المهارات والعمليات ضمن محتوى المواد الدراسية، وكجزء من خطط الدروس التي يحضرها المعلمون كل حسب موضوع تخصصه. وقد اخترنا الإستراتيجية المباشرة التي من شأنها ترسيخ تقاليد مدرسية وصفية تستجيب لضغوط الحياة المعاصرة التي تحتم إبراز موضوع التفكير باعتباره أهم أهداف التربية والتعليم في المدرسة الحديثة.

تتألف الإستراتيجية المباشرة لتعليم مهارات التفكير من مراحل عدة هي:

1. **عرض المهارة بإيجاز.**
   - يصرح المعلم عن هدف الدرس وهو تعلم مهارة تفكير جديدة.
   - يحدد اسم المهارة ويعرفها بعبارة واضحة.
   - يعطي كلمات أخرى مرادفة لمفهوم المهارة أو معناها.
   - يوضح أهمية المهارة وفوائد تعلمها وإتقان استخدامها.
2. **شرح وتوضيح المهارة بمثال.**

يختاره المعلم من الموضوع الذي يعلمه أو غيره من الموضوعات.

يشرح المعلم قواعد المهارة وخطوات تطبيقها مع تقديم أمثلة لهم من الموضوع الذي يقوم بتدريسه ويراعي في أثناء عرض المثال ما يلي:

- تحديد هدف النشاط.

- تحديد خطوات التنفيذ.
- إعطاء مبررات لاستخدام كل خطوة.
- توضيح كيفية التطبيق وقواعده.

ويفضل أن تكون أمثلة المعلم مأخوذة من موضوعات دراسية مألوفة لدى التلاميذ أو من خبراتهم الشخصية.

3. مراجعة خطوات التطبيق التي استخدمها المعلم في المثال التوضيحي.

بعد أن ينتهي المعلم من توضيح المهارة بالتمثيل، يقوم بمراجعة الخطوات التي استخدمت في تنفيذ المهارة والأسباب التي أعطيت لاستخدام كل خطوة.

4. تطبيق المهارة من قبل الطلبة بمساعدة المعلم.

يكلف المعلم الطلبة بتطبيق المهارة على مهمة أخرى مشابهة للمثال الذي عرضه المعلم باستخدام الخطوات نفسها، والقواعد التي يفضل أن تبقى معروضة على شفافية أمامهم في أثناء قيامهم بالتطبيق، يقوم الطلبة بالعمل على شكل مجموعات، ويقوم المعلم بالمرور بينهم لمساعدتهم في حالة وجود صعوبات لدى البعض منهم.

5. المراجعة والتأمل في الخطوات السابقة.

يقود المعلم عملية المراجعة لتتناول النقاط التالية:

- مراجعة خطوات تنفيذ المهارة والقواعد التي تحكم استخدامها.
- عرض المجالات الملائمة لاستخدام المهارة.
- تحديد العلاقات بين المهارة موضوع الدرس والمهارات الأخرى التي تعلموها.
- مراجعة تعريف المهارة.

سابعاً: التفكير الناقد في الثقافة:

سأل أحدهم زميله: هل تعتقد أن من الممكن صناعة طائرة تتسع لعشرة آلاف راكب؟ أجاب زميله: ما هذا السؤال السخيف؟ كيف يمكن لطائرة ثقيلة كهذه أن ترتفع عن الأرض؟

إن هذه الإجابة، تشير إلى أن صاحبها لا يتصف بصفات من يفكر تفكيراً ناقداً، لأنه غير منفتح على الأفكار الجديدة، وليس لديه معرفة بهندسة الطيران، ولا يعرف أنه بحاجة لمعلومات أكثر حول الموضوع.

1. مفهوم التفكير الناقد:

التفكير النقدي هو القدرة على إثارة الأسئلة ذات الصلة الصحيحة بالموضوع، ووضع الحلول دون عرض البدائل بالضرورة.

والتفكير الناقد تفكير تأملي يقود إلى اتخاذ قرار فيما يتوجب الاعتقاد به أو عمله. فهو نشاط عقلي يقوم به الفرد عندما يواجه موقفاً يتطلب منه إصدار حكم أو إبداء رأي. ويتم ذلك بإخضاع المعلومات والبيانات لاختبارات عقلية ومنطقية؛ لإقامة الأدلة أو الشواهد والتعرف على القرائن. ويتم فيه معالجة هذه المعلومات والبيانات لاختبارات عقلية ومنطقية وذلك لإقامة الأدلة أو الشواهد والتعرف على القرائن.

يتألف التفكير الناقد من ثلاثة مكونات هي:

- صياغة التعميمات بحذر.
- النظر والتفكر في الاحتمالات والبدائل.
- تعليق الحكم على الشيء أو الموقف لحين توافر معلومات وأدلة كافية.

2. الفرق بين التفكير الناقد وحل المشكلة:

التفكير الناقد يبدأ بوجود ادعاء أو استنتاج أو معلومة (ما قيمة صحة الشيء أو ما مداه) بينما حل المشكلة يبدأ بوجود مشكلة ما، والسؤال هو (كيف يمكن حلها).

إن التفكير الناقد ليس إستراتيجية كما هو الأمر في حل المشكلة أو اتخاذ القرار، لأنه لا يتكون من سلسلة من العمليات والأساليب التي يمكن استخدامها في معالجة موقف ما بصورة متتابعة، ولكنه مجموعة من العمليات أو المهارات الخاصة التي يمكن أن تستخدم بصورة منفردة أو مجتمعة، دون التزام بأي ترتيب معين.

3. مهارات التفكير الناقد:

يصنف الباحثان (أودل ودانيالز) مهارات التفكير الناقد في ثلاث فئات على النحو الآتي:

- مهارات التفكير الاستقرائي.
- مهارات التفكير الاستنباطي.
- مهارات التفكير التقييمي.

معايير التفكير الناقد:

- الوضوح:

فإذا لم تكن العبارة واضحة فلن نستطيع فهمها، ولن نستطيع معرفة مقاصد المتكلم، ولن نستطيع الحكم عليها بأي شكل من الأشكال.

ولكي يدرب المعلم طلبته على الالتزام بوضوح العبارات في استجاباتهم، يسألهم كالآتي:

- هل تستطيع أن تفصل هذه النقطة بصورة أوسع؟
- هل يمكن أن تعبر عن الفكرة بطريقة أخرى؟
- هل يمكن أن تعطيني مثالاً على ما تقول؟
- ماذا تقصد بقولك...؟

- **الصحة:**

يقصد بمعيار الصحة أن تكون العبارة صحيحة وموثقة، كأن نقول: (معظم النساء في الإمارات يعمرن أكثر من 65 سنة) دون أن يستند هذا القول إلى إحصائيات رسمية أو معلومات موثقة.

ولكي يدرب المعلم طلبته على مراعاة هذا المعيار يسألهم في أثناء استجاباتهم بما يأتي:

- هل ذلك صحيح بالفعل؟
- كيف يمكن أن نفحص ذلك؟
- من أين جئت بهذه المعلومة؟
- كيف يمكن التأكد من صحة ذلك؟

- **الدقة:**

يقصد بالدقة في التفكير استيفاء الموضوع حقه من المعالجة والتعبير بلا زيادة أو نقصان. ويستطيع المعلم أن يوجه الطلبة لهذا المعيار عن طريق السؤالين الآتيين:

- هل يمكن أن تكون أكثر تحديداً؟ (في حالة الإطناب).
- هل يمكن أن تعطي تفصيلات أكثر؟ (في حالة الإيجاز الشديد).

❖ **الربط:**

يعني الربط مدى العلاقة بين السؤال، أو المداخلة، أو الحجة، أو العبارة بموضوع النقاش، أو المشكلة المطروحة. ومن الأسئلة المساعدة في ذلك:

❖ هل تعطي هذه الأفكار أو الأسئلة تفصيلات أو إيضاحات للمشكلة؟
❖ هل تتضمن هذه الأفكار أو الأسئلة أدلة مؤيدة أو داحضة للموقف؟

❖ **العمق:**

❖ **الاتساع:**

يقصد به أخذ جميع جوانب المشكلة أو الموضوع بالاعتبار، ومن الأسئلة التي يمكن إثارتها لذلك ما يلي:

❖ هل هناك حاجة لأخذ وجهة نظر أخرى بالاعتبار؟
❖ هل هناك جهة أو جهات لا ينطبق عليها هذا الوضع؟
❖ هل هناك طريقة أخرى لمعالجة المشكلة أو السؤال؟

❖ **المنطق:**

من الصفات المهمة للتفكير الناقد أن يكون منطقياً في تنظيم الأفكار وتسلسلها وترابطها بطريقة تؤدي إلى معنى واضح أو نتيجة مترتبة على حجج معقولة. ويمكن إثارة الأسئلة الآتية للحكم على منطقية التفكير:

❖ هل ذلك معقول؟
❖ هل يوجد تناقض بين الأفكار أو العبارات؟

هل المبررات أو المقدمات تؤدي إلى هذه النتيجة بالضرورة؟

4. خصائص المفكر الناقد:

- منفتح على الأفكار الجديدة.
- لا يجادل في أمر عندما لا يعرف شيئاً عنه.
- يعرف متى يحتاج إلى معلومات أكثر حول شيء ما.
- يعرف الفرق بين نتيجة (ربما تكون صحيحة) ونتيجة (لابد أن تكون صحيحة).
- يعرف بأن لدى الناس أفكاراً مختلفة حول معاني المفردات.
- يحاول تجنب الأخطاء الشائعة في استدلاله للأمور.
- يتساءل عن أي شيء يبدو غير معقول أو غير مفهوم له.
- يحاول فصل التفكير العاطفي عن التفكير المنطقي.
- يحاول بناء مفرداته اللغوية، ويكون قادراً على فهم ما يقوله الآخرون، وعلى نقل أفكاره بوضوح.
- يتخذ موقفاً أو يتخلى عن موقف عند توافر أدلة وأسباب كافية لذلك.
- يأخذ جوانب الموقف جميعها بالقدر نفسه من الأهمية.
- يبحث عن الأسباب والبدائل.
- يتعامل مع مكونات الموقف المعقد بطريقة منظمة.
- يستخدم مصادر علمية موثوقة ويشير إليها.
- يعرف المشكلة بوضوح. (جروان، 1999).

5. برامج تعليم مهارات التفكير في الثقافات المختلفة:

تتنوع برامج تعليم التفكير ومهاراته بحسب الاتجاهات النظرية والتجريبية التي تناولت موضوع التفكير. ومن أبرز الاتجاهات النظرية التي بنيت على أساسها برامج تعليم التفكير، ومهاراته ما يلي:

أ. برامج العمليات المعرفية:

تركز هذه البرامج على العمليات أو المهارات المعرفية للتفكير، مثل: المقارنة، والتصنيف والاستنتاج؛ نظراً لأنها أساسية في اكتساب المعرفة ومعالجة المعلومات. ومن بين البرامج المعروفة التي تمثل اتجاه العمليات المعرفية برنامج "البناء العقلي لجيلفورد" وبرنامج "فيورستين التعليمي الإغنائي".

ب. برامج العمليات فوق المعرفية:

تركز هذه البرامج على التفكير بصفته موضوعاً قائماً بذاته، وعلى تعليم مهارات التفكير فوق المعرفية التي تسيطر على العمليات المعرفية وتديرها، ومن أهمها: التخطيط، والمراقبة، والتقييم. وتهدف إلى تشجيع الطلبة على التفكير حول تفكيرهم، والتعلم من الآخرين، وزيادة الوعي بعمليات التفكير الذاتية. ومن أبرز البرامج الممثلة لهذا الاتجاه برنامج "الفلسفة للأطفال" وبرنامج "المهارات فوق المعرفية".

ج. برامج المعالجة اللغوية والرمزية:

تركز هذه البرامج على الأنظمة اللغوية والرمزية كوسائل للتفكير والتعبير عن نتاجات التفكير معاً. وتهدف إلى تنمية مهارات التفكير في الكتابة والتحليل وبرامج الحاسب. ومن بين هذه البرامج التعليمية: برامج "الحاسب اللغوية والرياضية".

د. برامج التعلم بالاكتشاف:

تؤكد هذه البرامج أهمية تعليم أساليب واستراتيجيات محددة للتعامل مع المشكلات، وتهدف إلى تزويد الطلبة بعدة استراتيجيات لحل المشكلات في المجالات المختلفة، وتضم هذه الاستراتيجيات: التخطيط، وإعادة بناء المشكلة، وتمثيل المشكلة

بالرموز أو الصور أو الرسم البياني، والبرهان على صحة الحل. ومن البرامج الممثلة لهذا الاتجاه: برنامج "كورت لديبونو" وبرنامج "التفكير المنتج" لكوفنجتن ورفاقه.

٥. **برامج تعليم التفكير المنهجي:**

تتبنى هذه البرامج منحى بياجيه في التطور المعرفي، وتهدف إلى تزويد الطلبة بالخبرات والتدريبات التي تنقلهم من مرحلة العمليات المادية إلى مرحلة العمليات المجردة التي يبدأ فيها تطور التفكير المنطقي والعلمي. وتركز على الاستكشاف ومهارات التفكير والاستدلال، والتعرف على العلاقات ضمن محتوى المواد الدراسية.

الفصل التاسع

العرف وأبعاده الثقافية

العرف وأبعاده الثقافية

أولاً: تعريف العرف:

1. العرف في اللغة:

ذكرت معاجم اللغة للعرف أكثر من معنى، وما يذكره معجم منها لا يخرج عما يذكره غيره من المعاجم، ومن أبرز معاني العرف ما يأتي:

- تتابع الشيء متصلاً بعضه بعضاً.
- ما يدل على السكون والطمأنينة.
- المكان المرتفع.

وجاء في المعجم الوسيط أن العرف: ما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم. وهو خلاف المنكر. (ابن منظور، د.ت).

2. العرف في اصطلاح علم الاجتماع:

العرف: القواعد التي يدرج الناس على اتباعها في بيئة معينة ويسيرون على نهجها في معاملاتهم، مع شعورهم بلزوم احترامها والخضوع لأحكامها، فيصل هذا الشعور إلى الاعتقاد بلزوم هذه القواعد، عدم الخروج عليها.

أو هو: مجموعة العادات والتقاليد التي سادت بين الناس وأصبحت بمنزلة الشرع أو القانون في الأهمية والاحترام وهي من صنع الجماعة تحكي أوضاعهم، وتنقل أخبارهم، وتحفظ أمجادهم عبر العصور.

أو هو: طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة، وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال وما يلجأون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجماعي، ويضطر الأفراد إلى الخضوع لهذه المعتقدات. (عبيدات، د.ت).

3. **العرف في الشرع:**

هو ما اعتاده الناس وساروا عليه في أمور حياتهم ومعاملاتهم من قول أو فعل أو ترك.

ومما تقدم، نلاحظ أن هناك تلازماً بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للعرف، إذ إن العرف يتصل مع العادات والتقاليد، إذ تشكل هذه العادات والتقاليد العرف، ويشعر أفراد المجتمع بالسكون والطمأنينة إلى العرف السائد ثم شعورهم بالإلزام والالتزام لقوة وسلطته العرف في المجتمع الذي يعيشون فيه. (خلاف، د.ت).

ثانياً: نشأة العرف:

إن العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في مجتمع ما، هي التي تشكل الأعراف السائدة في المجتمع، إذ يعد علماء الاجتماع أن العرف من أهم عناصر الثقافة، ويتكون العرف من ضمير الجماعة بطريقة لا نشعر بها ولا نحس، شأن العرف في هذا شأن قواعد اللغة وقواعد الأخلاق وغيرها من الأمور التي يخلقها لنفسه بنفسه.

ومن خصائص العرف أنه ينشأ تدريجياً وببطء، فقد يتبع شخصاً أو أكثر قاعدة ما في حكم تصرفاتهم، حتى إذا ظهر صلاح تلك القاعدة، واتفقت مع ظروف الجماعة وحاجاتهم لجأ باقي الأفراد إلى إتباعها بدورهم، مدفوعين في ذلك بغريزة التقليد والسير على المألوف.

فإذا اقتنع الناس بالقاعدة العرفية، فإنها تنتقل من جيل إلى جيل آخر حتى يكثر اتباع الناس لها ويتولد في أذهانهم وجوب احترامها والالتزام بها. (الرشدان، 1999).

ثالثاً: أهمية العرف:

تظهر اهمية العرف باعتباره مصدراً للقاعدة القانونية، فقد كان له شأن عظيم فيما مضى، فهو المصدر الوحيد للقانون في المجتمعات الأولى، باعتبار أن الكتابة لم تكن معروفة في تلك الأزمان، وحيثما عرفت الشعوب الكتابة بادرت بتدوين القواعد العرفية المستقرة، فحولت العرف إلى قانون مكتوب، كما جرى ذلك عند الرومان حينما ثبتوا قواعدهم العرفية في صحائف من البرونز صارت تعرف فيما بعد "بالألواح الإثنى عشر" وقد حوت الأعراف السائدة بين القبائل التي كانت تقطن ضواحي مدينة روما، وهذا ما حدث أيضاً للشريعة الهندية التي صارت تعرف "بقانون مانو"، وفي العراق حولت الأعراف السائدة بين سكان ما بين الرافدين إلى شرائع مكتوبة كشريعة حمورابي.

وعلى الرغم من تقدم المدينة وتطورها، إلا أن العرف يحتل مكاناً مميزاً وبارزاً بين مصادر القانون. (الزعبي، د.ت).

رابعاً: عناصر العرف:

لكي يعد العرف ملزماً ومصدراً من مصادر القاعدة القانونية لدى أفراد المجتمع، لا بد أن يتوفر فيه ركنان أو عنصران هما:

أ. **العنصر المادي:** يقصد به الاعتياد على اتباع سلوك أو قاعدة معينة في مزاولة نشاط معين. وينشأ العرف باتباع سلوك معين في مواجهة مسألة معينة، واستقرار هذا السلوك نتيجة لتكراره في الحالات المماثلة.

والعنصر المادي يتوافر نتيجة لتكرار سلوك معين، والتكرار دليل على وجود عنصر الرضا والقبول لدى الجماعة. إذ يعد العنصر المادي بمنزلة إقرار أو شهادة باعتناق ضمير الجماعة للقاعدة القانونية (العرف).

ويجب أن تتوافر في العادة عدة شروط حتى تصبح عرفاً، وهي:

1. **العمومية:** أن لا تكون خاصة ببعض أفراد المجتمع وإنما يجب أن تعم أفراد المجتمع جميعهم.
2. **القِدَم:** يشترط في العرف أن يكون قديماً، أي استقر ومضت على اتباعه فترة من الزمن تكرر تطبيقه خلالها بما يؤكد هذا الاستقرار، وتأصيلها في النفوس، وأنها ليست بدعة جديدة أو نزوة عابرة.
3. الثبات والاطراد: ويراد بثبات العرف أن يطرد إتباعه بطريقة منظمة على نحو يتوفر فيه معنى الاستقرار، فلا يتبعها الناس أوقاتاً معينة، ويعدلون عنها في أوقات أخرى. وهذا يعني أن عدول بعض الأشخاص عن اتباعها يكفي لنفي الثبات عنها، فالعبرة في هذا الشأن بغلبة اتباعها في أكثر الحالات.
4. **العلانية والذيوع:** هي أن تكون القاعدة العرفية غير مخفية أو مستقرة، وذلك حتى يسهل معرفتها على الأفراد الذين تمسهم. ومن المهم أن تشيع القاعدة العرفية بين أفراد المجتمع؛ لأن العرف في الواقع قانون ملزم غير مدون. (عالية، 1997).

ب. **العنصر المعنوي:** ويقصد به توفر الاعتقاد والشعور لدى الأطراف والمعنيين الذين تنظمهم القاعدة العرفية بالتزام هذه القاعدة ووجوب اتباعها وسريانها. بمعنى أن القاعدة، وبحكم تكرارها واطرادها أصبحت قانوناً واجب الاحترام لا تجوز مخالفته، ويجب معاقبة من يخالفه.

خامساً: صور العرف:

للعرف صور وأشكال مختلفة تختلف باختلاف ثقافة المجتمع السائدة، ومن هذه الصور: الحكمة، أو الأغنية، أو الأسطورة، أو الاعتقاد في الأرواح الخفية، أو كرامات الأولياء، أو صورة تطير يظهر في ألوان من التشاؤم، أو التفاؤل الملزم، للأخذ به في مكان معين وفي زمن معين.

سادساً: أنواع العرف:

يمكن تقسيم العرف من جهة عمومه إلى قسمين هما:

1. **عرف عام:** أن تضم المجتمع بأكمله، فتكتسب صفة العمومية.
2. **عرف خاص:** أي أن العرف يكون خاصاً لطائفة معينة من أفراد المجتمع، ويكتسب صفة الخصوصية، مثل: طائفة التجار، أو العمال...

سابعاً: الأبعاد الثقافية للعرف:

يعد الإنسان فرداً مميزاً عن باقي المخلوقات الحية، فهو يعيش مع غيره من الأفراد فيؤثر فيهم ويتأثر بهم، وبخاصة إذا علمنا أن الإنسان بطبعه إنسان اجتماعي، فمنذ ولادته تبدأ عملية التطبيع الاجتماعي، وتتكون ثقافته التي تنعكس على شخصيته وسلوكه. ولكن لكل إنسان أسلوب حياة يختلف عن الآخر، ولكل مجتمع طريقته في الحياة، فهذه وغيرها مجتمعه تشكل ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

فالثقافة بمفهومها العام: أسلوب حياة، فهي تعني فكرة التدخل الإنساني، أي إضافة شيء إلى حالة من الحالات الطبيعية، أو إدخال تعديل عليها.

فالثقافة تمثل أنماطاً من الفكر والعمل الإنساني المميز لمجموعة من الناس، وتشكل سلوك حياة للأفراد أو طرائق تعاملهم. وبالجملة، يمكن القول: إن الثقافة هي أسلوب الحياة، وهي المرآة التي تعكس صورة المجتمع.

فالعرف يشكل عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة، فهو جزء من الكل المتراكم الذي تحتويه ثقافة أي مجتمع سواء كانت مجتمعات بدائية أو مجتمعات متقدمة (حديثة).

وإذا ما دققنا النظر في العرف باعتباره عنصراً مهماً من عناصر الثقافة، فإننا نجد أن للعرف بعدين هما:

1. البعد الأيديولوجي هو:

مفهوم الأيديولوجيا من المفاهيم التي يشوبها الخلط وعدم الوضوح؛ فهو مثار جدل عند الباحثين، ولا يتسع المقام أن نتناول الجدل حول مفهوم "الأيديولوجيا" إلا أنه يمكن أن نعرف الأيديولوجيا من وجهة نظر علماء الاجتماع بأنها: "نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها، واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والنظامية وتبررها في الوقت نفسه.

إن الأيديولوجيا تنطبق على الأفراد كما تنطبق على الجماعات، فكل فرد له أيديولوجيا معينة، كما أنه لكل مجتمع أيديولوجيته، أي تصوره للحياة ومعتقداته فيها. فلكل مجتمع نسقه الخاص الذي يتفق مع ثقافته المميزة، وتاريخه، وظروفه الخاصة. (مدغمش، 1986).

فالعرف السائد في مجتمع ما، هو نسق من الأفكار والعادات والتقاليد السائدة في هذا المجتمع المستمدة من الأيديولوجية الجمعية (الجماعة) إلى أن تصبح هذه التقاليد والعادات عرفاً متفقاً مع النسق الأيديولوجي السائد في المجتمع. وبعبارة أخرى، إن عناصر الثقافة جميعها، وبما فيها العرف تتشكل حسب الأيديولوجية السائدة في المجتمع.

2. البعد الإلزامي (قوة العرف)

العرف ينشأ لأن الناس ملزمون بحكم طبائعهم وضرورات الاجتماع إلى أن يختطوا لأنفسهم قواعد يسيرون عليها في علاقات بعضهم ببعض. فالعرف يعد أهم أداة للضبط والتنظيم الاجتماعي في المجتمع، ولذلك؛ فإنه في بعض الحالات يسد

مسد القانون إذا لم يكن في القانون نص واضح لمعالجة مشكلة معينة حدثت، حتى أنه قيل: "إن العرف سلطان، إذا قال فما على الناس إلا تنفيذ ما يقول" إن العرف يعطي الفرد وثوقاً به، ويفرض عقاباً صارماً في حالة الاعتداء عليه، فالمجتمع ينظر إلى الاعتداء على العرف على أنه مصدر خطر على الآخرين، وبهذا يخضع الأفراد للعرف بدون حاجة إلى تشريع منظم، أو منظمة تقوي من سلطته وسيطرته عليهم. (سعد، 1980).

وفي ضوء ما تقدم ذكره، ما الأساس الذي يجعل من العرف مصدراً ملزماً وأداة للضبط؟ وللإجابة عن هذا التساؤل، يجدر بنا أن نبين الآراء في هذا المجال على النحو الآتي:

أ. تأسيس إلزامية العرف على إجازة المشرع "الدولة" الضمنية:

يرى أصحاب هذا الرأي أنه ما دام المشرع لا يعترض على العرف الذي يتكون في المجتمع فإن هذا يعني أنه إجازة ضمنياً، وبذلك يجد العرف قوته الملزمة في إرادة المشرع الضمنية، فيكون العرف مجرد إرادة ضمنية له، كما أنه تشريع إرادته الصريحة. ويؤخذ على هذا الرأي أن العرف كان أسبق في الوجود من التشريع من الناحية التاريخية، بدليل ما كان عليه الحال في المجتمعات القديمة، مما يثبت أنه مصدر مستقل عنه متصور وجوده دون إقرار المشرع له أو رضاه عنه.

ب. تأسيس إلزامية العرف على ضمير الجماعة:

يعكس هذا الرأي تصور المدرسة التاريخية للقانون، إذ إن القانون ينشأ ويتطور آلياً في ضمير الجماعة نتيجة لعوامل تاريخية واجتماعية وسياسية، وأن العرف، وهو الوسيلة الفطرية الأصيلة لخلق القواعد القانونية، وأنه يفضل على التشريع، باعتباره وسيلة التعبير المباشرة والتلقائية عن ضمير الجماعة. وبذلك ينتهي هذا الرأي إلى تأسيس قوة إلزامية العرف على الضمير الجماعي.

ومما يؤخذ على هذا الرأي أنه يغالي في تأسيس العرف على الضمير الجماعي، تلك الفكرة التي يحيطها الغموض والإبهام، الأمر الذي يجعل وجود هذا الضمير محلاً للشك. (عالية، 1997).

ج. تأسيس إلزامية العرف على ضرورته الاجتماعية:

يرى "جيني" أن العرف ظاهرة تحقق ضرورة اجتماعية دائمة، إذ إن الثبات اللازم للعلاقات بين الأفراد والاستقرار الضروري لحقوقهم والحاجة إلى المساواة، التي هي أساس كل عدالة تقضي بأن القاعدة التي تؤديها عادة مستقرة لها جزاء مادي تلزم كما يلزم القانون، كما أنها تتفق وغرائز الإنسان الخفية التي تتمثل في احترام العادة الثابتة، وشعور الأفراد بالرهبة عندما يقدمون على مس ما جرى عليه أسلافهم. وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار العرف مصدراً ملزماً من مصادر القانون، على القاضي أن يلتزم بتطبيقه.

وبناءً على ما تقدم فإن الرأي الثالث أجدر بالترجيح، لأن العرف لا يستمد قوته الملزمة لا من المشرع ولا من الضمير الجماعي للأفراد، وإنما للعرف قوة إلزام ذاتية مستمدة من الضرورة الاجتماعية التي تفرض وتحتم وجوده حين لا يوجد تشريع أو حين يكون التشريع ناقصاً. فالعرف في الواقع هي الوسيلة الفطرية الطبيعية لكل مجتمع في حكم سلوك الأفراد فيه، وفي التصدي لتنظيم ما قد يستعصي على التشريع تنظيمه أو ما يتأخر التشريع عن تنظيمه. (عالية، المرجع السابق).

ثامناً: نماذج من العرف في بعض المجتمعات:

إن دراسة بعض النماذج المتعلقة في العرف لبعض المجتمعات يعطي الدارس تصوراً عن ثقافة المجتمع ونوع الثقافة السائدة فيه. وإذا أردنا أن نقيس ثقافة أي مجتمع فلا بد من دراسة العوامل العامة في المجتمع من دخل وتعليم وإنفاق ولهجة وغير ذلك، وكذلك دراسة العوامل المعيشية لأفراد المجتمع من نوع المسكن،

واللباس والطعام وتربية الأولاد والزواج بالإضافة إلى دراسة العوامل الترويحية السائدة في المجتمع من القراءة والرياضة وسماع وسائل الإعلام، وغير ذلك. وبهذه الدراسة نستطيع أن نحكم على العناصر الثقافية السائدة في المجتمع وبما أن العرف، كما هو معلوم من العناصر الثقافية، فإنني سأذكر بعض النماذج العرفية السائدة في المجتمعات مبيناً الأيديولوجية التي يقوم عليها المجتمع، وربط ذلك بالعرف.

أولاً: حضارة الهند القديمة:

من الديانات التي ظهرت في حضارة الهند القديمة الديانة البوذية، وكما هو معلوم أن حضارة الهند تقوم على المعرفة لكسب رضا الخالق، وأن الهنود يعيشون على الزراعة، ورعي المواشي وأن نظام الطبقات سائد في الحضارة الهندية القديمة، كما أنها تهتم بالسلوك القديم والمعرفة الصحيحة، وتنظر إلى العالم على أنه شر، وتميل إلى الرهبنة والزهد الجاد، لذلك فقد قررت الديانة البوذية خمس قواعد خلقية تمثل عرفاً سائداً للبوذية وأتباعها، وهذه القواعد هي على النحو الآتي:

1. لا يقتلن أحد كائناً حياً.
2. لا يأخذن أحد ما لم يعطه.
3. لا يقولن أحد كذباً.
4. لا يشربن أحد مسكراً.
5. لا يقيمن أحد على دنس. (أبو خليل، 1984).

ثانياً: حضارة بلاد الرافدين (البابليون):

❖ البغاء الديني أو المقدس:

عرفت الشعوب القديمة نوعاً من البغاء يعرف بالبغاء الديني أو المقدس، وكانت النساء تتعاطاه تقرباً للآلهة وإرضاء لها، وكان هذا البغاء على نوعين هما:

1. كانت تمارس المرأة مع رجل غريب عنها، وغالباً ما تكون عذراء، وكان يجري إرضاء لآلهة إناث ولمرة واحدة في حياتها. (الزمانيني، 1984).
2. روى "هيرودوت" أن المرأة في بابل كان ينبغي عليها أن تجلس مرة واحدة في حياتها، في فناء هيكل الآلهة "ميليتا" أي "عشتار"، وأن تضاجع غريباً عنها. وكان النسوة يجلس حمرات مستقيمة في الغناء ويمر الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون، فإذا جلست المرأة هذه الجلسة، كان عليها ألا تعود منزلها حتى يلقي أحد الغرباء قطعة من الفضة في حجرها وعليها أن تأخذها مهما قلت لأنها مقدسة.
3. كانت تمارسه النساء لمدة طويلة مع كهان المعبد وزواره، وكان يجري إرضاء لآلهة الذكور، فهي مصر القديمة كان العرف أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة في مدينة (طيبة) العاصمة، وتنذر نفسها للآلهة (أمون)، وكانت تضاجع من تختاره من الرجال إرضاء للآلهة، فإذا أضحت عاجزة عن إرضائه، أخرجت من خدمته بمظاهر التشريف والتعظيم وتزوجت في أرقى الأوساط.

ويفسر علماء الاجتماع ظاهرة البغاء الديني، هي مضاجعة الغريب التي تقوم على الاعتقاد بأنه قد يكون ملكاً على صورة إنسان أو إن بركته تفيض على المرأة إذا ما ضاجعها. والاعتقاد بأن الملائكة قد تظهر على صورة بشر نجده عند العبرانيين والنصارى والمسلمين.

وأما مضاجعة كهنة المعبد وزائريه لنسوة وقفن أنفسهن لخدمة المعبد فيقوم على الاعتقاد بأن هذا العمل إنما يجري لإشباع فهم آلهة الإخصاب الموكلة بإخصاب الحقول والأشجار وازدياد المواليد في الناس والحيوان.

ومما تقدم نلحظ أن العرف السائد في حضارة بلاد الرافدين "البابليون" وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية (البغاء الديني)، مستمد من الأيديولوجية الدينية في المجتمع البابلي كما فسره علماء الاجتماع فيما تقدم.

ثالثاً: الشركس:

❖ الأيديولوجية التي يقوم عليها العرف عند الشركس:

تميز المجتمع الشركسي قديماً بأنه مجتمع عسكري، مما انعكس على ثقافتهم في تربية الأبناء والبنات، خاصة أن الشركس قد تعرضوا لكثير من الغزوات والحروب، فهذه الظروف انعكست على عنصر مهم من عناصر الثقافة، إذ تشكلت الأعراف السائدة عندهم من ثقافتهم الحربية. ومما تجدر الإشارة إليه أن الشراكسة يصفون بصفة الكرم الزائد؛ فهم يقدمون أجود الأطعمة وأحسنها للضيوف. وفيما يلي بعض الأعراف السائدة في المجتمع الشركسي: (باشا، 1912):

1. المهر عند الشركس:

المهر عندهم زهيد جداً، فقد كان فيما مضى عبارة عن قطعة من السلاح أو رأساً من الغنم، مما يعكس ثقافتهم العسكرية، وأما اليوم فإن المهر المعجل قد حدد بمبلغ "مائة وخمسون دينار أردنياً" والمؤجل بمبلغ "ثلاثمائة وخمسون دينار أردنيا" فأصبح المهر بهذه القيمة عرفاً سائداً عند الشراكسة، ولا يحق لأحد أن يتجاوزه لأنه أصبح قانوناً ملزماً، إذا كان العروسان شركسيين.

2. الموسيقى عند الشركس:

يهتم الشركس بالموسيقى والرقص كثيراً ويولونها عناية فائقة، ويتدرب الأطفال الشراكسة على الرقصات منذ نعومة أظفارهم. ومن الأعراف السائدة في هذا المجال، حفلات "الفنطزية" أو "الجوك"؛ إذ تقوم الفتاة بأداء حركات الرقص شبيهة بحركة طائر البجع وهو يسير على سطح الماء برقة متناهية، أما الشاب فيقوم بحركات راقصة شبيهة بحركات الحصان فتتحرك أقدامه على أنغام الموسيقى بشكل إيقاعي. وتدل حركات الرقص عند الشاب والفتاة على تربية الآباء الشراكسة لأبنائهم على القوة والعسكرية والصيد والصبر في تحمل المشاق.

3. الزواج عن طريق الخطف (الخطيفة):

من الأعراف السائدة في المجتمع الشركسي الزواج عن طريق الخطف، وقد يكون الخطف بالرضاء والاتفاق، وقد يكون بالإجبار والإكراه، وفي الحالتين فإن عرف الزواج بالخطف يدل على النسق الأيديولجي السائد في المجتمع الشركسي القائم على الثقافة العسكرية من القوة والفروسية ويدل على حياتهم القاسية التي كانوا يعيشونها في بلاد القفقاس.

رابعاً: القضاء العشائري في الأردن:

تعد الأعراف المصدر الأساسي والوحيد للإجراءات العشائرية التي أملتها ظروف اجتماعية وحياتية تغيرت وتبدلت على الدوام تبعاً لتغير الزمان والمكان، مما شكل بعداً أيديولوجياً للثقافة السائدة في المجتمع العشائري بشكل عام. ويمكن إبراز نموذج واحد على الأعراف السائدة في القضاء العشائري في الأردن على النحو الآتي:

❖ الجلوة في حالة القتل العمد:

من الأعراف السائدة في القضاء العشائري في الأردن "الجلوة" في حالة القتل العمد، إذ يجب جلاء من هم بالدرجة الثانية من قرابة القاتل وهم أخوة القاتل وأولاده، أما الدرجة الثالثة والرابعة من القرابة، فيكتفى بشأنهم بجمل القوم (بعير النوم)، عندما يصلون إلى رأس المجلا (المكان الذي يجب أن يجلوا إليه) يعودون بعدها إلى بلدهم بعد أن يقوموا بدفع ثمن بعير النوم في حينه، ولكن للضرورات الأمنية تطبق الجلوة أحياناً على أقرباء الجاني من الدرجة الثالثة والرابعة، ويعرف هؤلاء الأقارب من خلال العد العشائري الذي لا تجد مبرراً لإجرائه فيما إذا اقتصرت الجلوة على الأقارب من الدرجة الثانية.

❖ البشعة:

من الأعراف السائدة عند البدو في الأردن، أن الشخص إذا اتهم في قضية ما، فإن من حق القاضي أن يحكم عليه (بالبشعة) فيضع طرف المحماسة الحامي على لسانه، فإذا احترق كان مذنباً يستحق العقاب، وإن كان غير ذلك عد بريئاً. (القرالة، د.ت)

نلاحظ مما سبق أن:

العرف عنصر مهم من عناصر الثقافة، حيث يتكون العرف من العادات والتقاليد السائدة في المجتمع، وبالتالي يتشكل العرف الذي يستمد قوته وإلزامه من الضرورة الاجتماعية التي يحتاجها المجتمع.

ويتأثر العرف بالأيديولوجية السائدة في المجتمع إذ تستطيع أن نحكم الأعراف السائدة من خلال الأيديولوجية التي استمد العرف منها قوته.

ومما يميز العرف أنه ينشأ تدريجياً وببطء، فإذا ما تم الاتفاق على القاعدة (العرف) وظهرت الضرورة الاجتماعية لها، أصبح من الضروري أن يلتزم بها أفراد المجتمع، وتأخذ صفة الإلزام والسلطة؛ فيقوم العرف مقام القانون في أغلب الأحيان.

الفصل العاشر

الفن كعنصر من عناصر الثقافة

الفن كعنصر من مفهوم الثقافة

أولاً: الفن والثقافة:

هناك صلة وثيقة ووطيدة بين الفن والثقافة، فكلمة الفن تعني أكثر من مجال، فهي تغطي الفنون التشكيلية، والموسيقى والشعر، والقصة، والمسرح، والرقص، والغناء، وغير ذلك من الفنون التي تهز مشاعر الإنسان، ولكن إذا نظرنا إلى هذه الفنون وجدناها وليدة تفاعل الإنسان مع البيئة وهي حصيلة لانفعالاته وقدراته العقلية، كما أنها تتضمن بطريق مباشر أو غير مباشر أنماط سلوكه، واستجاباته للحياة ونقد هذه الحياة التي يحياها، فإن الفنون بهذه الصفة تحمل في طياتها مقومات الثقافة، أي أنها تحمل الفكر والانفعال والاستجابات العاطفية التي تبين أثر الحياة بكل مقوماتها عند الإنسان.

وللفنون دور إيجابي في تحقيق ثقافة الإنسان وذلك عن طريق الانغماس في العملية الفنية، أو معاناتها إذ يبدأ الشخص بالإحساس والتفكير والتأمل وإدراك العلاقات واكتساب المعرفة والكشف عن الحقائق، وإدراك الكون الذي يحيطه ببصيرة خلاقة، في ضوء هذا كله يعد الفن مجالاً للارتقاء بثقافة الفرد فمن خلال هذا المجال يتحرك الإنسان بكامل كيانه، لا انفصال بين عقله وجسمه، أو بين فكره ووجدانه، أو بينه بصفته كائناً حياً متكاملاً وبين البيئة التي يعيش فيها، ولذلك حينما ينغمس الإنسان في العملية التعليمية في إنتاج الفن. أو تذوقه، فإنه حتماً يتحرك بكل كيانه ليحقق النهاية الخلاقة التي يتم بها الفن (البسيوني، د.ت).

إن الثقافة من الأمور المعقدة التي كثيراً ما أهملت، وبخاصة عند الشعوب المتخلفة، فعندما يتحرك شعباً من الشعوب بحثاً عن لقمة العيش وحدها، ويكون الضغط كله من النوع الذي يصرف أفراد هذا المجتمع إلى البحث عن قوت يومهم، دون أن يجدوا فسحة من الوقت لما هو أبقى من لقمة العيش، أي لا يجدون متسعاً للبحث عن غذاء روحي، ففي هذه الحالة تضمحل القيمة الثقافية، ويتخلف الشعب ثقافياً.

ولذلك فإن الثقافة في الحقيقة ترتبط إلى حد كبير بالرخاء الذي يعم الشعب، ويجعله يشعر باكتفاء ذاتي في شتى حاجات الإنسان الأولية، وعند ذلك يجد متسعاً ليفكر فيما هو أعلى من الحاجات الأولية، إلى حاجات أكثر تعقيداً، تغذي روح الإنسان، وفكره وخياله، وإنسانيته بعامة، أي يلجأ حينئذ لعناصر الثقافة وسبلها.

فالفن في مختلف أشكاله وألوانه معين فياض لا ينضب يغذي ثقافة الإنسان ويحقق له أمله الثقافي الذي ينشده، والفن يفعل ذلك لأنه صورة منتقاة من الحياة، صورة أوضحها الفنان بنظرة مركزة، على هذه الحياة، فقربها للعين غير الواعية، بطريقة جعلت مقومات هذه الحياة تتضح، ويمكن الوعي بها، ولذلك فالفن يصور تصويراً نقدياً مقومات الحياة ويكشف عن عيوبها، ويوجه إلى محاسنها؛ فيستطيع المتذوق للفن والممارس له أن يعكس ما يكتسبه من الفن على الحياة، فيرتقي بحياته بعامة، نتيجة هذه الثقافة الفنية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه.

يقول روجر بيرسون: "باختصار، فإن الثقافة تشكل بيئة الفرد، وتساعد في تشكيل شخصيته" لذلك فإن رسوم الأفراد عياراً وصقاراً إنما تأخذ طابعاً مميزاً نتيجة للتأثير الثقافي في بيئاتهم. فالأثر الثقافي واضح في الأعمال الفنية.

ومن وجهة نظر "بكهام" فإن التراث الثقافي يأتي من خلال المدرس أو الأبوين ويتعلم الطفل الرسم بسرعة نتيجة لقوانين تراثه.

ثانياً: الفن والتأثير الثقافي:

إن الثقافة الفنية هي العامل الأساس المهم في تكوين شخصية الفنان، وتأتي هذه الثقافة من مصدرين مهمين هما:

أ. **الجانب العلمي (التكنولوجي):**

هو الطريقة التي يتدرب عليها الفرد لاستخدام الخامة والإدارة والإفادة من حلول الآخرين، ممن سبقوه في الميدان الفني، وهي ما نسميه بالمهارات.

ب. الجانب الفكري:

هو الثقافة الفنية التي يكتسبها الفرد من خلال الإطلاع والمشاهدة لتاريخ الفن وزيارة المتاحف الطبيعية والمعارض الفنية ومراكز العمل الفني والأفلام، بالإضافة إلى ثقافة الفرد الفكرية بشكل عام.

- ❖ إن معرفة الفنان بميادين العلوم والتاريخ والتراث الحضاري وتعمقه في أصول القيم والثقافة الدينية تجعل مستواه الفكري منطلقاً له ليكوّن فناً رفيعاً يحمل مضموناً فكرياً حتمياً، فالفرد القارئ المطلع الذي يوفق بين المهارة، والثقافة هو فنان من ذوي الكفاءات الفنية العالية، فهو لا يقصر عمله على الصنعة بل يتعداه ليجعل من الصنعة وسيلة له لغاية أبعد منها، الا وهي القيم العليا، الحق والخير والجمال.
- ❖ أما التأثير الثقافي الخاص الذي يعني ببيئة معينة فنجد أن التراث في بلد من البلدان والأمة من الأمم يترك بصماته في نفسية أفراده. فالأطفال في الأردن عندما يرسمون تظهر آثار التراث الأردني في أعمالهم، وتجعل أعمالهم تختلف من أعمال أهل الصين والهند.

إن ما تعهده بالفن والثقافة هو: معرفة الفن كنشاط وتعلمه، ثمّ التعمق الفكري المحلي والعالمي، والإفادة من المعرفة الفنية لخدمة حاجة المجتمع الذي نعيش فيه. والأبعد من ذلك هو أن الثقافة تلعب دوراً مهماً في تشكيل شخص فنياً وفي كل الميادين العلمية (ابو شعيرة، 2006).

ثالثاً: الفن وسيلة الثقافة:

يجب أن نعالج الفن على أساس أنه مادة ترفيهية لشغل وقت الفراغ، بمعنى أنه لا يجب أن يكون شيئاً بديلاً عن العبث.

بل يجب أن نعنى به على اعتبار أنه وسيلة مهمة وأحد المقومات الرئيسة في بناء الشخصية. وهذا البناء لا يتم بشكل متكامل إذا كان كل ما نعني به هذه الممارسة اليدوية الصرفة المفصولة عن الفكر والذكاء، فالفن وسيلة من وسائل الثقافة وعن طريقه تلتئم المعلومات بعضها مع بعض وتتكامل، وكلما حاولنا أن نحدث فصلاً مفتعلاً بين أسلوب الأداء، وبين الناحية الفكرية أو الثقافية، حولنا الفن من مضماره الحيوي إلى وسيلة آلية، ليس لها أثر في بناء الشخصية، إن الفن وسيلة من وسائل الثقافة، وبالثقافة تتغير المفاهيم والعادات، وتدرك المعاني والقيم، وتتصل الشعوب بعضها ببعض من خلال الفن، عن طريقة الرسالة الثقافية التي يحملها التعبير الفني. فيجب أن تهتم بالمعاني وبالقيم وبالرسالة التي بلغها الفن حتى نضمن تأديته لهذه الوظيفة.

رابعاً: التراث الشعبي وعلاقته بالفن:

يشكل التراث الشعبي لكل أمة الوعاء الذي يحوي كل مكونات وعيها التاريخي كله، من فكر وعلم وأدب وفلسفة وفنون وهو بذلك يشكل هوية الأمة ووجدانها، بل يشكل إلى حد بعيد قوام شخصيتها وعنوان بقائها.

ويختلف الدارسون حول تعريف محدد للتراث الشعبي، وهذا يعود إلى أن التراث الشعبي نفسه يعني بالجوانب الاجتماعية والأدبية والفنية، كما يهتم بالمعارف المتصلة بالعلوم الطبيعية مما جعل الدارسون يتفاوتون في نظرتهم حسب خلفياتهم الجغرافية والحضارية والسياسية والثقافية.

ومهما يكن من تعاريف لمفهوم التراث الشعبي فهناك اتفاق واضح على أن التراث الشعبي هو: مجموعة العادات والتقاليد والآداب والفنون والحرف والمهارات، والمعارف الشعبية التي أبدعها وصاغها المجتمع عبر تجاربه الطويلة وهي التي يتداولها أفراد المجتمع ويتعلمونها بطريقة عفوية، ويلتزمون بها في سلوكهم وتعاملهم، إذ أنها تمثل أنماطاً ثقافية مميزة تربط الفرد بالجماعة أو تصل الحاضر بالماضي. وهو بذلك يشكل هوية المجتمع وشخصيته الحضارية. (عمران، د.ت).

ومن هذا التعريف يتضح أنه لا بد لكل تراث شعبي من مقومات أساسية، أهمها الجماعة والمحتوى الثقافي وطريقة التداول والأسلوب الفني الذي تستحسنه الجماعة وتتذوقه. وبذلك تشكل فنون الأداء الشعبي (الفنون الشعبية) أحد أبرز مجالات التراث الشعبي إلى جانب الأدب الشعبي والعادات والتقاليد وغيرها من جوانب الثقافة الأخرى. وتشمل الفنون الشعبية الموسيقى والأغاني، والأهازيج والرقصات، والرزف والحركات المسرحية التقليدية.

خامساً: الموسيقى والثقافة:

تعد الموسيقى إحدى وسائل التعبير الطبيعي في المجتمع، فهي مرآة واضحة للتقاليد والأخلاق السائدة في حياة العصور، ومن ثم تكون على اتصال وثيق بغيرها من سائر الفنون ومتمشية معها.

ومنذ القدم تسلسلت التيارات الموسيقية منذ عهد الأسقف بيروتان الأكبر، الذي طالما كانت أناشيده يرددها المنشدون داخل الكنائس.

ومع ذلك يمكننا أن نقول: إن الموسيقى على غرار سائر الفنون التي على وثيق الصلة بها كالرقص والتمثيل الإيمائي والشعر والمسرح هي من أصل ديني، وتتميز ببروز قوي في إيقاعها بالإضافة إلى أن طابعها يتميز بالمسحة الدينية ويتصل بطقوس معتقداتهم.

وقال نادل: إن المعنى الجوهري للموسيقى كامن في قدرتها على الوجود على هيئة خصائص مبتدعة خارقة للطبيعة.

وعرفت أيضاً أنها: علم الفن الأدق الذي يتناول بعد النغم في الذبذبة دون غيره وبهذا تعد الموسيقى قطاعاً رئيسياً في حضارة الإنسان وهي بذلك ترتبط به في رحلته الطويلة عبرا الأجيال، ومن خلال التطور الحضاري الهائل، في ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف البلدان والجماعات. وتتشكل بالتبعية وفقاً لملامح كل عصر وفكره وأحاسيسه ووفقاً لملامح كل بيئة.

ولقد عد أفلاطون الفن الموسيقي أحد المحركات الرئيسية السامية للبشر. وهي الصدق والحقيقة التي توجد منذ بدء الخليقة ومن خلالها عرف العالم النظام وتحقق له التوازن، ووفقاً لنظرية أفلاطون نجد أن الموسيقى قد خدمت البشرية في تحقيق التوحيد بين أحاسيس البشر ومختلف عناصر الحياة في المجتمع الواحد والمجتمعات المختلفة وتمكنت من التعبير عن الفرد عن الجماعي في تنسيق ووحدة. (اليسي، 1981).

وفي الحضارة القديمة كانت الموسيقى وسيلة رئيسية للعبادة والربط بين الآلهة والبشر... ونشر التعاليم والقوانين والفضيلة والتربية... فضلاً عن استخدامها في الحروب باعتبارها وسيلة توحيد للمشاعر وشحن للأحاسيس ودفع للحركة البشرية وتنظيم لها.. وإلى جانب ذلك؛ فقد صاحبت الرقص الذي كان عنصراً في الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية.

وكان الشرق هو مركز الحضارات القديمة.. وعلى رأسها الحضارة الفرعونية.. إنها روح الشرق التي لا تتغير أبداً، فقد ظلت منبعاً خصباً ومصدراً دائماً لإلهام الكثيرين من عظماء مؤلفي الموسيقى في كل بقاع العالم حتى الآن.

والموسيقى عرفها بعضهم بأنها: هي القيمة التي تنتمي إلى أي عصر كان، تعرض مميزات معينة لحرفية مؤلفها ولنظام تفكيره ولطريقة استعماله ولتنظيم خبراته وما اكتسبه من أحاسيس وانطباعات. (اليسي، 1981).

سادساً: الغناء والثقافة:

لقد أثبتت الرسوم والشواهد الأثرية للعالم القديم أن الإنسان قد غنى وصفق عندما كان يعيش في العصور الحجرية القديمة وكان يقوم بتقليد أصوات الطبيعة وما فيها من طيور وأشجار ومياه جارية، وكان الغناء بدون قوالب وقوانين حيث كان في البداية غناءً جماعياً بدون مرافقة الآلات الموسيقية.

وجاءت الآلات الموسيقية للغناء فيما بعد، فقد ظهرت في بادئ الأمر الآلات الإيقاعية والطبول ثم الآلات النفخية الهوائية ومن ثم الآلات الوترية. وفي الوقت نفسه تعدد المناسبات والأعياد والاحتفالات الرسمية والشعبية العامة والخاصة إلى جانب تعدد أنماط الغناء وقوالبه وطرق أداء الغناء وظهر الغناء الحضري في المدن والغناء البدوي والغناء الريفي.

جاء في الرسالة الخاصة من رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا (القرن العاشر الميلادي من العصر العباسي) الخاصة بالموسيقى ما يلي:

(إن الموسيقى هي الغناء والموسيقار هو المغني والموسيقات هي آلات الغناء والغناء هو ألحان مؤلفة واللحن هو نغمات متواترة والنغمات هي أصوات متزنة والصوت هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض).

وذكر ابن خلدون في (مقدمته) فصلاً في صناعة الغناء:

(هذه الصناعة هي تلحينة الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعة فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة.

وقد عرفه آخرون بتعريف يلخص عدة تعاريف كثيرة وهو أن الغناء: الكلام واللحن والأداء. (النابلسي، 2002).

وارتبط الغناء بالرقص الشعبي وبالموسيقى الشعبية منذ القدم وخاصة في المناسبات الاجتماعية والمناسبات المرتبطة بالمواسم وجني المحاصيل، وعلى الرغم من صعوبة الكفاح ومرارته من أجل لقمة العيش المغموصة بالعرق والجهد والكفاح إلى أن ذلك لم يمنع أهل هذه المنطقة من ساعات الفرح في المناسبات الخاصة والعامة، فقد كان لهذه الأغاني الطابع الحماسي كالحث على الرجولة والأقدام والشجاعة.

وأثبتت النصوص المسمارية في العراق القديم وجود الغناء المغنى المنفرد والثنائي والمجموعة وغناء الكورس (فرقة الإنشاء) لغناء (الدور) حسب اختلاف المناسبات والأوقات واختلاف مكان تقديم الغناء سواء كان في المعبد أو في الساحات والشوارع والقصور الملكية أو ساحات المعركة والقتال.

وكان يتم تعليم الموسيقى والغناء لرجال الدين في الألف الثالثة قبل الميلاد في مدارس المعابد السومرية ثم انتقل بعدها إلى مدرسة القصر الملكي بعد حدوث انفصال بين السلطتين الدينية، والدنيوية. وفي الألف الثاني قبل الميلاد ظهرت مدارس متخصصة للموسيقى والغناء.

أما الموسيقى العربية في حقيقة الأمر هي موسيقى البدو في الصحراء والواحات، وكان الغناء قبل الإسلام لا يعدو أن يكون ترنماً بسيطاً ساذجاً يؤديه المغني أو المغنية حسب انفعالاته والتأثيرات إذ كان يمتاز بالبساطة والسهولة في إظهار المعاني.

سابعاً: التمثيل والثقافة:

بدأ التمثيل كفن بطقوس دينية قدّمت على شكل عروض وقد تطورت هذه العروض تطوراً كبيراً من خلال ملاحم الأمم التي تعبر عن ضمير الأمة فالملاحم الهندية أو المصرية أو العراقية التي تعبر عن تاج هذه الملاحم لا شك في أنها كانت البداية للمسرح الديني وتطورت هذه الملاحم وأخذت تقدم في احتفالات الأمم الدينية وفي أثناء احتفالاتها بالنصر على شكل غناء ورقص وحوار وهذه كلها أشياء بدائية لمظاهر درامية نمت تحت الطقوس وترعرعت خلال هذه الاحتفالات. (عبد الرزاق، 2001).

وأيضاً وجد التمثيل البدائي الذي يقصد به محاكاة عملية الصيد والقنص وتجسيد بعض ظواهر الطبيعية عن طريق الرقص والحركة والإيماءات عند الإنسان البدائي.

مفهوم فن التمثيل:

لم يقتصر فن التمثيل في عصرنا الراهن على الهواية أو الموهبة الذاتية في الإبداع أو على ما يتوصل إليه الممثل من نتائج وانطباعات في عمله المسرحي وإنما تجاوز ذلك ليصبح جزء من التخطيط أو التنظيم الاجتماعي والأكاديمي وتشعبت الاختصاصات وتطورت وتعددت المناهج والأساليب واهتم الباحثون بتربية صوت الممثل إلى جانب تأهيله الفكري. وتوجد العديد من أنماط التمثيل المختلفة مثل: التمثيل الصامت، والتمثيل الموسيقي، والتمثيل الحواري (المسرحيات)، والتمثيل الارتجالي، والتمثيل الفردي، والتمثيل الجماعي.

تعريف الفن: وختاماً يمكننا أن نعرف التمثيل بأنه: تصوير أو استنساخ أو تجسيد أو محاكاة للواقع بفعالية وديمومة الحياة ذاتها التي تحدث بشكل عملي محسوس.

الفصل الحادي عشر

الرسم والنحت والتصوير

عمليات إبداعية في الثقافة

الرسم والنحت والتصوير عمليات إبداعية في الثقافة

أولاً: مفهوم الإبداع:

يعرّف شتاين **Stein** الإبداع بأنه: "عملية ينتج عنها عمل جديد يرضي جماعاً ما، أو تقبله على أنه مفيد" ويعرّفه **Simpson** بأنه "المبادرة التي يبديها الشخص بقدرته على الانشقاق من التسلسل العادي في التفكير إلى مخالف كلية" ويعرفه كلوبفر **Klopfer** بأنه "استعداد الفرد لتكامل القيم والحوافز الأولية بداخل تنظيم الذات والقيم الشعورية، وكذلك تكامل الخبرة الداخلية مع الواقع الخارجي ومتطلباته. (صالح، 1986).

من هذه التعاريف يمكن الاستنتاج بأن الإبداع عملية عقلية تعتمد على مجموعة من القدرات تتميز بعدد من الخصائص أهمها ما يلي:

الحساسية للمشكلات.

- الطلاقة.
- الأصالة.
- الجدة **Novelty**.
- التفرد **unique**.
- والمرونة **Flexibility**.

وبهذا يكون الإبداع الفني هو ذلك النتاج في ميادين: الموسيقى، والأدب، والشعر، والقصة، والنحت، والرسم، والتصوير، والفنون المسرحية...الخ، الذي يتميز بالخصائص أعلاه ويشكل إضافة جديدة للمعرفة البشرية في ميدان الفن. (أبو شعيرة، 2006).

ثانياً: الثقافة الفنية:

تسعى التربية الفنية المعاصرة إلى تأكيد الثقافة من خلال دراسة الفن وتعني الثقافة في هذا المجال شمول الخبرة، إذ أن المعرفة والمهارات والاتجاهات، والمفاهيم، تتكامل بعضها ببعض، وتتساق في وحدة تؤثر في سلوك الإنسان وتجعل له خبرة خاصة، وطابعاً فريداً. (البسيوني، 1985).

والثقافة لا تقتصر عادة على المعلومات المنعزلة التي قد يحفظها الإنسان عن تاريخ بعض الأعمال الفنية، ومكان العثور عليها، واسم صانعها، وما إلى ذلك. وإنما الثقافة أكثر من ذلك، فهي تعني كشف قيم سلوكية تهذب الإنسان وتجعل له مبادئ ذات قيمة حينما يسلك، ويتعامل مع غيره، أو يتعامل مع الحياة ذاتها في معيشته في فرحه وحزنه في أعياده ومآتمه، في تقاليده العريقة والحديثة.

والثقافة الفنية هي التي تمكن المعلم من حسن تفسير الأشياء على أسس فنية وجمالية، ومعرفة واعية بالتقاليد الفنية التي نجح الفنان في إنتاجها عبر العصور، ولا يمكن لأي شخص مهما أوتي من الموهبة أن يفسر الأعمال الفنية وسيتمتع بها، ما لم يكون قد ورث في أثناء نموه كثيراً من مقومات التقاليد وأصبحت جزءاً من كيانه.

ولذلك فإن التربية الفنية بحق هي أداة الثقافة الفنية، وحينما تنجح في رسالتها فإنها تؤكد تلك الثقافة، وإذا فشلت فإنها تنتج عادات آلية مرددة ترديداً حرفياً، لا تمكن المتعلم من أن يدرك مغزى حقيقياً لما يراه، ويصبح إنتاجه الفني فاقداً للصفات الذاتية المؤصلة التي كان من الممكن أن تعطي كياناً وقيمة لو هضمت التقاليد.

ثالثاً: أثر الميكنة على (الرسم، النحت، التصوير):

يقصد بالميكنة استقلال الآلات الإلكترونية بإنجاز أو بأداء الأعمال التي كانت اليد البشرية تقوم بإنجازها أو أدائها ذلك أننا مقبلون على نهضة حضارية لها بريق وجاذبية يخفيان وراءها أخطاراً قد تدق على أنظار أولئك الذين يهتفون للحضارة كلما تقدمت خطوة إلى الأمام، أو اكتسحت من أمامها مهارات يدوية فنية رائعة، كان الإنسان يبذل في سبيل اكتسابها والتمكن منها سطراً كبيراً من عمره وقدراً كبيراً من جهده.

فاختراع آلة التصوير قد أضر بشكل كبير بفن رسم الأشكال وتشخيص الأفراد بالقلم أو الفرشاة، لقد كان الكثير من أصحاب الثقافة الرفيعة يعدون القدرة على الإبانة بالخطوط والأشكال والمجسمات سمة أساسية يجب أن يتصف بها الإنسان الراقي، ولكن بعد اختراع آلة التصوير أصبح الحماس للرسم فاتراً؛ لأن الآلة سهلت العمل للإنسان فصار يلتقط صورة الشيء أو الشخص بالكاميرا بدلاً من أعمال رشقه بالأصباغ على الورق. (أسعد، د.ت).

فالكمبيوتر سوق يقدم لوحات تشكيلية غاية في الدقة وغاية أيضاً في التعقيد، بل وغاية في الابتكار، وأكثر من هذا فإن التصوير بكاميرات المستقبل سوف لا يقدم المسطح المدرك فحسب، بل سيقدم المدرك المجسم أيضاً، وبتعبير آخر فإن ما يراد من جمال في هيئة الشيء أو الشخص سوف يتسنى، فإذا ما شاهدت صورة صديقك فإنك ستشاهده بارزاً مجسداً كأنه واقف أمامك.

وبتعبير آخر فإن تصوير المستقبل سوف يغني عن النحت لأن ما تقدمه آلات التصوير المستقبلية سيكون جامعاً بين التجسيد والتلويث الطبيعي في الوقت نفسه بالإضافة إلى سرعة التنفيذ وقلة التكاليف.

ولعل من أهم العوامل التي قللت من أهمية تلك الفنون، باعتبارها وسيلة من وسائل تناقل الخبرات بين أبناء المجتمع الواحد بل ومجتمع آخر وهو ظهور الكتابة الرمزية التي تعتمد على الحروف الهجائية. والجدير بالذكر أن لغة الرسم والنحت كانت قبل لغة الحروف وهي لغة الاتصال ولغة إثبات الأفكار والانفعالات والأحداث، والشاهد على ذلك ما تراه من رسوم هي في الواقع كتابة تصويرية على معابد قدماء المصريين وعلى آثار الحضارات جميعها التي سبقت ظهور الكتابة التجريبية التي نمارسها اليوم.

ومن المؤكد أن إنسان تلك الحضارات القديمة كان متمتعاً بقدرة هائلة على التعبير عن خلده بالرسم والنحت، لقد كان يفكر بالصورة لا بالكلمات، وكانت وحدة المعنى هي صورة لطائر أو لحيوان (كأسد) أو لحيوان مستأنس أو لظاهرة جوية كالمطر، ولا بد أن إنسان تلك العصور كان متمتعاً أيضاً بخيال تصويري هائل قلما يتوفر للإنسان اليوم.

وهذا يؤكد حقيقة حضارية مهمة وهي أن كل اختراع أو تقدم إنما يكون في نفس الوقت على حساب شيء آخر كان بمقدور الإنسان في السابق أن يمارسه ينطلق نحو أدائه بغير جهد أو إرهاق.

كان الخط مثلاً فناً ميسوراً الناس جميعهم بحيث كان أغلب المتعلمين يتقنون فن الخط، ففي البلاد العربية كان الخط بالمدارس مادة ذات أهمية وهيبة، وكان فن الكتابة الخطية يعد ركناً أساسياً من أركان شخصية المثقف.

وبعد انتشار الكتابة بالآلة، والطباعة لم يعد الخط الجميل يشكل ركناً من أركان شخصية المثقف. (ميخائيل، 1984).

وهكذا أيضاً يقال عن الرسم والنحت، لقد عمل ظهور التصوير وصب التماثيل في قوالب إذ يمكن الحصول على مليون صورة من لقطة فوتوغرافية واحدة ومليون تمثال بمجرد صنع قالب واحد على التقليل من قيمة التمرس بالرسم

والنحت، ومن الناحية العملية فإن تعلم الرسم والنحت ليس له فائدة على الإطلاق، إلا إذا كان المرء يتعلم هذين الفنين للاحتراف بمهنة الرسم أو بمهنة النحت، ناهيك أن يتعلم هذين الفنين للمتعة الشخصية باعتبارها هواية يمارسها في وقت الفراغ.

رابعاً: دور الثقافة في تنمية التذوق الفني (الرسم، النحت، التصوير):

لا بد من استنهاض المبدأ التكاملي في التطبيق التربوي وذلك بنقل نقطة الارتكاز من الخارج – أي المنهاج – إلى الداخل إلى التلاميذ.

1. يجب أن يقتصر نظام الحصص بالمدرسة بالمفهوم الراهن على ما يسمى بمواد المهارة، وهي بمنزلة أدوات يستعان بها في تحصيل الخبرات الجديدة أو القيام بعمليات معينة أو في التغلب على مشكلة او أخرى من المشكلات التي تعرضها المدرسة أو المعهد أو الكلية على المتعلمين بها وبالنسبة لما كان متعلقاً بالمواد الفنية فيجب أن ينقسم الوقت المخصص لها إلى نوعين هما: نوع يكون التلميذ أو الطالب متلقياً ومدرباً خلاله. ونوع يكون خلاله الطالب إيجابياً ومبتكراً ومحققاً لذاته. (ميخائيل، 1984).
2. الاهتمام بحجرات الفن بأنواعه كافة في المدارس والمعاهد والجامعات وأن الكثير من معاهد التعليم قد أحالت حجرات الرسم والأشغال والموسيقى إلى فصول وذلك بسبب ازدياد الإقبال على التعليم وارتفاع كثافة الفصول وطبيعي أن تكدس أدوات وخامات وآلات الفن في المخازن، والأحرى أن تظل أماكن تعليم الفن وتذوقه في مأمن من الإغارة عليها مهما كانت الأسباب والمبررات التي تستدعي ذلك.
3. لا بد من الاهتمام بالمؤثرات الجمالية، سواء كانت مؤثرات جمالية تلقائية أم كانت مؤثرات جمالية مقصودة، ويقصد بالمؤثرات التلقائية، ما يمكن أن تضمنه المدرسة من مناخ جميل وما يمكن أن يسود سلوك المعلمين والمشرفين من جمال في كل مظاهر سلوكهم وكلامهم، أما المؤثرات المقصودة فإنها

تتبدى في الموسيقى الجميلة تصافح آذان التلاميذ والطلاب والأفلام السينمائية الثابتة والمتحركة التي تضم المناظر الجميلة واللوحات الرائعة والقيام بجولات إلى المعارض والمتاحف الفنية، واستعراض بعض ما تضمنته تلك المعارض أو المتاحف من لوحات لمدد معينة لوضعها في حجرات الدراسة أمام أنظار التلاميذ.

والقيام بالتبادل الثقافي الفني سواء بين المدارس أو المعاهد أو الكليات على المستوى المحلي أو بين مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا من جهة مدارس البلاد الأجنبية ومعاهدها وكلياتها في شتى أنحاء الدنيا جميعها من جهة أخرى، ومن حسن الحظ أن الفن ليس له وطن ولا يخضع من قريب أو من بعيد للتيارات السياسية المتضاربة.

خامساً: الرسم والنحت والتصوير أداة من أدوات التثقيف:

يجب النظر هنا من زاويتين هما:

الزاوية الأولى: هي زاوية اجتماعية اقتصادية.

الزاوية الثانية: هي زاوية سيكولوجية فردية.

ومن الزاوية الأولى نجد أن (الرسم، النحت، التصوير) لم يعودا ذات قيمة إلا للمحترف لكي يصير رساماً أو نحاتاً أو مدرس رسم أو نحت، لكن من الزاوية الثانية السيكولوجية فإن هذه الفنون تشكل ركناً من أركان تكوين الشخصية نفسه.

فالأشخاص الذين يحسون بعجز عن التعبير بالخط ليرسم شكلاً وعن التعبير بالخامة لينتج تمثالاً، إنما يحس في نفس الوقت بأنه مفتقر إلى جانب مهم ومحروم من مقوم من مقومات الشخصية السوية وحتى أولئك الذين أشاحوا نهائياً بوجوههم عن التمرس بالرسم والنحت فإنهم عندما يقابلون سواهم ممن يتمتعون بالقدرة على الإبانة عما يستشعرون به من عواطف وأفكار بالرسم والنحت

والتصوير ويشاهدونهم وقد أخذوا يرسمون أو ينحتون في سهولة ويسر فإنهم يحسون عندئذ بالحسد والغيرة منهم، ويكون إحساسهم هذا نتيجة حتمية لما يحسون به من قصور عن أن يكونوا مثلهم.

والواقع أن الدلالة (بالرسم والنحت والتصوير) على ما يقصد بها هي أقرب إلى الواقع من الدلالة بالكلمات الرمزية، فشتان ما بين صورة أو تمثال (الأسد) وبين كلمة (أسد) مسوقة في حروف، فلغة الرموز غير مباشرة كأداة تعبيرية، بينما تتخذ لغة الرسوم والتماثيل الطريق المباشرة نحو الإفصاح عن المسمى المقصود، صحيح أن لغة الكتابة هي أكثر خصوبة وأكثر عمقاً من حيث الإبانة عن العلاقات والمفاهيم المجردة، ولكن هذا لا يعني أن هذه اللغة الكلامية أقرب إلى الواقع المحسوس من لغة الرسوم والتماثيل، والشاهد على ذلك أن المعلمين ما يزالون حتى اليوم يستخدمون الرسوم والصور والتماثيل لكي يقربوا لغة الكتابة وما تتضمنه من مفاهيم إلى عقول الأطفال.

ومعنى هذا إن لغة الرسوم والصور والتماثيل أقرب إلى طبيعة الطفولة وألصق بالخبرة المباشرة من لغة الرموز الكلامية وهذا يقودنا إلى الحديث عن الصحة النفسية، فالإنسان عندما ينسلخ عن الواقع البيئي المتعلق بالمحسوسات بشكل مباشر، إنما يكون بذلك انسلخ عن طبيعته وعن عماله المحسوس. (ميخائيل، 1984).

وعندما كلف الآباء والمعلمون الطفل بأن يهجر عالم المحسوسات بسرعة وأن ينخرط في أقرب وقت وأسرعه في عالم الرموز ليتعلم القراءة والكتابة، إنما هو في نفسه الوقت حرمان للطفل من عالمه الحقيقي، وانخراطه في عالم لم يتهيأ له في الواقع، ولم تؤهله له مقوماته النمائية العقلية، وحبذا لو متعت الطفولة وبقيت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومباشرة بالطبيعة أو بما هو قريب من الطبيعة وذلك بتشجيع الرسم والنحت، بصفتها أداة لتقليد الطبيعة والواقع المحسوس والإبقاء على الصلة الطبيعية التي تقوم بين عالم الطفولة التي تمثل في الواقع الحقيقة

الإنسانية غير الزائفة وبين خطها الحقيقي قوية متينة. وهل هناك ما يمنع من الإبقاء على الإنسان في جميع مراحل حياته وهو في ارتباط وثيق بالطبيعة وبما يرمز للطبيعة بطريق مباشرة بواسطة الرسم والنحت؟

(الرسم والنحت والتصوير) ما يزالان في كثير من جوانب حياتنا الطريق الأنجح في تمثيل الواقع للإنسان، فالقادة العسكريون يقفوا أمام تماثيل وأرض تمثل لأرض معركة، وقد نحت لهم قطع هي نماذج للمركبات والصواريخ والمدافع والطائرات، وقد أخذ القائد العام يشرح لضباطه بتلك الوسائل المجسمة المباشرة كيف يهاجم الأعداء؟

وفي الواقع نجد أن التقارير والمحاضرات النظرية غير كافية ولا ناجحة في إيصال المعاني والفنون إلى عقول الضباط المحيطين به، ولكنه يقع على الوسيلة الناجحة والدلالة ذاتها في تلك المجسمات والشيء نفسه وما يقال عن الخرائط التي لا غنى عنها في دراسة الجغرافيا، وكذلك المجسمات والأجهزة والأدوات في تقريب الواقع المحسوس إلى الأذهان.

والحذر من الخط الحضاري السائد والمتزايد انتشاراً هو حمل الناس على أن يلتزموا الجانب السلبي والاعتماد على غيرهم في إنتاج الأشياء لهم. فكثيرون من المثقفين اليوم يشاهدون الرسم اضطلع به أحد المشاهير الفنانين فيعجبون به، أو يزورون أحد المعارض لمشاهدة تماثيل نحات عظيم فيقفون مدهوشين أمام تلك التحف الفنية الرائعة، ولكن هل يحاول أولئك المثقفون تناول فرشاة ألوان ثم يرسمون؟ وهل يحاول بعضهم الإمساك بقطعة من الصلصال لنحتها وفق ما يرغبون من تماثيل؟ إنهم يخشون نقد الناس لهم، وهم الذين لم يجدوا أي تشجيع ممن حولهم للتعبير عن خلدهم بالرسم والنحت.

بيد أن هذا الواقع الحضاري المؤلم لا يحول بضرورة المناداة بمحاربة السلبية الحضارية والبدء بالمدرسة نحثها على إشاعة الإيجابية التعبيرية بين تلاميذها.

الفصل الثاني عشر

الرقص الشعبي وعلاقته بالثقافة

الرقص الشعبي وعلاقته بالثقافة

يعد الرقص الشعبي أحد مكونات الثقافة لكل شعب من الشعوب، فالرقص الشعبي جانب مهم من موروثنا الشعبي؛ لأنه رافق الإنسان حتى أصبح عنصراً أساسياً ملازماً للإنسان منذ الطفولة في جميع مراحل نمو الإنسان، ويبدأ من ترقيص الأطفال مع أمهاتهم، ويتطور ذلك إلى الرقصات الجماعية في جميع المناسبات جميعها من طقوس ومراسم شعائرية وجنائزية فالرقص يرافق الإنسان من المهد إلى اللحد، فهو قديم قدم الخليقة فمنه ما هو للمتعة ومنه ديني تعبدي، واتخذ لأغراض وأهداف نفسية وتربوية؛ لأن لكل حركة معنى معين لذلك المجتمع.

يعد الرقص الشعبي أحد أنواع الرقص، الذي يرتبط بالتاريخ والروح القومية لكل مجتمع لما فيه من حركات تميز كل عنصر عن الآخر. من خلال الثقافة التي يحميها المجتمع والتي تنعكس على نوع الرقص الذي يمارس. ومجتمعنا العربي يزخر بأنواع عديدة من الرقص الشعبي في كثير من المناسبات، بهدف الوصول إلى الراحة النفسية، والتفاعل مع البيئة المحيطة، مما يجعل الإنسان يبذل جهده وطاقته لكي يعبر عن مشاعره وحبه للطبيعة، وما يحيط به من مؤثرات.

والرقص الشعبي من أهم المأثورات الشعبية وأكثرها قرباً للنفس. وأكثرها قدرة على مخاطبة العقل. فالرقص الشعبي عنصر وثيق يمثل حركة البشرية في دورتها الزمانية والمكانية. فهو ليس عاملاً ثقافياً فقط، بل هو عامل وحدة، وعامل إبداع وتوعية في آنٍ واحد من خلال الأسلوب والمضمون ومعناه وأهدافه.

أولاً: مفهوم الرقص الشعبي وعلاقته بالثقافة:

يستخدم هذا المصطلح لوصف كل ما يبدعه الناس من أشكال الرقص المتعارف عليها بين الشعوب، وأشكال الرقص تكون ذات أصول متشابهة تناقلها الناس من جيل لآخر. فالرقص الشعبي هو نتاج الحياة وتُستقى هذه الرقصات من النشاطات التي يمارسها الناس ويدورها تعكس الأعمال التي يقومون بها، مثل

الزراعة، والحرب، والأعياد، والاحتفالات، والطقوس التي يمارسونها، والعادات، والمعتقدات، والتي تعد من نماذج الثقافة التي يمارسها المجتمع.

فالرقص الشعبي يعكس تاريخ الشعوب والأحوال الطبيعية التي تعيش فيها ويطور كل مجتمع رقصاته الشعبية الخاصة به، وبدورها تنتقل من جيل إلى جيل، حسب طقوس معينة تعبر عن ثقافة البلد. (رشوان، 1993).

إن الإنسان البدائي لم يستطع أن ينظم جماعات للخروج إلى الصيد دون طقوس معينة خاصة تربط بينه وبين المجموعة وتوحد صفوفهم، فكان الرقص والحركة التعبيرية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم، لذلك لم يكن الرقص الشعبي والحركة التعبيرية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم، ولم يكن الرقص الشعبي للهو أو للتسلية واللعب بل كان هدفاً يعكس متطلبات الفرد الداخلية معبراً عنها بحركات تعكس في ظاهرها ذوقاً فنياً، وموهبة على درجة عالية من الإبداع، حتى أصبح الرقص مرتبطاً بالعديد من دورات الحياة. (الغاندي، 1993).

وعليه الرقص الشعبي يعد أسلوباً من الأساليب التي يؤديها الفرد من خلال تفاعله مع البيئة من عادات ومعتقدات إلى موروثات تاريخية، ووسيلة للارتباط ومحافظة على كيان الحياة الاجتماعية لأي مجتمع من المجتمعات.

وتظهر أهمية الرقص الشعبي في ارتباطه بالحياة، والإنسان هو المحرر الأساس للعلوم والفنون والحياة، فالرقص الشعبي ليس مجرد حركات رشيقة أو تشكيلات، وإنما هو تعبير عن فكر ومعنى أو عادة أو معتقد. (حسين، 1993).

والرقص الشعبي بعامة هو إبداع الناس، انبثق من نشاطات الناس ليعكس أعمالهم وطقوسهم، ومرآة تعكس تاريخهم، لأن الرقص يكشف لنا عن حقيقة مفادها أن الرقص قديماً يهب الفرح لأرواح الناس، أو عندما يرقصون ينمو الزرق، والفشل في الرقص يؤدي إلى فشل في نقص المحصول كما كان يعتقد الأوائل. (العنتيل، 1987).

والثقافة تشمل كل ما أضافه الإنسان ومجموعة طرائق التفكير والممارسة والفن وأسلوب الحياة، والرقص الشعبي هو الفن الذي يشمل ممارسة الإنسان في الحياة.

إن تعدد المظاهر الفلكلورية في الرقص من أزياء وآلات موسيقية وغناء هي لغة واضحة ترسمها الرقصة من خلال الحركات واللون وهي لغة تفهمها الشعوب جميعها وتتأثر بها وهي سبيل لنشر اللغة وتعميمها، وفي هذا الفن تكمن الإنسانية الخيرة، وتبتعد عن كل ثقافة غير مرتبطة بتراثنا ومصالح وقضايا أمتنا وقضاياها الرقص الشعبي ما هو إلا تعبير عن تلك الثقافة ومكون من مكوناتها.

من المعروف أن فنون الرقص الشعبي يتلون بلون البيئة ويتشكل منها، كما يتأثر الرقص بالأحوال الجوية من حرارة وبرودة ورطوبة وجفاف وطبيعة الأرض، ويتأثر بهيئة الملابس وكل هذه مؤثرات تميز شعب عن آخر وبيئة عن بيئة فمثلاً البرودة في روسيا تؤثر على الرقص الروسي إذ يتميز بالحركة السريعة والقفزات العالية. (المعاضيري، 1986).

ثانياً: أهم الرقصات الشعبية في المناسبات قديماً وحديثاً كعنصر ثقافي:

ترجع أهمية الرقص الشعبي في أي مجتمع إلى انه نابع من الاهتمام المتواصل بماضي وتراث هذا المجتمع وتراثه، وأنه لم يكن وليد ترف فكري أو وسيلة للتسلية وإنما كان غاية يسعى الفرد من خلالها للتعبير بصدق. (العباني، 1990).

فنجد أن المصريين القدماء لم يغفلوا الرقص في احتفالاتهم، لأنهم عدوه تعبيراً عن الفرح، وقد اعتاد الفلاحون ممارسة الرقص عند تقديم بواكير محصولهم إلى المعبود "مين" رب مدينة "قفط" وكان الرقص كذلك أيام الاحتفالات بأعياد المرح والسرور التي تقام للمعبودتين "حتحور" و"باستت".

والقبائل الهندية ترقص من أجل إحضار إمطار الربيع مبكرة، وشبيه بذلك رقص الحرب، والصيد والمتتبع لذلك يجد أثر الرقص في إظهار هوية المجتمع الثقافية، وفي أستراليا يوجد عند السكان الأصليين رقصاً يمثل التطورات فهم يضمنون في الرقصات الحديثة أفكاراً جديدة يحفظون فيها تراثهم وربما لغتهم.

وفي العصر الحاضر نجد الإغريقيين يرقصون للتعبير عن الفرح وعن الحزن، ويرقصون للحب، والبغض، والخصب، وأبعاد الكوارث، وللشعائر الدينية، ويرقصون ما دامت أسرهم بخير، ويفعلون ذلك بحماس، وإتقان ومهارة.

إن تاريخ الرقص الشعبي هو قصة الحياة التي نشأ فيها الرقص ليعكس أساليب الحياة والعادات.

فرقص الصيد يعبر عن مخاطرات الصيد، والتوفيق الذي يصادف الصياد وأما رقصات الحرب فقد ظهرت متأخرة عندما بدأ الإنسان يذهب إلى الحرب وأصبحت هذه الرقصات هدفها الأول إثارة القتال لدى المحاربين.

أما رقصات الخصب فالباعث فيها الاعتقاد بزيادة خصوبة البذور وزيادة الغلة، وهناك رقصات أخرى نابعة من البيعة التي يعيشها الإنسان والتي تنم عن ثقافته التي يمارسها ومنها:

1. رقصات الخصب:

لقد ظهرت هذه الرقصات في الشمال الشرقي في أسبانيا، فهناك نساء يرقصن حول تمثال لمذكر، وهناك اعتقاد قديم بأنه إذا قامت عذراء عارية بأداء الرقص الشعائري المعين في الربيع وخاصة عند الفجر، فإنها بذلك تفتك بالآفات الزراعية.

إن العري لم يكن ظاهرة مثيرة عند المصريين فقد كن يعملن بعريهن على طرد الأرواح الشريرة، وكان الملك يرقص في أعياد الحصاد إكراماً للمعبود "مين" إله الخصب.

وذكرت "مارجريت مرى" بأن الحركات الراقصة التي يقوم بها الأطفال الأوروبيون هي استمرار لرقصات الخصب القديمة، وذكرت أن هناك رقصات يظهر فيها صوت العاصفة الرعدية ويسمى برقص العاصفة، وتستمر طقوسها المختلفة حتى تأخذ العاصفة بالاقتراب ويسقط المطر فيرتفع صياح الراقصين وهناك الرقصات الاحتفالية أو رقصات المواكب من أجل زيادة الخصب، وما تزال الرقصة الاحتفالية موجودة في أوروبا.

وظل الرقص الجنسي من أجل زيادة الأولاد في بريطانيا حتى وقت متأخر حوالي 1282م، وكان القس يقود أفراد أبرشيته في الرقص. (العنتيل، 1987).

2. الرقص الجنائزي:

نشأت هذه الرقصات في مصر القديمة، وتقوم بها كل من الرجال والنساء ولكن رقص الرجال يختلف عن رقص النساء، فكانت النساء تعزف على الموسيقى في الموكب، ويلوحن بالأغصان، أما الرجال فيسيرون بخطوات هادئة، والهدف من الرقص إدخال السرور على روح الميت، وطرد الأرواح الشريرة التي تؤذيه.

وهناك رقصات كانت تؤدى في الكنيسة في بريطانيا إلى ما قبل الحرب الأهلية تعود أصلها إلى الرقص الجنائزي، وهناك ما يوحي أن هذه الرقصات نشأت من شعائر وثني، والهدف منها إيقاظ الموتى، والقدرة على التناسخ، فكانوا يعتقدون أن روح الطفل الميت قد تعود فتتقمص الأم وتولد مرة أخرى، فكانوا يضعون لحد الطفل تحت أرضية غرفة الجلوس أو تحت عتبتها، متخذين تلك الرقصات من خلال محتوى المجتمع الثقافي.

3. رقصة الضحية:

من أمثلتها رقصة المسيح مع حوارييه "مونتاجيو، ويعقوب، وأبو كرافا" والترنيمة في هذه الرقصة تعبر عن آلام المسيح وصلبه، فالحواريون يلتفون حوله راقصون ومجيبون في نهاية كل ترنيمة بقولهم "آمين" هذا عن المسيحيين الأوائل والراقصين من الرجال.

4. رقصات النصر:

ومن أمثلة ذلك ما ذكره فوزي العنتيل أن في الكتاب المقدس ذكر لهذا النوع وأقدم هذا نجده في "(مريم أخت هارون) وقد أخذت دفاً وخرجت النساء خلفها يحملن الدفوف وهن يرقصن".

وذكر (العنتيل) ما يمت بصلة إلى هذا استقبال أهل المدينة للرسول (صلى الله عليه وسلم) عند هجرته إلى المدينة ويرددوا طلع البدر علينا...

ومن رقصات النصر ما حدث في السودان في أثناء حملة كتشنر على السودان سنة (1897) فقد خرجت النساء للقاء شاول لأنه خلصهم من العدوان فأخذن يزغردن للنصر.

5. رقصات الحرب:

انتشرت في أنحاء العالم لإيقاظ الروح القتالية لدى المحاربين. وهو تدريب عضلي، وتحرك بانسجام، وهذا الرقص خاص بالرجال وهي موجودة إلى اليوم في أنحاء ايرلندا ويتكلمون اللغة السيلتية، وتصاحبها بكانيات يعرفها الناس وينفعلون معها.

6. الرقصات الدينية:

هذا النمط من الرقص ما يزال يؤدى كعبادة لبلوغ حالة الاتصال الإلهي من خلال بلوغ درجة السمو. ففي القديم كان يتم ذلك بواسطة الرقص، باستخدام الطبول، فالرقص من مصر القديمة جزء لا يتجزأ من الخدمة الدينية. ومن أمثلة الرقص الديني ما نلاحظه في باكستان إذ يتمايل الرأس عند الدراويش.

7. الرقصة البرسية:

كانت تمارس في بلاد الإغريق القديمة، وكذلك الجرمان، وكان أهل السويد يمارسونها في العصور الوسطى، وما تزال موجودة في أوروبا حتى الآن وبخاصة في جزر بريطانيا.

8. رقصة الثعبان:

انتشرت في نيومكسيكو ويراد بها: إنماء الزرع ووفرته.

9. رقصات المشاعل:

نوع من رقصات الطقوس الخاصة بالخصوبة.

10. الرقصة الطقسية:

تؤدى في كاتدرائية اشبيلية وهي باقية من أيام الجاهلية الأسبانية، وكذلك في إنجلترا في عهد الملكة فيكتوريا وهذه الممارسات مختلفة عن الماضي. (كراب، 1962).

11. رقصات كرمس الهولندية:

كانت تؤدى في مواسم البذار، وقد اشتهرت ببعض الفحش مما أدى إلى تحريمها، بسبب كشفهم عوراتهم لتصبح البذور خصبة وغريزة.

12. رقصة الرماح:

اشهر رقصات في ليبيا فهي تعبر عن رحلة لصيد الحيوانات البرية ومضمونها التدريب على الخطط الحربية.

وقسم كل من علي بشير الفاندي، وسامية حسن حسين، الرقص الشعبي في ليبيا في ضوء العادات والتقاليد إلى:

1. **عادات دورة الحياة:**
أ. عادات الزواج هي: الكسوة، والحنة، والنجمة، والكرمود، (المحفل، والهودج، والتحمير).
ب. عادات الميلاد وختان الصبي.
2. **العادات الدينية:**
أ. عادة توزيع الفول والحمص في عاشوراء.
ب. عادة إشعال الشموع والقناديل في المولد النبوي الشريف.
ج. عادة زيارة الزاوية والأضرحة في المناسبات الدينية.
3. **العادات المرتبطة بالموسم الزراعي:**
أ. الرغاطة في الحصاد والدراس.
ب. الرغاطة في حفر الآبار والرغاطة هي معاونة الآخرين.
4. **عادات مرتبطة بالحرف والمهن. مثل: (..........)**

الرقصات التي تؤدى تبعاً للمناسبات السابقة:

1. الرقصة الشعبية في الأعراس: السلطان، والحطابة، والعراسة، والمحارم.
2. الرقصات الشعبية في الختان: رقصات الأطفال.
3. رقصات المناسبات الدينية: مثل رقصة الشيشباني، والدفوف.
4. رقصات المناسبات الزراعية: رقصة الحصادة، والربيع والمطر.
5. رقصة المناسبات التاريخية: النهر الصناعي، وثورة الفاتح، وتحطيم الحدود.
6. رقصات خاصة بالنساء: رقصة الجلوة، ورقصة المحارم، والنخيخ (النقوط).

إن الرقص الشعبي مظهر من مظاهر الثقافة صنعته يد الإنسان وعقله في حياته الاجتماعية، فقد ذكر كلباتريك (Kilpartick) الثقافة بقوله: "هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله في أشياء ومظاهر في البيئة الاجتماعية" وذكر منها اللغة والعادات التي تشملها الثقافة، والتي لها دور فاعل في العملية الاجتماعية وما الرقص الشعبي إلا أحد فروع الفن الذي يعد من مكونات الثقافة التي صنعها الإنسان عبر تاريخه الطويل مما يشتمل عليه من عادات ومهارات اكتسبها.

ثالثاً: القيم في الرقص الشعبي:

1. **القيم البدنية:**

يؤثر الرقص الشعبي في بناء الجسم وتشكيله، واكتساب القوام الجيد، ويرفع من مستوى اللياقة البدنية، والتحمل، والتوافق، وينمي الإحساس بالإيقاع.

2. **القيم الاجتماعية:**

تشجيع الأفراد على ممارسة الرقص من المستويات كافة مما يعمل على اكتساب خبرة العمل مع الجماعة وتوحيد الروابط والصداقة والألفة. فالفرد يتعلم كيف يشترك مع الجماعة، ويتعلم التعاون مع الآخرين للوصول إلى ثقافة موحدة.

3. **القيم الثقافية:**

يعد الرقص الشعبي صورة عن الحياة بجميع ألوانها وخلفياتها الرائعة من خلال الزي والعادات والموسيقى، وهو يرتبط بدراسة الموسيقى واللغات للشعوب الأخرى والأنشطة الدراسية والفنون وهي: (تصوير، وزخرفة، ونحت، وكتابة، وطباعة). وتعد رقصة "العهود الستة" في الصين من أقدم الرقصات، وتشمل ست رقصات تعكس تاريخ ستة عهود بكل ما تحتويها من ثقافة.

4. **القيم الترويحية:**

يعد الرقص الشعبي من أهم مصادر الترويح عن النفس، فالرقص جانب للسعادة والمرح ويزيل الإرهاق والقلق.

5. **القيم الأخلاقية:**

إن الرقص الشعبي يحوي قيماً أخلاقياً، فقد يكون هدفه فض النزاع، أو التعبير عن الشكر، فالرقص الشعبي يعد من أبرز ما ترتكز عليه حركة التعبير عن الذات، تعبيراً عن أصالة الشعب من قيم وأفكار موروثة من الأجداد. (رشوان، 1993).

رابعاً: نماذج من الرقص الشعبي وأهدافه:

بدأت الرقصات الشعبية منذ فجر التاريخ من حيث ارتباطها بالقوى الخفية والسحرية فقد احتفى الإغريق بالرقص وكانت الرقصات الديثورامبية التي تقام تكريماً للآلهة (ديونيسوس) قديمة، وقد أشار أرسطو في كتابه (فن الشعر) إلى أن المأساة الإغريقية نشأت من هذه الرقصات الديثورامبية.

أما الرقص الصيني فله تاريخ مثير فقد أبدع الصينيون القدماء رقصات بدائية كانت تعبر بالتمثيل الإيحائي الصامت والحركات، والحب، وطقوس تقديم الأضاحي والقرابين للآلهة. وتعد رقصة العهود الستة من أقدم الرقصات الصينية التي تعبر عن ثقافة تلك الشعوب.

أما في الهند فكانت بعض القبائل الهندية ترقص من أجل إحضار أمطار الربيع مبكرة، وكذلك رقصة الحرب، والصيد.

أما في النمسا، طور القدماء رقصات شعبية فأصبحت تمارس في المناسبات وأعياد الميلاد والزواج حتى صغار السن يمارسونها فهناك رقصة (اللاندلر Londler) النمساوية وهي رقصات تعتمد على إشارات الغزل.

أما في إيطاليا فتمارس رقصة شعبية لعلاج الأمراض مثل رقصة "الترانتلا" باعتبارها وسيلة لعلاج عضة العنكبوت، أو للحصول على محاصيل شعبية أو لكسب معركة.

وفي اسكتلندا فتجري رقصات شعبية باستخدام السيوف من أجل الانتصار في معركة.

وفي العصر الحالي فيرقص الأفريقيون للتعبير عن الفرح، والحزن، ومن أجل الحب، والبغض، والخصب، وأبعاد الكوارث، وأداء الشعائر الدينية، وما كل ذلك إلا ارتباط ذلك الشعب بثقافة معينة.

أما الإنسان العربي فما يزال يمارس الرقص بغرض الترويح عن النفس فقد كان الرقص مواكباً لحياته وتاريخه وأفراحه وأحزانه، وعاداته وتقاليده المرتبطة بالإنسان العربي.

ففي فلسطين ترقص الدبكة على أنغام الموسيقى وينزل للساحة الشبان وقائد للدبكة، والتلويح بالمنديل، فكل حركة لها دلالتها الثقافية إذ تشتمل على:

1. القفز إلى أعلى فجذوره البدائية الرمز إلى نمو الزرق وارتفاع وعلو الشعب وعلو الوطن.
2. دق الأرض إذ إن جذوره بدائية ترمز إلى محاولة طرد القوى الشريرة وتطور فأصبح يشير إلى قوة الشعب والثقة بالعودة إلى فلسطين.

لقد اتخذ الرقص منذ القدم وسائط لأغراض وأهداف نفسية وتربوية، لأن لكل حركة أو إيماء تعبير خاص فهذه الإيماءات تعني معنى معين وكذلك الحركة فالرقص يستمد مادته من القصص التراثية والأساطير، فلكل رقصة مدلولها الخاص بها وهذا ما يسمى حديثاً بالرقص التطبيقي المستمد من التراث.

مما سبق نلاحظ أن الرقص الشعبي يتضمن مجموعة من القيم والمأثورات فكل ما يصدر عن الشعب هو إبداع، من خلال ممارسة الطقوس والمراسم ومعتقدات وعادات وتقاليد وأشكال تمثل تفاعلاً مع الكون وإبداعات على مر العصور مما عبر به الحس الجماعي فتفاعل وتداخل مع الثقافات الأخرى وتناقل عبر الأجيال حتى وصل إلينا.

والتراث الشعبي تراث متنوع في المكان والزمان يعبر عن أعماق الوجدان فهو عامل ثقافي وعامل إبداع.

وفنون الموسيقى والرقص الجماعي، من أوسع مجالات الفنون الشعبية لأن كل فرع منها يتسع لميادين عدة.

فالرقص الشعبي يعكس أعمال الناس وأنشطتهم من خلال الرقصات التي تؤدي في المناسبات المختلفة، فالرقص يختلف باختلاف المجتمعات فهو نتاج الحياة بما تمتاز به من أصالة وعراقة وبما تتضمنه من معانٍ وأفكار وقيم تعبر عنها الحركة الراقصة، وهي مهمة في التعبير عن المجتمع من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وعليه؛ فق تعددت الرقصات قديماً وحديثاً، ولكل رقصة تؤدي محتواها الخاص بها في ذلك المجتمع.

ومن أهداف الرقص الشعبي التعبير عن العادات والتقاليد السائدة في المجتمع، فالعادات الشعبية هي تعبير عن واقع إنساني اجتماعي، والرقص الشعبي البيئة الواقعية الاجتماعية، عن طريق التعبير في صورة أشكال أو رموز أو أفعال، فهو من حيث الشكل علامة التطور، والثقافة، والتاريخ في المجتمع، وهو أداة في تحليل السلوك الاجتماعي، لأن فيه رموزاً من رموز النصر، والحرية، والانتماء، والشجاعة، التي يبثها في المجتمع، فهو يلعب دوراً بارزاً في تجسيد العادات والتقاليد وتدعيمها ويزيد العلاقة بين الفرد والمجتمع.

الفصل الثالث عشر

الثقافة من زاوية الرواية والقصة القصيرة والشعر

الثقافة من زاوية الرواية والقصة القصيرة والشعر

أولاً: الثقافة والمعايير الجمالية:

يتميز الإنسان عن الحيوان –كما ذكرنا– بالثقافة، ومجموعة القدرات التي يمكن أن تُعزى لأي حيوان، ليست ثقافة، ويرى –بريماك– أنّ الشمبانزي –مثلاً– يتعلّم تعلّماً قائماً على المحاكاة، فهو يمارس شكلاً من أشكال التدريب الذي لا يتضمن معياراً جمالياً. لكن التربية لدى الإنسان تشتمل على تقييم جمالي معقد، فالبشر فقط هم الذين يملكون معياراً جمالياً يقيمون على أساسه السلوك.

وإذا استخدمنا لغة بريماك نقول: إن نتائج التربية تتمثل في قدرة البشر على نقل معيارٍ جمالي. وفكرة المعيار الجمالي يفهمها بعض المفكرين على أنها الثقافة التي ينفرد بها الإنسان.

ولا شك في أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عددناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع (بن نبي، 1984).

والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال. بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة. فينبغي أن نلاحظه في أنفسنا، كما ينبغي أن نتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا، مسحة الجمال التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي.

ثانياً: الثقافة والأدب:

يشكل الأدب في أمة من الأمم جزءاً من ثقافتها. والثقافة من الناحية الأدبية، هي مجموعة الخبرات النظرية في القضايا الأدبية. وهذه الخبرات النظرية تخص كل الفنون الأدبية وتدرس كل هذه الفنون تفصلها، وطرائق الإبداع فيها، والفروق النوعية بين الأنواع الأدبية كالفروق التي تميز بين فن الشعر وفن الرواية وفن القصة القصيرة.

وهناك ما يخص الخبرات التي تلزم المبدع في إنشاء النص والتعمق فيه، حتى يستطيع أن يؤسس النص الإبداعي الذي يغري القارئ بجماله ولغته وبنائه الفني.

وهناك – بالإضافة إلى ما تمت الإشارة إليه – خبرات أخرى تلزم القارئ أو الناقد أو المستمع لتذوقه هذه الفنون والتفاعل معها، وتفسير الإبداع والجمال فيها.

ثالثاً: الثقافة وفن الرواية:

في الحديث عن الثقافة، يعنينا كثيراً الحديث عن الفكر الروائي، ونحن بحاجة إلى تأمل هذا الفكر الذي يملأ جنبات حياتنا حاضراً وماضياً، لنستخرج العبرة، ويكون لنا منهجنا النقدي وصولاً إلى إلى عقلانية التفكير، ذلك أن الفكر الروائي تدخل في لحمته قدرات الإنسان على التخيل والتفسير والتأويل، فالبشر لديهم قدرات فعّالة تمكنهم من الابتكار والفهم والعمل وسط كم هائل من التعقيدات والتفاعلات البشرية المتعددة الجوانب والتي تحدث عن مدى فترة زمنية طويلة. فالفكر الروائي لا يتألف فقط من سرد القصص، بل يتكون أيضاً من فهم شبكات معقدة من الأفعال والمواقف: (اين بني، (1984).

وغادرا الحجرة، فقد تسلّمهما جنديان مسطحان، ومضوا جميعاً إلى الدور الأرضي، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السّجان بكشّافه الكهربائي، كأنما ليدلهم على باب السجن. وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوّب ضوءه إلى الداخل، ليهتديا به إلى برشينهما. وأضاء الكشاف المكان، فبدأ متوسط المساحة لمالي السقف، وهو ذو نافذة صغيرة في أعلى جداره، تعترضها القضبان الحديدية. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شابان في هيئة الطلبة، وثلاثة رجالٍ حفاة مشوهي الخلقة. وما لبث أن أغلق الباب، وساد الظلام، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه هما:

- لن أجلس وإلا قتلتني الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين.
- سنضطر إلى الجلوس عاجلاً أم آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت – أدركا بالبداهة أنه لأحد الشابين – يقول:

- لا بد من الجلوس، ليس هو بالشيء السار، ولكنه أخف من الوقوف أياماً...
- هل مكثتما طويلاً؟
- منذ ثلاثة أيام.

وساد الصمت، حتى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

- أسباب سياسية فيما يبدو...

فقال الصوت ضاحكاً:

- صارت الأغلبية للسياسيين في هذا السجن، كنا قبل تشريفكما أقلية. فسأله أحمد: وما تهمتكما؟
- تكلما أنتما أولاً، فأنتما أحدث مقاماً، وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا لحية أحدكما الإخوانية.

فسأله أحمد وهو يبتسم في الظلام: وأنتما؟

- كلانا طالب في الحقوق متهم بتوزيع نشرات هدامة كما يقولون..

فثار أحمد وسأله: أضبطتما متلبسين؟

- نعم.
- وماذا كان في المنشورات؟
- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر).

وفي العمل الروائي لا يمكن الفصل بين الشخصية وبين الحبْكة. لأننا لا نفهم الشخصية إلا على النحو الذي تبتدى لنا فيه خلال فيض الأحداث. كما أننا لا نفهم الحبكة إلا باعتبارها نتيجة مترتبة على فعل الشخصيات بما لهم من ثقافات ومعتقدات. ويسلك الناس في الحياة بناءً على هذا الفهم الروائي، ويعملون بطريقة يمكن فهمها بأنها معقولة وفعالة وملائمة، ويعيدون خلق بدائل معقدة من الحياة الاجتماعية.

يقول محمد عبد الحليم عبد الله في رواية "الباحث عن الحقيقة" على لسان: "سلمان الفارسي":

"آه يا رب، رأيت كثيراً من عبادك على رقعة فسيحة من الأرض قليل منهم يعرف الطريق إليك. وكثير منهم عاش يدور في حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهواته... إن نورك الذي يغطي السهل والجبل غير بعيد عن بطون الكهوف ونفوس المخطئين... وها أنا ذا أحسن يا ربي أنك تختص بعظيم أسرارك كل الذين يبحثون عنها، كأنك تسعى إلى من سعى إليك، وتنسى من ينساك. ها أنا ذا في طريقي إليك مرة رابعة... ركبت ومشيت، وجعت وعطشت، وبت في العراء... وليس هذا مناً عليك يا إلهي، ولكنه صلاة في قدس محرابك، فاقبل صلاتي، واهدِ خطواتي...".

والفكر الروائي من منظور تطوري له أهمية كبرى من حيث إنه كفاءة نشطة، إذ إنه يمكن البشر من تشكيل الأحداث أو لنقل المجتمع من طريق الخطط أو المشروعات. بل ويرى البعض أن قدرة البشر على التخطيط ووضع مشروعات بعيدة لا تختلف من حيث الأساس عن الفكر الروائي.

والوعي الروائي له جانب إيجابي فاعل. فالناس يدركون الانفعالات والمواقف من خلال القصة، كما أنها تكون حافزاً للحركة، فالقصص بعبارة أخرى تحقق عنصر الإرادة والنزوع والإبداع، مثلما تستوعب المعرفة والعاطفة.

وكمثالٍ على ذلك نحب أن نسوق جزءاً يسيراً من "نص أجانا" الذي صاغا "بوذا" وأتباعه، إذ يقول "فازيتا" جواباً على سؤال "لبوذا": سيدي، يقول البرهمانيون الآتي: البرهماني يحتل أسمى المراتب، وغير البرهمانيين دونهم، ويمثل البرهماني أكثر المراتب نورانية وإشراقاً. أما الآخرون فهم في ظلام. والبرهمانيون كرماء المحتد إنهم ليسوا من سلالة غير البرهمانيين. والبرهمانيون أبناء براهما، خرجوا من كلمته، وولدوا منه، وهو الذي صوّرهم، وهم ورثته. ولكنك سقطت من أعلى عليين حيث المكانة الأسمى، وانحدرت إلى من هم من السلالة الأدنى... الشحاذين حليقي الرؤوس، وأصحاب العون المأجور، السوء الذين يشبهون شيئاً ينفضه أقرباؤكم من أقدامهم".

ويُدلي "بوذا" بالجواب التالي ذائع الصيت: "حقاً يا فازيتا... هل نسي البرهمانيون ميراثهم؟ ذلك أن نساء البرهمانيين لهن دوراتهن الشهرية، ويحملن وينجبن أطفالهن، ومع هذا فإن هؤلاء البرهمانيين أنفسهم ولدتهم أمهاتهم من أرحامهن... ثم يقال: إنهم خرجوا من فم براهما وبكلمته". وفي الاختصار نقول:

إن فن الرواية يعتمد الحوار السردي الذي يناقش كثيراً من قضايا المجتمع وهمومه، من خلال العلاقة بين أفراد الرواية، ومن خلال تطور هذه العلاقة أدبياً وفنياً بالأسلوب الذي يريده الكاتب، ويظهر الموقف أو الرأي الذي ينتمي إلى ثقافة معينة من خلال حوار الأبطال في القصة وتطور الأحداث وتعقدها بحثاً عن الحل الذي يراه الكاتب مناسباً لإحداث الموقف في الحياة.

رابعاً: القصة القصيرة والثقافة:

تعد القصة القصيرة أقل تعقيداً من الرواية، سواء كان ذلك من حيث حجم المعرفة فيها، أو من حيث درجة التعبير، ومع ذلك فهي، أي القصة القصيرة، تقوم على دعامات فعل القصة القصيرة ذاتها: الشخصية والحدث والعقدة والزمان والمكان والحل.!

فالقصة القصيرة تعالج شريحة أقل من مساحة الرّواية، سواء في بعدها الاجتماعي أو الجمالي أو الثقافي أو الفني أو الزماني..

ولقد حظيت القصة القصيرة "Short Story" باهتمام الأدباء في مختلف بلاد العالم ومنها البلاد العربية.

وتتعدد أساليب تناول قضايا المجتمع وهمومه باعتباره مضموناً قصصياً في القصة القصيرة، وذلك تبعاً لثقافة الكاتب والأدوات المستعملة عند هذا الأديب أو ذاك (أبو نبعة، 2002).

فهناك من يختار الأسلوب الحياتي المباشر اليومي الملموس في التعامل مع شؤون الحياة المختلفة... وهناك من يختار الحيوان مجالاً لتوصيل هم المجتمع... وهناك فريق قد يلجأ إلى التاريخ يعزف من ثنايا ثقافة الأمة نماذج معيّنة.

وفي إطار اتخاذ الحيوان مجالاً لتوصيل هم المجتمع وقضاياه، تدير القاصة إحداث قصتها "القط" الذي يستأسد في الشارع العام، فيتمدد، ويتثاءب، ويرفض الحركة، مما اضطر السيارات المسرعة و"كأن هذا القط يرفض أن ينسج حكايةً جديدة من الركوع لإقدام الصّاعدين للأسر".

ويدخل "محمد الظاهر" إلى الموضوع من بابه المباشر، فيُسمّي الأشياء بأسمائها دون اللجوء إلى الترميز، وبلغة سردية مباشرة أيضاً يلجأ إلى التاريخ يبحث عن منارةٍ لإضاءة الحدث المعاصر، حدث قصة "رجل ورسالة" وهو تحرير فلسطين.

وتمزج القصة بين مستويين تعبيريين: الأول: حكائي سردي، والثاني: استفهامي منطقي.

ففي المستوى الأول يحكي القاص عن البطل صلاح الدين الأيوبي كما تحتفظ بسيرته كتب التاريخ، فقد وحّد العرب المسلمين وقاد جيوشه لمحاربة الصليبيين في فلسطين، فانتصر عليهم، وحرّر البلاد من أعداء الوطن والدين. ثم يروي بعض صفات صلاح الدين، مثل: التسامح والرحمة والعطف، وكيف أنه أرسل إلى عدوه ريكاردوس قلب الأسد طبيباً ليعالجه.

أما في المستوى الثاني، فيعقد المحاجات العقلية، بالحوار الاستفهامي تارة، وبالأدلة العقلية طوراً آخر.

"وحين كنت أسأل معلمي عنهم كان يجيبني"...

الإسلام هو الذي خلّد هؤلاء الناس، وضع منهم أبطالاً قلت: أجل. الإسلام هو السبب، فالإسلام رسالة، والمؤمن الصادق، هو الذي يبذل روحه في سبيل تبليغ هذه الرسالة.

قال: وصلاح الدين.

قلت: كان صلاح الدين يؤمن أن الإسلام لا يمكن أن يقوي ما دام الصليبيون يحتلون ديار الإسلام. كان يعرف أن القدس مثل مكة في القداسة، وأن فلسطين مثل الحجاز، من يفرط بالقدس يفرط بغيرها. لذلك قهر كل المتخاذلين الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين، ثم قام لمحاربة الصليبيين. فحرّر القدس، وأعاد فلسطين إلى ديار الإسلام؟.

النزعة التربوية في القصة القصيرة:

من الطبيعي أن تحفل قصة الطفل القصيرة في البلاد العربية بالاتجاهات والقيم التربوية.

وفي الأردن بشكل خاص نجد أن معظم كتّاب القصة مربّون يمتلكون الخبرة الكافية في ميدان التربية والتعليم بصفتهم معلمين وأساتذة، أضف إلى ذلك طبيعة الثقافة السائدة وخاصة في مجال القيم، تلك الثقافة التي تسند إلى الكبار المسؤولية الكاملة في التوجيه والإرشاد والإشراف.

ففي قصة "صديق أنيس" لفخري قعوار، نرى أن الطفل أنيس يعاني مشكلة نفسية، يمكن تسميتها عدم التكيف، فهو مهموم دائماً لا يقوى على قراءة دروسه، ومما يزيد مشكلاته أن والدته تؤنبه، ومعلميه يلومونه على تقصيره، ولهذا فأنيس منكفئ على ذاته ومحروم من الأصدقاء.

في هذا الجو النفسي الحاد، يلتقي أنيس بصديقته القمر، حيث يلعب القمر الصديق دور المرشد النفسي أو المنقذ بالنسبة له. فيتدرج الحوار بين أنيس وصديقه حتى نرى القمر وقد نجح في إقامة جسر من التفاهم بينه وبين أنيس، فيقول أنيس للقمر: "اقترب مني كي أو شوشك". وهكذا نصل إلى نهاية القصة، وقد حقق أنيس ذاته، وأعاد توازنه النفسي الضائع، وتخلص من عدم تكيفه، وعقد صداقة قوية مع القمر.

فبواسطة الحوار كشف لنا القاص باطن الشخصية شخصية أنيس. أما الخيال فقد ساعد أنيس على الوصول إلى تحقيق الذات، وذلك عن طريق ارتداد أنيس باستمرار إلى ذاته يتعرف عليها من الداخل.

خامساً: الشّعر والثقافة:

الشعر فن يعتمد على الموسيقى، ونقل الموقف الشعوري من الحياة تجاه حادث أو تجربة معينة، وفي هذا المجال يستخدم الفرد خبراته في اللغة والأدب لنقل مواقفه للآخرين.

والشعر الخالد هو الذي ينتمي إلى جذور أمته، إذ يستطيع أن يلتحم بها وبثقافتها، وهكذا تبدأ عملية الولادة الطبيعية للابتكار والإبداع.

ولغة الشعر رقيقة شفافة، قريبة من النفس، مدغدغة للمشاعر، حبيبة إلى القلب. لكن جودة الشعر تحددها عوامل كثيرة منها: رقة الكلمة والصدق الفني، ومرونة الإيقاع وجودته، وانطلاق المبدع من ذاته.

والشاعر المبدع هو الذي تكون لديه قدرة فائقة في امتصاص الخبرات الثقافية والفنية، ثم القدرة على تمثلها وإبداعها بطريقة جديدة. وهكذا فالقصيدة الشعرية الناجحة هي التي تحكي تراث الأمة وعقيدتها وتوجهاتها في الحياة وثقافتها (غانم، 2000).

سادساً: الشعر والثقافة العربية:

نمت الشخصية العربية نمواً قائماً على الاختيار، الذي تدعمه الخبرة وتصوغه التجارب، المعتمدة على توظيف الذكاء بين التأمل والفعل والممارسة والصبر، وكان من ثمار ذلك الاختيار أن وصل العربي إلى اختيار ألفاظ لغته ووسائل تعبيره وتكوين ذوقه، وانتقاء قيمة وعاداته وأعرافه، كما ينتقي الغواص الماهر حبات اللؤلؤ من الصدفات. وهذا المسار هو قمة الصمود والثبات للأمم الأصيلة، الذي يحفظ عليها ذاتها في لحظات ضعفها المادي، أمام الأمم المتقدمة عليها مادياً وحضارياً، ويجعلها تنتظر فرصة ظهورها على مسرح التاريخ الإنساني.

هذا الشعور بالاستقلال الذاتي والنفسي لدى العربي جعله يختار الفن الذي يتناسب مع طبعه وذوقه وإدراكه للحياة، دون أي ضاغط خارجي يدفعه إلى لعبة تقليد الفنون عند غيره، أو الأخذ عنهم على طريقة الأمم الممسوخة التي لا تصدر عن ذاتها، وتعيش عامة على ذوق غيرها.

ولهذا يعد الشعر فناً عربياً خالصاً في الاختيار. رأى فيه العربي مرآه نفسه، يعوضه عن جميع الفنون، ولا تعوضه جميع الفنون عنه. وفعلاً كان الذوق العربي موفقاً في اختياره الفنون الأدبية وبخاصة فن الشعر، لأن هذا الفن مميز عن كل الفنون التي عرفتها الإنسانية.

ولم يجد العرب فناً يفي بالتعبير عن غرض الحياة الكريمة التي يعيشها العربي كفن الشعر، فعبروا من خلاله عن أنفسهم تجاه المواقف جميعها، وملكوا منه عبقرية البيان ودقة الوصف، ما يُغني عن الفنون الأخرى التي ابتدعتها الأمم لنفسها، وبذلك كان الشعر ديوان العرب وكان الأداة التي حفظت على العرب لغتهم وعلمهم وثقافتهم ووحدتهم، واكتشفوا فيه ذواتهم وعبّروا فيه عن مواقفهم وقيمهم. وكان تاريخاً لمشاعرهم وذوقهم وإحساسهم بالحياة.

الفصل الرابع عشر

دور الأساطير في الثقافة

دور الأساطير في الثقافة

أولاً: مفهوم الأساطير MYTHOLOGY:

1. الأسطورة لغة:

اشتقاقها من سطر أي ألف الأحاديث التي لا أصل لها.

أما في قاموس المورد ص (2060) لمنير البعلبكي، فجاءت بمعنى (Myth): أي مجموعة الأساطير المتصلة بالآلة وأنصاف الآلهة والأبطال الخرافيين عند شعب ما.

أما ***Mythial*** فتعني كل ما هو أسطوري وخيالي.

أما في العامية فكل ما لا يقبله العقل وكل شيء خارق نعبر عنه بكلمة أسطوري.

2. الأسطورة اصطلاحاً:

قدمت الثقافات المختلفة لشعوبها عبر الأساطير مفاتيح لتساؤلاتها حول كيفية نشوء الكون وما هي الحياة، ولماذا كان الموت؟ فمن عقائد تؤمن بها الشعوب إلى شخصيات خارقة تكون مثالاً تربى عليها أفرادها كانت الأسطورة أكثر من مجرد قصة ذات طابق مقدس بل هي موضوع اعتقاد يؤمن بها أصحاب الثقافة الواحدة، لذلك تعددت التعاريف للأسطورة ونورد منها ما ورد في معجم العلوم الاجتماعية.

نجد أن الأسطورة حكاية ذات طابع مقدس أو ديني أو اجتماعي أكثر من وصفها ذات طابع فردي أو طابع سردي في موضوع ما، وتهتم بنشأة بعض الظواهر الطبيعية أو فوق الطبيعية أو الثقافية الاجتماعية. (معجم العلوم الاجتماعية).

وذكر السواح (1997) التعاريف التالية:

1. قصة مقدسة تعبر عن إيمان شعب ما وهي ذات مضمون عميق يعبّر عن معانٍ ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان.
2. هي حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي وما يميزها عن الخرافة هو الاعتقاد فيها فالأسطورة هي موضوع اعتقاد.
3. من الناحية الثقافية عدت الأسطورة ظاهرة مهمة في الثقافة الإنسانية على اعتبار أنها [حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الأساسية فيها].

ومن الباحثين من عرفوا الأسطورة ضمن العلوم الإنسانية المختلفة فمنهم من ربط الأسطورة بالتاريخ على اعتبار أنهما ناتجان ثقافيان، ولكن الفرق أن الأسطورة جاءت نتيجة تجل إرادة المشيئة الإلهية والتاريخ تجل للإرادة الإنسانية فكانت الأسطورة سجل لما حدث في الماضي وأدى إلى الأوضاع الحالية والشروط الراهنة.

وربط آخرون بين الفلسفة والأسطورة؛ إذ اهتمت الفلسفة بعالم الأفكار بينما وحدت الأسطورة بين المنظور الغيبي وبين الإنسان وبقية مظاهر حياته لذا قامت الأولى بتكوين مفاهيمها حول ميادينها كالميتافيزيقا وعلم الجمال والقيم بينما عملت الثانية على نقل هذه الأفكار وتنظيمها وصولاً إلى الانسجام الذي يطلبه كل إنسان ليتوافق مع عالمه وثقافته التي يعيش فيها.

ثانياً: خصائص الأسطورة:

لنميز الأسطورة عن غيرها من المفاهيم كالخرافة والحكايات والقصص الفلكلورية لا بد من تحديد خصائص الأسطورة التي منها:

1. **الشكل:** فهو قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حيث الحبكة والعقدة والشخصيات وغالباً ما يجري صياغتها على شكل قالب شعري.

2. **الثبات عبر الزمن:** فالأسطورة تمتاز بأنها ثابتة عبر الزمن فتتناقلها الأجيال طالما ما حافظت على طاقتها الإيمانية في التأثير على الأفراد.
3. **ظاهرة جماعية:** تمتاز الأسطورة بأنها ظاهرة جماعية تعبر عن الخيال المشترك للجماعة فهي تخاطب عواطف الجماعة وتأملاتها فهي ليست نتاج خيال فرد معين بل نتاج جماعة مما يجعلها أكثر تأثيراً في حياة الأفراد.
4. **الشخصيات الخاصة بالأسطورة:** شخصياتها من الآلهة وعندما يوجد الإنسان فإنه لا يوجد إلا مكملاً لأدوار الآلهة.
5. **الجدلية والشمولية:** تتناول موضوعاتها أصل التكوين والأصول الخاصة بمعنى الحياة وسر الوجود والموت والعالم الآخر وكل هذه الموضوعات تثير الجدل لدى الإنسان وتثير التفكير لديه خاصة وهي تشكل عالماً غيبياً بالنسبة إليه يدفعه فضوله بالبحث عنها بشكل دائم؛ لإيجاد إجابات ترضي فضوله وغرائزه.
6. **الصدق في مضمونها:** فأحداث الأساطير تجري في زمن مقدس ومضامينها أكثر صدقاً وحقيقة بالنسبة للمؤمن من مضامين الروايات التاريخية فالرواية قد تصدق أو تكذب ولكن لا أحد ينكر إذا كان بابلياً مثلاً أن الإله مردوخ قد خلق الكون من أشلاء تنين والإله بعل هو الذي وطد نظام العالم بعدما صرع الإله يم.
7. **ارتباطها بالنظام الديني:** كل الأساطير ترتبط بالأنظمة الدينية التي تسود الثقافات وتعمل الأسطورة على توضيح المعتقدات الخاصة بالنظام الديني وإلا فقدت معناها وأصبحت مجرد رواية تاريخية.
8. **القداسة:** الأسطورة لديها سطوة على عقول الأفراد ولا يدانيها سلطة سوى العلم الحديث، فنحن اليوم نؤمن بأن الجراثيم تسبب الأمراض وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة وكان الكفر بمضامينها كفراً بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته وفقداناً للتوجه السليم للحياة. لا يجوز نقل الأسطورة إلا في المناسبات الدينية ولا يقوم بذلك إلا الشيوخ وتسلم إلى الشباب الذين وصلوا عمراً محدداً يمكنهم من استلام الأسرار، أما الروايات والقصص العادية فيجوز نقل روايتها في كل وقت وزمان. (السواح، 1997).

ثالثاً: وظائف الأسطورة:

تخدم الأساطير ثلاث وظائف أساسية هي:

1. الوظيفة الفلسفية:

لم تأت الأساطير من فراغ، إنما جاء وجودها لتصوير وتعليل نشأة الكون وخلق البشرية سواء من العدم أو النشأة لخلق جديد عقب كارثة طبيعية كالطوفان التي حلت بالبشرية لغضب الأرباب عليهم ليأتي بعدها انبعاث الإنسان والحيوان وبذور العالم الجديد وفي المقابل حاول تفسير لغز الموت لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أنه سيموت، لذا فهو يربط بين الميلاد والموت ولماذا لا بد أن يموت وماذا وراء الموت؟ وهل من المقبول أن يموت الأبطال الذين صنعوا الخوارق؟.

2. الوظيفة الاجتماعية:

تمدنا الأساطير بقوانين أخلاقية تتعلق بحياتنا مثل كيف نسلك إزاء بعضنا بعضاً وتوفر لنا ميثولوجيا كاملة عن تعدد الزوجات أو الزوجة الواحدة فالأسطورة تمتد على المكان الذي نحن فيه وتهدف إلى تحقيق انسجام الفرد مع مجتمعه من خلال إيمانه بميثولوجيا محددة.

3. الوظيفة التربوية:

تساعدنا الأسطورة في إيجاد السبل الكفيلة بالعيش في إطار الحياة الإنسانية فهي تربي في داخلنا قيماً ومعتقدات نؤمن بها وتوصلها بطريقة سهلة واضحة تجعل الفرد يعتقد بوجودها لاتخاذها عواطفنا وخيالاتنا وسيلة تؤثر بها على عقولنا. (عبد الله، 2000).

رابعاً: أنواع الأساطير:

تقسم أنواع الأساطير إلى أربعة أنواع هي:

1. الأسطورة الطقوسية.
2. الأسطورة التعليلية.
3. الأسطورة الرمزية.
4. الأسطورة التاريخية.

1. الأسطورة الطقوسية:

ارتبط هذا النوع من الأساطير بعمليات العبادة وخاصة بالطقوس الجنائزية ونجدها واضحة في أسطورة الخلق لدى البابليين وكذلك عند المصريين.

2. الأسطورة التعليلية:

لم تظهر هذه الأسطورة إلا بعد أن وجدت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو موجود في الظاهر فوجد السحر الذي أثار مع الروحانية الرغبة في التفسير والمعرفة. وتقوم هذه الأسطورة بتعليل وجود مظاهر الطبيعة مثلاً من خلال وجود كائنات غيبية لها السبب الواضح في وجودها.

3. الأسطورة الرمزية:

أغلب الأساطير الموجودة الآن في العالم هي أساطير رمزية جعلت الإنسان أكثر قرباً واتصالاً مع الطبيعة ويتضمن هذا النوع خرافات الشعوب.

4. الأسطورة التاريخية:

تشتمل على الخوارق من ناحية لأن بطلها مزيج من الإله والإنسان، فإما أن يكونوا أبطالاً دخلوا أساطير الرموز كأوديب، أو أبطالاً دخلوا التاريخ وطمست أعمالهم كسيف بن ذي يزن. (كامبل، 1999).

خامساً: الأساطير في الثقافة:

تعيش الأساطير في أذهان الناس ولها صلة وثيقة بما يجري في حياتنا الخاصة فتقوم كل ثقافة بنسج معتقداتها مع قيمها المحورية الأساسية على شكل أساطير يتناقلها الناس فيما بينهم ويعلمها الكبار للصغار والآباء للأبناء وتعبر الأساطير في أي ثقافة عن المعتقدات والقيم السائدة في تلك الثقافة.

ومن فوائدها:

1. تشكيل صورة ذهنية عند أفراد الثقافة وتوجه تصوراتهم نحو أهداف معينة وترسم لهم طريقاً محدداً وبتوحيد هذه الصورة تتوحد أهداف المجتمع.
2. تلقي الضوء على الميول الثقافية السائدة في شعب من الشعوب وبتفسير قصصه وأساطيره نتمكن من وصف الثقافة وصفاً دقيقاً.
3. الأساطير تكون صحيحة بالنسبة لمعتقديها إلى درجة تصل إلى إيمان أصحاب الثقافة بها مثل: أسطورة شعب الله المختار.

فالهدف من الأسطورة وهو إدخال الإنسان إلى حياة تعادل عالمه فهي تعمل على تناغم العقل والجسد وتجعل أساليب الحياة متوافقة مع عمليات الطبيعة. (أبو هلال، 1974).

سادساً: نماذج من الأساطير:

تحدثنا في البداية عن وظيفة الأسطورة فمنذ قديم الأزل طرحت تساؤلات عديدة منها: كيف تكونت الحياة؟ وما أصل هذا الخلق؟ وما هو الموت؟ ولماذا يجب أن نموت؟ وابتدعت كل ثقافة أساطير خاصة بها حتى تصل تلك الرسالة إلى عقول أفرادها وعند تحليل الثقافات نجد أن الأساطير واحدة من حيث الشكل والجوهر ولكنها تختلف في طريقة السرد وبعض التفاصيل ومثال ذلك قصة خلق الكون فلو أخذنا هذه القصة من سفر التكوين. لنجدها تقول (البدء خلق الله

السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه ظلام وقال الله ليكن نورتّ فكان نوراً فخلق الله الإنسان على صورته ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا] أما شعب البصارى في غرب أفريقيا فتقول الأسطورة: [أنومويوت صنع كائناً بشرياً اسمه الإنسان أنومويوت صنع بعد ذلك ظبياً سمي ظبياً أنومويوت صنع أفعى وقال لهم الأرض لم تعمر بعد، عليكم أن تعمروا الأرض برفق حيثما تجلسون أنومويوت أعطاهم بذراً من كل الأنواع وقال لهم اذهبوا وازرعوا هذه البذور]. (جوزيف كامبل، ص75).

أما قصة الخلق لدى اليونان: [كل الآلهة وجميع المخلوقات انحدرت من مجرى أوكيانوس، أوكيانوس يحيط بالعالم من جميع الجهات أوكيانوس هو الوالد الذي وهب الحياة.

أما الأم فهي تيثوس... تيثوس التي أنجبت كل أطفاله وقد اختلفت الفلسفة الأورفية مع هوميروس فتخيل الأورفيون الريح ذكراً عاتياً وتوكس تخيلوه الليل على شاكله أنثى سمراء غازل الريح نوكس فمالت إليه تعانقا التقيا وضعت نوكس بيضة فضية اللون في رحم الظلام الدامس فخرج من تلك البيضة أروس أوفانيس الذي بعث الحياة للعالم أروس إله الحب ذلك الإله المجنح الذهبي اللون الذي يحمل في جسده صفات الذكر والأنثى له أربعة رؤوس تارة يخور كالثور وأخرى يزأر كالأسد وأخرى يفح كالأفعى وأخرى يثغر كالحمل –لقد أنجب أوفانيس الأرض وأرونوس السماء وهيايوس الشمس]. (أساطير عابرة للحضارات، 11 – 12).

ولكن قصة الخلق في ثقافتنا هي:

إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وشاءت إرادته وحكمته خلق آدم عليه السلام وزوجه حواء وطلب منها العيش في الجنة وبقيا فترة من الزمن في الجنة على أن لا يقربا شجرة من أشجار الجنة

ولكن الشيطان أغواهما وأكلا منها فحكم الله عز وجل عليها بالهبوط من الأرض يعيشا هناك ومن هنا بدأت الحياة ويدأ العنصر البشري بالظهور (محمد جاد المولى، من قصص القرآن، ص6 – 14، 1978).

فالأسطورة في الشكل واحدة لدى جميع الثقافات أن هناك من خلق السماوات والأرض سواء أكان الإله أو أونوموبوت عند الهنود وقصة الإغواء يقوم بها الشيطان وعند بعضهم الآخر تكون الأفعى هي السبب في إغواء آدم ومن هنا ظهر التقديس الذي نجده في الثقافات فقدس الهنود الأفعى لأنها لعبت دوراً مهماً في أسطورة الخلق وبسبب تغيير جلدها مرة واحدة في السنة مما يدل على قولبة الحياة وتعد كذلك مصدراً لجلب الخير واعتبرت بعض الثقافات المرأة رمزاً للخطيئة، لأنها ساعدت آدم على الأكل من الشجرة أي أننا نؤمن ببعض الرموز ونقدسها ونقدس بعضها الآخر بناءً على أساطير آمنا بها واعتقدنا بها.

حتى أصبحت جزءاً من حياتنا نسردها لأبنائنا دونما شعور أو وعي منها.

ولنأخذ مثالاً آخر وهي أسطورة الطوفان التي تفسر كيف بدأت الحياة وما هو منشأة الحياة، وقد فسرت هذه الأسطورة أصل كل ما هو حي وكيف تم إنقاذ البشر والحيوانات من سلسلة متعاقبة من الكوارث التي أغرقت العالم؟

وتحكي الأسطورة كيف أن الثلج غطى العالم ولم يعد يظهر تحت هذا الغطاء الثلجي سوى قمم الجبال الشاهقة ويقوم الدب بتغطية نور الشمس فتحاول الحيوانات إيجاد وسيلة للحصول على الدفء ويقوم بهذه المهمة الفأر، وتبدأ الحرارة بالتدفق بقوة هائلة من الكيس فتذوب طبقة الثلج ويتنبأ بذلك الوقت رجل أشيب يدعى أتسي بحصول الطوفان فيصنع القارب ويضع فيه كل أصناف الحيوانات، ويقوم القارب برحلة طويلة وتجرب الحيوانات جميعها حظها في محاولة الوصول لليابسة حتى تستطيع الحمامة ذلك.

أما قصة الطوفان في ثقافتنا فتتحدث عن سيدنا نوح عليه السلام الذي عاش بين مجموعة من الناس يعبدون الأصنام وعندما بعث إليهم رسولاً لم يؤمن به إلا شرذمة قليلة فبعث الله سبحانه وتعالى إليه وحياً يأمره بصنع سفينة عظيمة وأمره بحمل زوجين اثنين من كل صنف من المخلوقات على هذه الأرض وسارت السفينة بهم سبعة أيام حتى استوت على الجودي وبذلك بدأت الحياة من جديد. (محمد جاد المولى، ص).

ونلاحظ هنا مدى التشابه بين القصتين بالرغم من اختلاف المسميات وبعض التفاصيل.

أما الأسطورة الأخيرة التي حاول الإنسان أن يجد لها تفسيراً واضحاً فهي الموت. ونرى كيف ساهمت الأسطورة في إيجاد الحلول لإشباع حاجة الإنسان حول تلك الأسئلة التي تدور في عقله.

[ففي سفر التكوين يرجع أصل الموت إلى معصية آدم لأمر ربه بعدم الأكل من ثمار شجرة معينة في الجنة ولكنه أكل منها وبذلك نزل إلى الأرض وحل الموت بالبشرية].

[أما أسطورة الموت عند سكان جزر الأندمان فتوضح أن أحد الأشخاص ويدعى (يارامورد) قد أصبح روحاً بعد موته في حادثه وذلك بعد إلحاح أمه التي طلبت منه أن يذهب بعيداً عن عالم الأحياء ويصبح روحاً ولكن روحه عادت مرة أخرى أخاها الذي سرعان ما توفي من جراء ذلك.

وبذلك كان اتصال الروح بشخص حي سبباً في رفاته ومنذ ذلك الحين دخل الموت للعالم].

وكذلك نرى أن دور القمر واضح في أجزاء أخرى من العالم ففي أفريقيا نجد أن الأسطورة مؤداها أن [القمر أرسل ذات يوم الحرباء برسالة إلى البشر، وقال

لها اذهبي إلى الناس وأخبريهم بالآتي: مثلما أموت أنا ويعيش الأموات فسوف تموتون أيضاً ويحيا الأموات. فقال لها الأرنب ما دمت تمشين ببطء دعيني أذب أنا بدلاً منك وانطلق الأرنب ولكنه عندما وصل إلى البشر غير كلمات الرسالة قائلاً مثلما سأموت فسوف تموتون أنتم وتفنون فغضب القمر وأخذ قطعة من الخشب وضرب أنف الأرنب فشقه، ومنذ ذلك اليوم انشق أنف الأرنب ولكن الناس صدقوا رسالة القمر إليهم – كما نقلها الأرنب – وبذلك حل الموت بالعالم!. (ليبس، 1988).

الفصل الخامس عشر

الثقافة وعلاقتها بوسائل الاتصال والانتقال

الثقافة وعلاقتها بوسائل الاتصال والانتقال

لقد شهد العالم في الأونة الأخيرة تقدماً تكنولوجياً مذهلاً في وسائل الاتصال، وأصبحت الدول المختلفة على الرغم من ترامي أطرافها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من الكرة الأرضية تعيش في عالم متغير وصغير يشهد أحداث الساعة ويتفاعل معها، وقد انعكس ذلك على سرعة التغير الاجتماعي والثقافي وبخاصة الدول النامية.

والإنسان منذ الخليقة يعيش في اتصال دائم مع الآخرين ومع التنظيمات المختلفة الموجودة في المجتمع، وتعد اللغة هي أولى وسائل الاتصال التي يتعلمها الطفل من أسرته والتي تمكنه من الاتصال والتفاعل مع الآخرين، وتساعده في الاندماج مع الكيانات الاجتماعية خارج الأسرة. ومن خلال الاتصال يكتسب الفرد القيم والقواعد التي يتفق عليها المجتمع لتنظيم العلاقات الاجتماعية بين أعضاء ذلك المجتمع، كما أن انتقال هذه القيم واستمراريتها عبر الأجيال يتوقف على أساليب الاتصال بين كل جيل وآخر.

ومن خلال أساليب الاتصال والانتقال تغيّرت الخريطة الثقافية وشهد المجتمع تحولات جذرية للعديد من فئاته، ولعل عمليات التحضير والتصنيع قد أدت إلى سرعة أحداث هذه التغيرات.

ويحاول هذا البحث التركيز على رسم ملامح واضحة للتكامل بين الثقافة وأجهزة الاتصال والانتقال ويأتي ذلك أولاً من خلال الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال والانتقال في المجال الثقافي.

وقد كانت الحركة الاستعمارية منذ بدء نشأتها وتطورها قد أسبغت على بعض الأفكار الاستعمارية صفات علمية، وطوعت هذه الأفكار لتكون حججاً واهية لتبرير توسعها واستغلالها للشعوب المختلفة.

وكانت في مقدمة ذلك الدعوة الزاعمة التي أشارت إلى أن بين الشعوب فوارق عنصرية أو جنسية، وأن هناك شعوباً راقية جنسياً وأخرى منحطة، ولكن تلك الأفكار التي أحلتها الرأسمالية العالمية في موضع النظريات العلمية الثابتة تبين بطلانها منذ حين، إذ ثبت أن ما بين الشعوب من فوارق يعود في أصوله إلى أسباب ثقافية بحتة.

وعلى هذا احتلت الثقافة الموقع الأول في حركة النمو وأمسى التغير الثقافي الإيجابي وحده السبيل إلى تقدم المجتمع الإنساني.

أولاً: مفهوم الاتصال:

لكي ندرك أهمية الاتصال وعلاقته بالثقافة لا بد لنا من الوقوف على معنى مفهوم الاتصال وتعريفه، وقد لامست دراستي هذه العديد من التعريفات ووجهات النظر لمعنى مفهوم الاتصال كل تناوله حسب وجهة نظره أو دراسته، فتناوله علماء الاجتماع والتربية والتثقيف والإرشاد والإدارة، وكل منهم نظر إليه من خلال مجال عمله أو الأهداف التي يعمل على تحقيقها، ولكنها في النهاية تتمحور حول الحقائق التالية:

1. إن مفهوم الاتصال يشير إلى درجة معينة من التفاعل الإنساني بين الأفراد والجماعات ويستهدف تحديد السلوك أو الفعل.
2. الاتصال هو عملية تفاعل بين طرفين إلى أن تتحقق المشاركة بينهما في الخبرة.
3. الاتصال هو عملية تفاعل بين طرفين إلى أن تصير رسالة معينة أو فكرة أو مهارة أو اتجاه.

ومن خلال ذلك نلحظ ما يلي:

1. الاتصال هو عملية؛ والعملية هي مجموعة خطوات متسلسلة مرتبطة مع بعضها بعضاً بحيث تؤدي في النهاية إلى تحقيق هدف أو مجموعة أهداف.
2. الاتصال عملية تفاعل؛ والتفاعل يعني تأثير من جانب وتأثر من جانب آخر أو بمعنى آخر: قدرة المرسل على التأثير في تفكير المستقبل واتجاهاته.
3. الاتصال عملية تفاعل بين طرفين، والمقصود بكلمة طرفين لا تعني شخصين، بل قد يكون بين شخص وشخص أو شخص ومجموعة، أو مجموعة صغيرة ومجموعة كبيرة من الأفراد.
4. الرسالة تعني المعلومات والخبرات والأفكار والاتجاهات، والقيم التي يرغب المرسل في توصيلها.
5. يقوم المرسل باختيار وسيلة من وسائل الاتصال للمستقبل.
6. تعني كلمة المشاركة: الهدف من الاتصال، وهو أن يصبح المستقبل مشتركاً مع المرسل في الفكرة أو الخبرة بالدرجة والمستوى الذي يريده المرسل.

ثانياً: أهداف الاتصال:

يمكن تصنيف أهداف الاتصال إلى:

1. **هدف توجيهي:** يتحقق ذلك باكتساب المستقبل اتجاهات جديدة أو تعديل اتجاهات قديمة، أو تثبيت اتجاهات قديمة مرغوب فيها.
2. **هدف تثقيفي:** ويتحقق هذا الهدف حينما يتجه الاتصال نحو تبصير وتوعية المستقبلين بأمور تهمهم أو بقصد مساعدتهم وزيادة معارفهم.
3. **هدف تعليمي:** حينما يتجه الاتصال نحو إكساب المستقبل خبرات جديدة أو مهارات أو مفاهيم جديدة.
4. **هدف ترويحي:** ويتحقق عندما يتجه الاتصال نحو إدخال البهجة والسرور والإقناع إلى نفوس المستقبلين.

5. **هدف إداري:** ويتحقق ذلك عندما يتجه الاتصال نحو تحسين سير العمل وتوزيع المسؤوليات ودعم التفاعل بين العاملين في المؤسسة أو الهيئة.
6. **هدف اجتماعي:** ينتج الاتصال لزيادة احتكاك الجماهير بعضهم ببعض.

والواقع أن الاتصال قد يجمع أكثر من هدف في آن واحد.

ثالثاً: الاتصال والانتقال كعملية:

الحقائق والآراء والأفكار والمعاني والمهارات والتجارب والأحاسيس والاتجاهات وطرق الأداء المختلفة تنتقل من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى جماعة ومن جيل إلى جيل، وهذه العملية المتمثلة بالنقل والتلقي هي ما يسمى الاتصال والانتقال.

ويؤلف الاتصال شكلاً من أشكال العلاقات بين الناس، وأداة من أدوات المجتمع، ويربط بين أفراده من خلال الثقافة التي تكون نسيجاً يوحّد بين أفكار المجتمع وعقائده وميوله وأنماطه وسلوكه.

ومع أن الاتصال يستهدف في الأساس المشاركة في الخبرة، بحيث تصبح الأفكار والمعاني والتجارب مشتركة أو مشاعة بين أطراف العملية الاتصالية، إلا أنه يؤدي في أحيان كثيرة إلى التأزم والنفرة بين تلك الأطراف.

وعملية الاتصال تشبه عمليات التفاعل في الكيمياء، فقد يؤدي ذلك التفاعل إلى مركب جديد متماسك إذا كانت العناصر المتفاعلة مأخوذة وفق مواصفات محددة ودقيقة، أو قد يؤدي إلى خليط غير متجانس لا يلبث أن يعود بعد حين بعملية بسيطة إلى مكوناته الأولى المتباعدة، فيظل كل عنصر فيه محافظاً على خصائصه الرئيسة.

والاتصال الإنساني قد يمضي على شكل جداول هادئة تنساب مياهها بدقة دون أن تبعث خريراً عالياً أو قد يمضي على شكل سيول جارفة، ولكنه في كلا الحالتين غير قابل للخمود؛ لأنه في كلا الحالتين عملية حتمية لا بد منها.

يعود إلى الاتصال الفضل الأكبر فيما حققته البشرية من تقدم على مدى الأحقاب، وما التاريخ البشري إلا سلسلة من عمليات انتقال الأفكار بين الأفراد والجماعات والأجيال، وانتقال عناصر الثقافة من بقعة إلى أخرى.

ولولا الاتصال بين الأفراد والأجيال لما وجدنا تراث الإنسانية منثوراً على المائدة الكبيرة مثل الزاد تنتقي منه الأجيال المتعاقبة ما يلذ لها وتضيف إليه، دافعة به نحو الثراء والتنوع.

ويبدو أن الاتصال كان أقدم أوجه نشاط الإنسان، فقد رافق الحياة الإنسانية منذ نشأتها على الرغم من أنه اتخذ أشكالاً لا تخلو من التعقيد في البداية؛ إلا أنه كان أساساً للعلاقات بين الأفراد والجماعات الصغيرة، وعاملاً في التغير الاجتماعي والثقافي، وهو اليوم بأسسه ومبادئه ووسائله المعقدة أشد خطورة؛ بسبب سعة التحولات التي تخطوها البشرية في الميادين المختلفة.

رابعاً: مستويات الاتصال:

1. **الاتصال الذاتي: *Infra Personal Communication***: وهو الاتصال بين الفرد ونفسه من خلال الإحساس بمثيرات معينة تحفزه إلى التخيل أو التذكر أو التصور أو التفكير.
2. **الاتصال الشخصي**: وهو الذي يتم بين فرد وآخر أو بين فرد ومجموعة من الأفراد قليلة العدد.
3. الاتصال الواسع: وهو ما يكون بين فرد أو مجموعة من الأفراد وبين جمهور يتميز بالكثرة، وهذا ما يسمى إعلاماً أو دعاية أو حرباً نفسية أو انتشاراً أو غزواً ثقافياً، وذلك حسب مضمون مادة الاتصال وأسلوبها وأهدافها ونظرة المرسل أو المستقبل لها.

وقد يكون الاتصال مباشراً حين يتواجد المرسل إلى جانب المستقبل أو مجموعة المستقبلين، دون استخدام قناة إعلامية، أو وسيطاً بين طرفين يكونان وجهاً لوجه.

وقد يكون الاتصال غير مباشر فيستعين المرسل بوسيط لنقل رسالته إلى الجمهور سواءً كان ذلك الوسيط سمعياً أو بصرياً، أو سمعياً بصرياً في آن واحد.

وقد يكون الاتصال في اتجاه واحد لا يتسنى للمستقبل أن يشارك في العملية الاتصالية إلا من خلال تلقيها كما هو الحال في الراديو والتلفاز والصحافة والرسائل الخاصة.

ومن حيث الجمهور قد نجد اتصالاً محدوداً وآخر غير محدود، إذ يتوجه الأول إلى مجتمع متجانس من حيث مستواه الثقافي، كأن يكون مجتمعاً محدوداً من صيّادي السمك أو زارعي القمح، أو قد يتوجه إلى جمهور غير متجانس فتتواجد فيه مستويات ثقافية متعددة، كما هو الحال في الصحف أو البرامج الإذاعية والتلفازية والأفلام ذات المضامين العامة.

ولكل مستوى من مستويات الاتصال مزاياه وعيوبه، وظروفه وأهدافه. لهذا تعمد مؤسسات الاتصال إلى الاستعانة بهذه المستويات جميعها من أجل تحقيق الأهداف الموضوعة للاتصال.

خامساً: وسائل الاتصال والانتقال:

تقسم وسائل الاتصال والانتقال إلى مجموعتين:

1. مجموعة وسائل الرموز.
2. مجموعة الوسائل السمعية والبصرية.
3. مجموعة الوسائل والأجهزة التي لها علاقة مباشرة بالثقافة.

أولاً: مجموعة وسائل الرموز:

هذه المجموعة تعتمد على الرمز في توصيل الفكرة أو المعنى المطلوب إلى من يهمه الأمر، والرموز قد تكون كلمة، أو عدد، أو حرف، أو إشارة، أو علامة، مثلما اتفق على استخدامها لتدل على معنى معين، أو بمعنى الرموز التي هي علامات أو إشارات أو كلمات يستعملها الفرد ليعبر بها عن المواقف التي عاشها أو الخبرات التي اكتسبها، وتقسم إلى قسمين هما:

أ. الرموز اللفظية.

ب. الرموز غير اللفظية.

وسيقتصر البحث على سرد مجموعة الوسائل اللفظية وهي التي تعتمد على الكلمة المكتوبة باعتبار هذا هو النوع الشائع وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس. ويمكن تصنيفها إلى قسمين:

أ. وسائل لفظية غير مكتوبة مثل: المقابلات، والمحاضرات، والندوات، والمؤتمرات، وحلقات المناقشة، والمحادثات الهاتفية.

ب. وسائل لفظية مكتوبة مثل: الخطابات، والمذكرات، والصحف، والمجلات، والمراجع، والكتب، والقصص،... وغيرها.

مميزات هذه الوسائل:

1. تساعد في عملية اكتساب المعرفة عن طريق الخبرة الهادفة المباشرة التي تعتمد على ممارسة الفرد للواقع ذاته.
2. تساعد هذه الوسائل في المحافظة على التراث الاجتماعي والثقافي.
3. الرموز العامة والوسائل اللفظية خاصة يمكن أن تصلح وحدها في عمليات التفاهم والتعلم التي تدور حول مواقف أو موضوعات مألوفة لمن نتعامل معهم.

عيوبها:

1. لا تصلح وحدها في عمليات مثل التفاهم وغيرها في المواقف الجديدة التي لم يسبق تجريبها.
2. الكلمات أو الرموز ليست بالضرورة أن يكون لها معنى واحد لدى أفراد المجتمع جميعهم.
3. ضرورة الاستعانة بوسائل أخرى مدعمة لها مما يكلف جهداً وأموالاً كثيرة.

أنواعها:

سوف نعرض لأهم وسائل الاتصال اللفظية التي لها أهمية كبيرة في المجال الثقافي:

1. **المقابلات:** تعد المقابلات أحد أهم وسائل الاتصال المهمة التي لا يستغنى عنها، وهي تعني التفاعل اللفظي الذي يتم بين فردين في موقف مواجهة بحيث يحاول كل منهما أن يستثير بعض المعلومات أو التعبيرات لدى الآخر والتي تدول حول خبراته وأرائه ومعتقداته.
2. **المحاضرة:** وهي شرح وتوضيح لفظي لموضوع أو مشكلة يقوم به شخص لديه خبرة في هذا الموضوع لإعطاء جماعة بعض خبراته في هذا الموضوع.
3. الاجتماعات: وهي من وسائل الاتصال التي تتيح الفرصة للأعضاء المشتركين للتفاعل الاجتماعي والمناقشات والحوار وإبداء الرأي، ولذلك فهي تعد واحدة من الوسائل الهامة في المجال الثقافي.
4. **المؤتمرات:** المؤتمر هو مناقشة وتبادل فكري وثقافي بين الأعضاء المشاركين حول قضية أو موضوع أو مشكلة أو مشروع، أو ظاهرة يهتمون بها، أو مرتبطة بظروفهم بقصد التوصل إلى قرارات أو توصيات مناسبة.
5. **الندوات:** هي مناقشة متكاملة بين مجموعة من المتخصصين في موضوع معين وجمهور معين، في جوانب مختلفة إذ يتناول هؤلاء المتخصصين الموضوع من جوانبه كافة.

6. **المناظرة:** هي مباراة كلامية بين طرفين عن موضوع جدلي لكل منهما فيه وجهة نظر تختلف عن الآخر، وذلك أمام جمهور لا يعرف الحل الصحيح، ومن أمثلة هذه الموضوعات: تنظيم الأسرة، وخروج المرأة للعمل، والعمالة المهاجرة.

ثانياً: مجموعة الوسائل البصرية:

وتشمل الوسائل جميعها التي لا تعتمد أساساً على الرمز في توصيل الفكرة أو المعنى المطلوب إلى المستقبل، ولكنها تشمل الوسائل التي تمكن الأفراد من ممارسة أو ملاحظة الواقع أو الشيء ذاته.

وهذه الوسائل متعددة ومتنوعة، فمنها: الرحلات، والمعارض، والبث التلفازي والإذاعي، والحاسب الآلي، والأقمار الصناعية، والبث من الجامعة المفتوحة، والفيديو وغيرها. وسوف نتعرض أولاً لميزات هذه الوسائل وعيوبها.

أولاً: ميزاتها:

1. تتميز هذه الوسائل بتعدد أنواعها وأشكالها مما يتيح الفرصة لاختيار الوسيلة الملائمة.
2. تقدم هذه الوسائل أساساً حسياً لما يرغب التعرف إليه ودراسته.
3. تتيح الفرصة لنشاط الفرد وإيجابيته.

عيوبها:

1. بعض هذه الوسائل لا تصلح بمفردها؛ بل تحتاج إلى موجه ليستعملها.
2. تحتاج هذه الوسائل إلى مهارة ودراية لمن يستعملها.
3. بعض هذه الوسائل يحتاج إلى تكلفة باهظة.

فيما يلي عرض لأهم وسائل الاتصال التي تندرج تحت مجموعة الوسائل السمعية والبصرية:

1. الإذاعة:

كان اختراع الإذاعة قفزة هائلة وواسعة في خبرات الفرد والجماعة، ففي حالة اختراع التلفون والسيارة كانت الحاجة ماسة لمد الكابلات والطرق غير مسافات واسعة، إلا أن الإذاعة جاءت بأداة سحرية تحرر الاتصال من أسر النقل، حيث لم تعد هناك حاجة للطرق والكابلات والكباري. فكل ما تحتاجه هو محطة للإرسال وجهاز للاستقبال، وجاءت الإذاعة لتحرر الإنسان من الشروط الواجبة في عصر النشر والكلمة المكتوبة.

2. التلفزيون:

يميل البث التلفزيوني إلى تقديم المعلومات والمعرفة، فالناس يرغبون في أن تحل المعارف الجديدة محل المعرفة القديمة، وكذلك يرغبون في أن تحل المعلومات الجديدة محل القديمة منها، ويتولى التلفزيون ذلك.

إن الإذاعة بوجه عام استطاعت إشراك الجميع في معايشة تجربة واحدة على الرغم من وجود الحواجز الجغرافية والمسافات البعيدة التي تعبر بنا أيضاً فوق فجوة أخرى تحقق نوعاً جديداً من التجانس داخل المجتمع الواحد وهي الفجوة بين ثقافة الصفوة وثقافة الجماهير، ففي عصر النشر كان الدور الأول الأساس للكتاب لعبور الفجوة بين الثقافتين من خلال إتاحة أفكار الفلاسفة العظام والعلماء الكبار للجماهير، وبهذا كان الكتاب يضفي نوعاً من الثقافة إلى عامة الناس. أما الإذاعة – وبخاصة التلفزيون– فإن تأثيره الديمقراطي كان يمضي في الاتجاه المعاكس، وتدفقت الثقافات الرفيعة طوعاً أو كرهاً.

3. الفيديو:

يعد انتشار الفيديو على الصعيد العالمي أهم ثورة حصلت في ميدان الاتصال السمعي والبصري، فقد تمكنت هذه التقنية الحديثة من التسلل إلى كل الثقافات، فقد أصبح جهاز الفيديو في كل بيت من الأجهزة العادية، وأكبر نسبة سجلتها هذه التقنية في مجال اقتحام كان في دول الخليج العربي إذ وصلت النسبة إلى ما يزيد عن (75٪) من البيوت.

4. الهوائيات الدائرية:

تطوّرت هذه التقنية تطوراً مذهلاً إلاّ أنها كانت أقل من ظاهرة انتشار الفيديو، وهذا أدى إلى ظهور نوع آخر من اللا انتظام في محال الاستقبال، وأصبح المشاهد يستمع ويرى العديد من البرامج التي أثرت بشكل لافت في المجال الثقافي، وأحدثت نوعاً من الخلل في النظام القيم للفرد.

5. الشبكات:

شهدت شبكات الاتصال الحديثة اليوم تحولاً جذرياً، إذ تعد التقنيات الحديثة أولاً مصدراً لتحسين الشبكات التقليدية مثل: إدخال الآلية على شبكة الهاتف، والزيادة في إمكانية نقل المعلومات، وأضف إلى ذلك أن التقنيات الحديثة هي التي كانت وراء إنشاء شبكات جديدة أخرى ذات طابع تقني؛ كشبكات الكلمانية، أو البث الإذاعي المباشر وقد بدأت آثار العصر الجديد وانعكاساته "عصر الشبكات" في الظهور، ولربما كانت علامات تبشر بحدوث انقلابات مهمة في المستقبل.

إن تقنيات الاتصال الحديثة تؤدي إلى التوسع في الفجوة بين البلدان المصنّعة وبين بقية البلدان، فأغلب التبادل الاتصالي يتم حسب المثلث المركب من أمريكا الشمالية واليابان وأوروبا الغربية.

ثالثاً: وسائل وأجهزة الاتصال المباشرة المرتبطة بالثقافة:

تشمل هذه الأجهزة والوسائل كافة المؤسسات المستخدمة من أجل تقديم نتاجات الأعمال بمختلف أشكاله ومحتوياته، سواءً كان ذلك فردياً أم جماعياً ومنها:

1. **دور العرض**: وهي مختلف الأماكن والدور التي تأوي عروضاً لها صلة بالعمل الثقافي، ويمكن تصنيفها إلى أماكن مغطاة وأماكن هواء طلق، وإلى دور متخصصة أو دور متعددة الاستعمال، ويمكن إدراج مسارح الهواء الطلب في هذا الصنف من أجل استخدامها لإيواء نشاطات مختلفة: (موسيقى، ورقص، وغناء، ومسرح، وسينما...الخ).
2. **المسارح**: وهي القاعات المعدة والمجهزة لتقديم العروض المسرحية خاصة، والعروض الحركية بصفة عامة؛ كالباليه، وبعض الألعاب الفنية البهلوانية على سبيل المثال.
3. **قاعات الموسيقى**: وهي قاعات مقتصرة على العروض السينمائية، ولها معدات تقنية خاصة وآلات معينة، وتصميمها يختلف نوعاً من تصاميم القاعات المختصة الأخرى.
4. **قاعات السينما**: وهي قاعات مقتصرة على العروض السينمائية، ولها معدات تقنية خاصة وآلات معينة، وتصميمها يختلف نوعاً عن تصاميم القاعات المختصة الأخرى.
5. **قاعات الفنون التشكيلية**: وهي أروقة عروض الأعمال التشكيلية من صور شمسية، ورسوم زيتية، وبحوث ومحفورات، ولهذه القاعات أشكال خاصة ومعدات تقنية متقدمة وملائمة.
6. **المكتبات**: تعد شبكة المكتبات الجهاز الأساسي والعمود الفقري لكل عمل ثقافي يراد به رواج الفكر والعلم والثقافة بصفة أكثر، والمكتبة هي المكان الأهم الذي يقصده النشئ للتعليم وكسب عيون المعرفة، وقد أطلق عليها المكتبات العمومية.

7. **المتاحف:** وهي مخصصة لجمع الموروث الثقافي والتاريخي، الحضاري والفكري، المادي وغير المادي، وذلك بغية تقديمه والتعريف به، والحفاظ عليه من التلف والضياع.
8. **الإعلام:** كان نموّ الإنتاج الإعلامي الذي طبع عقد الثمانينات مذهلاً جداً وكان مصحوباً بتحولات عميقة على الصعيد الفني والتقني والمؤسسي والاقتصادي والثقافي.

وهذه التقنيات الحديثة أدت إلى تنويع البيئة التحتية للبث والاستقبال وكذلك انتشار الاتصال بجميع أشكاله: السمعي، والبصري، وبنوك المعطيات، والبرمجة. وأصبحت أنظمة الاتصال تحتل مكانة متزايدة الأهمية في الحياة الاقتصادية، وتعد هذه الثورة الجارفة التي عرفتها تقنيات الاتصال مصدر تحولات هيكلية أدت إلى إعادة النظر في النظام الاقتصادي للمؤسسات.

إن تعقد الظواهر الناتجة عن عدد تقنيات الاتصال الحديثة تستدعي اهتمام الباحثين، أما الإشكاليات التي تطرحها هذه التقنيات فهي بدورها متشعبة وتشتمل جميع مجالات الاتصال.

ويفسر التوزيع الجديد الحاصل اليوم في مجال الاتصال السمعي البصري بعدة عوامل منها: ارتفاع كبير في البرامج، وتلاشي احتكار محطات الإذاعة والتلفزة العامة، وظهور استراتيجيات جديدة في مجال الإعلام، واقتصاد جديد للاتصال.

ومما ساهم أيضاً في وفرة البرامج؛ تزايد عدد الأقمار الصناعية التي ساعدت على توسيع مساحة البث وتحقيق أرباح على المستويين الإقليمي والدولي، فقد أطلق في بداية الثمانينات حوالي مائة قمر صناعي في مجال الاتصال.

سادساً: الاتصال والثقافة:

يرتبط أفراد المجتمع بين بعضهم بعضاً بوثاق متين هو الثقافة؛ التي لولاها لما وجدنا سلوكات وتصرفات، وأفكار وعقائد، وعادات وقيم، ومعايير واتجاهات، وقوانين وفنون، وأهداف مشتركة.

وتنطوي الثقافة على المركب الذي يشمل على هذه العناصر كلها، والتي يكتسبها الناس نتيجة الاتصالات المختلفة، سواءً كانت تلك الاتصالات فردية أم جماهيرية.

وعلى هذا، فإن الثقافة تشمل كل ما يتسع للفرد أن يتعلمه ويشارك فيه أعضاء المجتمع، ولا شك في أن ما يتعلمه الأفراد وما يحملونه من أيدلوجيات وقيم ومعارف واتجاهات وانفعالات؛ يؤثر تأثيراً مباشراً على سلوكهم وتصرفاتهم، ولذا فإن الثقافة تمثل نمطاً للسلوك الإنساني.

والثقافة جزء من البيئة التي صنعها الإنسان، لذا فإن كثير من الباحثين لا يقصرون معناهما على الجوانب اللامادية، بل أضافوا لها جانبها المادي الذي أنتجها العمل الإنساني من مبانٍ ووسائل مواصلات، وأطعمة وألبسة وأدوات وغير ذلك.

وحين يختل أحد جانبي الثقافة فإنه يؤثر على الآخر تأثيراً بالغاً، ومن الأمثلة على ذلك ما تتعرض له البلدان النامية التي هيأ لها الثراء المالي أن تأخذ الأساليب الحضارية عن طريق استقدام الخبراء، وإقامة المباني والمنشآت، واستيراد الملابس والأطعمة دون أن يوازي ذلك تطور في الجانب المعنوي للثقافة، فعند ذلك تواجه فراغاً ثقافياً (Cultural Lay)، وهذا يسبب اضطراباً اجتماعياً في أجهزة المجتمع وفي وظائفها؛ كالأسرة والتعليم وغيرها.

ولا شك في أن هذه الظاهرة لا توجه بعض البلدان النامية فقط، بل تتعداها إلى الدول الرأسمالية المتقدمة أيضاً، إذ إن نسبة التقدم التكنولوجي تفوق نسبة التقدم المعنوي للثقافة، ويشير الباحثون إلى أن ظاهرة الفراغ الثقافي أو الهوة الثقافية تتسع شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطراً يهدد استقرار المجتمع، ويؤدي إلى فشل تنظيمه.

1. علاقة الثقافة بالاتصال:

الثقافة المتراكمة على مر العصور يكتسبها الإنسان عن طريق الاتصال، حيث أنها تتميز بطواعيتها على الانتقال من فرد إلى فرد ومن فرد إلى مجموعة أفراد أو بالعكس.

تشكل عمليات التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية ووسائل الإعلام جوهر الاتصال الإيجابي، وتعد التأثيرات الثقافية من خلال وسائل الاتصال أحد أهم نواتج هذه الوسائل ويمكن أن نلحظ من خلال ذلك التأثيرات التالية:

أولاً: العودة إلى قضية الإمبريالية الثقافية:

أشارت دراستان –ساعدت اليونسكو على إنجازها– إلى النتائج الإجمالية للانتشار العالمي للبرامج الإعلامية والوسائل الاتصالية، ففي دراسة أنجزت عام (1983): إن القطاع التلفزي يكرس سيطرة البلدان الكبرى المصدرة على بقية أنحاء العالم. وتشير الدراسة إلى أن أغلبية البرامج المستوردة مصدرها الولايات المتحدة وبدرجة أقل أوروبا.

تؤكد الدراسة أن سيطرة البرامج التي تنتجها الولايات المتحدة الأمريكية لا جدال فيها، وكانت تمثل سنة (1983) أكثر من (40٪) من البرامج التي تستوردها أوروبا الغربية، وأكثر من ($^3/_4$) من جملة البرامج التي تستوردها الدول الإفريقية الست التي شملتها الدراسة من بلدان الشمال هي الولايات المتحدة الأمريكية أساساً ومن المملكة المتحدة.

وأكدت هذه الدراسة على التقدم الملموس للتبادل الإقليمي عن طريق الأقمار الصناعية، وقد ساعدت قضية التقاليد الراسخة بين بلدان أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية على تحقيق هذا التبادل.

واعتنت دراسة أخرى أنجزت بإعانة اليونسكو لتغطية الأحداث العالمية من قبل الصحافة اليومية ونشرات الأخبار في الإذاعة والتلفزة، وكشفت نتائج الدراسة انسجام تغطية الأحداث العالمية، وتحتل البرامج الترفيهية الصدارة في تداول الأدوات السمعية والبصرية، وعدت الولايات المتحدة أكبر مستوردة لهذه البرامج.

هناك بُعد آخر حول تطور الإنتاج السمعي والبصري على مستوى عالمي يكمن في الاتجاه نحو توحيد الأدوات الثقافية وجعلها متجانسة عالمياً.

ثانياً: ظهور أشكال جديدة للثقافة:

إن تأثير الإنتاج السمعي والبصري العابر للحدود على ثقافات بقية مناطق العالم كان موضوع كتابات كثيرة اشتكت كلها من مخاطر انحلال الشخصية الثقافية لتلك المناطق المستوردة، وإحلال الثقافة العالمية محلها.

وأشارت الكتابات إلى مخاطر انتشار أنماط جديدة من المجتمعات ترتكز على القيم المادية وقيم حماية المستهلك، وهو ما يتعارض مع القيم الروحية والأخلاقية للعديد من المجتمعات، فالبرامج المصدرة قد تحمل في طياتها آثاراً واسعة وسيئة، مثل التطلع المتزايد لامتلاك الحاجات الاستهلاكية والنجاح الفردي الذي يؤثر على القيم الجماعية، وكذلك وصول الأفلام العنيفة قد تحمل في طياتها العديد من المخاطر على الشباب، خصوصاً والنتاج هذا يؤثر تأثيراً قوياً على تكوين ذوق الجمهور وجعله يميل شيئاً فشيئاً إلى أفلام العنف والتعود على حياة الرخاء والترف والبعد عن العمل.

إن تحليل الظواهر الثقافية يتضمن إثارة إشكاليات جديدة، لأن انعكاسات التقنيات الحديثة هي ذات طبيعة معقدة ومتعددة الأبعاد، غير أن أغلب الدراسات اكتفت بتقويم الآثار انطلاقاً من تحليل المنتوج الإعلامي تحليلاً أحادياً على اعتبار أن الثقافات المحلية مجرد وعاء متقبل لا حول له ولا قوة.

أضف إلى ذلك أن البحوث قد أشارت أيضاً إلى أن البحوث في مجال الاتصال لم تدعم بعد بالأشكال الجديدة للثقافة المتولدة من تداخل القديم وتفاعله مع الحديث.

ثالثاً: تثاقف التقنيات الحديثة:

تفتح التقنيات الحديثة آفاقاً جديدة لنقل التكنولوجيا، فهذه التقنيات تبقى في أكبر جزء منها بين يدي البلدان المصنعة التي تستأثر نصيف الأسد من السوق العالمية في مجال الاتصال، ولكنها بدأت تتسرب شيئاً فشيئاً إلى بقية البلدان الأخرى.

إن وعي الدول النامية باتساع الهوة بينها وبين بلدان الشمال جعلها تتطلع إلى اقتناء التقنيات الحديثة التي ترى فيها وسيلة من وسائل تدارك تأخرها وعنواناً على الحداثة، فالتقنيات الحديثة هي أفضل فرصة للدول النامية كي تراجع الأنماط التي اعتمدتها في تنميتها؛ بل إنها ترى فيها قفزة تمكنها من الدخول إلى مجتمع الإعلام، ولعل الخاصيات العامة لهذه التقنيات، وكذلك أسعارها الزهيدة، تبدو أنها عناصر إيجابية مهمة لإقبال الدول الفقيرة عليها.

سابعاً: الوظيفة الثقافية لأجهزة التصال وأجهزة الانتقال:

1. **التثقيف والتربية:** تتعلق هذه الوظيفة بنشر المعرفة على أساس تفتيح الأذهان، وتكوين الشخصية، وشحذ الكفاءة، وتنمية الذوق، وتمكين الإنسان على مدى العمر من المحافظة على مقدرته مع استيعاب كل ما ينمي طاقاته، ويوسع آفاقه، ويشبع تطلعه إلى الخير والجمال.

2. **النهوض بالإنتاج الفكري**: وهذه الوظيفة تعنى بنشر الإنتاج في مجال الأدب والفن والابتكار الفكري واليدوي بصورة عامة، من أجل مساعدة المنتج على إطلاق قدرته في الإبداع وتغذية خياله، وتمكينه من السمو بإنتاجه إلى أبعد الحدود.
3. **الترفيه**: تتمثل هذه الوظيفة في تقديم التمثيليات الروائية والعروض المسرحية والأفلام، وفرق الموسيقى والرقص، والرياضة والألعاب وغيرها بالاعتماد على الكتابة والصور والأصوات والرموز بهدف التسلية والترفيه، والمفروض أن ترمي هذه البرامج إلى هدفين: شد السامع، وأخذ العبرة والعظة.
4. **حماية الهوية الثقافية**: تهدف هذه الوظيفة إلى تمكين الثقافات الوطنية من التكامل ومن الإثراء بالاحتكاك بغيرها، وتمكين الأمة من تعريف الرأي العام بقيمها الثقافية والاجتماعية، وجلب الاحترام والتقدير.
5. **صون الذاتية الثقافية من الغزو الفكري الأجنبي** ووقايتها من مخاطر التيارات الثقافية الأجنبية، والذود عن الذاتية هي أداة الوصل بين الأجيال المتعاقبة.
6. **العمل على ترسيخ الديمقراطية الثقافية**: الحق في الثقافة ورد واعترف به الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولذلك فإن من وظائف أجهزة الثقافة العمل على أن لا تمتاز الطبقات الراقية والأقليات المحظوظة بكل إنتاج ثقافي مفيد على حساب الطبقات الأخرى.
7. **اللامركزية والمشاركة الجماعية**: إن المشاركة تتمثل في إسهام المواطن في كل مراحل العمل الثقافي، وإشاعة اللامركزية في هذا المجال وفي ذلك امتداد للديمقراطية الثقافية، والهدف من ذلك الإثراء الثقافي الوطني، وتمكين كافة الفئات والأقليات كافة من إبراز حقها في الوجود الثقافي.
8. **الحفاظ على اللغة وتطويرها**: أجهزة الثقافة والاتصال هما المسؤولان عن هذه المهمة والمحافظة عليها من الاندثار والذوبان، تحت تأثير اللغات الدخيلة والمصطلحات الأجنبية. وهي مطالبة بإثراء هذه اللغة حتى تكون أداة الوصل بين ماضي الأمة وحاضرها، وتبقى قادرة على استيعاب العلوم والثقافات المفيدة.

9. **الإسهام في التنمية:** إن البعد الثقافي للتنمية لم يعد بحاجة إلى تأكيد، وكذلك أصبح إسهام الثقافة بالتنمية أمر لا جدال فيه، فالإنتاج الثقافي غاية ووسيلة، ومن أنبل الوسائل أن تساهم أجهزة الاتصال والثقافة في الرفع من مستوى الإنسان فكرياً والرفع من مستواه مادياً تبعاً لذلك.

ثامناً: الوظائف الخاصة لأجهزة الاتصال والثقافة في العالم العربي:

إن الروابط التاريخية والروحية والحضارية تملي على أجهزة الاتصال والثقافة العربية العمل على ما يلي:

1. خدمة التضامن العربي: ينبغي تركيز الاهتمام على ما يقرب ويوحد، وكذلك نبذ عوامل الفرقة والتباعد، والسعي المستمر للحد من التوتر كلما ظهرت أزمة من الأزمات، والإمساك الدائم عن الهاب العواطف الباعثة على التباغض والتناحر.
2. ينبغي أن تتماشى مع المقتضيات الدينية وتستجيب للرسالة السماوية، وتتجاوب معها فيما تدعو إليه من حرية للتعبير وحماية الكرامة البشرية، فضلاً عن اعترافها لبشر بحقهم في تعدد الآراء وإنكار الاستبداد والظلم والاضطهاد.

وهذا ما يدعونا اليوم ونحن نواجه التحديات الصهيونية، ومحاولات المسخ والتشويه لحضارتنا وقيمنا الروحية والإنسانية إلى مواجهة هذه التيارات بما يتوافر لدينا من وسائل الاتصال والثقافة.

3. يتعين على هذه الأجهزة تعريف الشعوب العربية بعضها ببعض وتعميق روح الإخاء، وذلك بإنتاج برامج وترويج دراسات وثائقية تتناول فيها الواقع التاريخي والاقتصادي وبخاصة الواقع الثقافي.
4. نتيجة لما تعرض له العالم العربي لغزو ثقافي، وتحقق بعض الأهداف نتيجة الحملات الاستعمارية، ينبغي على أجهزة الاتصال مخاطبة الفئات المختلفة وبخاصة الشباب بروح العصر، وإلقاء الضوء على نقاط الضعف والتناقض في المبادئ التي يبثها الغزو الثقافي في العالم العربي والإسلامي.

5. ينبغي على هذه الأجهزة مواجهة التيارات المتطرفة التي تعبث بقيمنا وتعمد إلى تضليل العقول البريئة للمراهقين من أبنائنا.
6. ينبغي على هذه الأجهزة أن تعمل على تدعيم التبادل الثقافي مع العالم الغربي من خلال تعريف الغرب بالقيم العربية والإسلامية الأصلية.

في ضوء علاقة الثقافة بوسائل الاتصال والانتقال نخلص إلى ما يلي:

- ❖ في سياق التفاعل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تتغير عناصر ثقافتهم، ويشكل الاتصال أساساً لهذا التفاعل لأنه وسيلتهم إلى التأثير والتأثر.
- ❖ كان لوسائل الاتصال دورها في انهيار قيم المجتمعات التقليدية، وسيظل لها دورها الكبير في تداعي الكثير من القيم والأفكار وأنماط العمل والتقاليد التي لا تتوافق مع إيقاع العصر.
- ❖ وسائل الاتصال باعتبارها جوهر الثقافة هي محرك كبير للتغير، وإذا ما استخدمت استخداماً إيجابياً فإنها ستؤدي إلى توجيه التغير الثقافي وضبط مساره.
- ❖ وعليه فإن لوسائل الاتصال آثاراً إيجابية وهي أداة للتغير ووسيلة للتوجيه، ولأنها تتولى مهام الإعلام والتربية والتعليم، والتثقيف والإرشاد والتدريب، والتنشئة الاجتماعية، وهذه المجموعة كلها تشكل جوهر الثقافة التي يقوم عليها المجتمع.
- ❖ والتغير الثقافي يعني: تحرير الإنسان من الشخصية الإنسانية من السلبية والتقليدية والجمود والتفكير الخرافي.

الفصل السادس عشر

من نتاج الثقافة الشخصية

من نتاج الثقافة الشخصية

أولاً: مفهوم الثقافة الشخصية:

أجمع علماء الاجتماع والأنثروبيولوجيا على أن الثقافة الشخصية هي اللبنة الأولى في تشكيل الثقافة المجتمعية إذ أن مضمون الثقافة الشخصية على الرغم من السمة التراكمية التي تغلب عليه؛ فهو أيضاً مرآة حيوية تعكس بدقة عادات المجتمع وتقاليده، وقيمه، وعقائده، وقوانينه وأفكاره، فالمجتمع الذي ينشأ الإنسان فيه ليس بالدائرة المغلقة أو النهايات المحددة للإطار الثقافي للفرد.

فالسلوك الثقافي متغير ومتناقض ومتباين ومتناغم ومتفرد في آنٍ واحد، ومن نقاط الاتفاق بين المختصين في مجال الثقافة أن الثقافة الشخصية ذات طابع اجتماعي عام وذات سمات فردية خاصة. وتشكيلها مستمر ومتغير حسب قدرة الفرد أو النسق الاجتماعي على أحداث التغير أو التطور في أنماط الثقافية انسجاماً مع آثار العوامل الموضوعية المؤثرة فيها من مثل: العامل الأيكولوجي والعامل الاقتصادي والعامل التقني والعلمي والعامل التربوي والعامل السياسي إلى جانب البعد التطوري الحادث نتيجة إعادة تشكيل المجتمع وفق تلك الآثار ويضيف آخرون مضامين أخرى للثقافة الشخصية تتصل بالاحتكاك البيني بين أفراد المجتمع وتميز النخبة فيه والتي تبتدع وتبتكر أبعاداً جديدة للثقافة الشخصية ومن ثم الثقافة المجتمعية أو عن طريق احتكاك أفراد من المجتمع مع أفراد آخرين من مجتمعات أخرى فيكتسبون فهم بعض الأنماط الثقافية والتي سرعان ما تتسرب إلى أفراد آخرين فتتشكل بور ثقافية نوعية يتخذ منها الأشخاص والمجتمع معايير جديدة تتكامل مع معايير الأفراد والمجتمع في الرفض أو القبول لتلك الأنماط. (محمد، 1974).

ومع نشوء العقائد والثورات السياسية والطفرات الاقتصادية يسود المناخ الملائم لتشكيل مفاهيم ومفردات ثقافية جديدة، تكون في المرحلة تصبح ثقافة

النخبة أو ثقافة طبقة أو ثقافة المجتمع بأسره ويعتقد (ماوتسي تونغ) أن الثقافة بوصفها بنت المجتمع تكون قد اكتسبت الغطاء الضروري لمشروعيتها في النماء والتطور والإبداع وكلما سادت الثقافة بين فئات الشعب اكتسبت الأثر والفاعلية لإحداث التغير الاجتماعي ومن هنا فالثقافة الشخصية رسالة غير مكتوبة يمكن الاسترشاد بها للتمييز بين فرد وآخر وبين عقيدة وأخرى وبين فكر وآخر وبين مجتمع وآخر وهي المرجعيات المرئية لأبعاد شخصية الفرد. (الجلي، 1989).

من الصعوبة بمكان الفصل الدقيق بين الثقافة الشخصية والثقافة المجتمعية لأن العملية تسير في اتجاهي متداخلين في آنٍ واحد: من الفرد إلى المجتمع ومن المجتمع إلى الفرد على الرغم من أن الفرد يتميز ببعض الملامح الخاصة عن بقية أفراد المجتمع إلا أن هناك سمات عامة تطبع الأفراد والمجتمع كاللغة والزي والفن والأدب والعقيدة والميول والقيم وطرائق التفكير ومع ذلك فإن هناك سمات مرتبطة بثقافة الفرد الخاصة ومنها:

1. **النظرة إلى الحرية الشخصية وحدودها وأثرها في حياة الفرد وحالته النفسية:** وهذا يتناقض قليلاً مع النظرة الديمقراطية والنمط الاجتماعي الحديث الذي يرفض أن يتفرد السياسة أو الحكماء أو المفكرون أو رجال الدين بخصوصيات لأن البنية الثقافية للمجتمع تكتسب قوتها وفاعليتها من إسهامات الجماعة فيها وليس من آراء وثقافات كل فرد على حدة وعلى حد قول أحد رجال الدين يتكون الجسد الاجتماعي والمضمون الثقافي للمجتمع من أعضاء متنوعين يرتبطون ويعتمدون على بعضهم بعضاً بشكل تبادلي وعلى الرغم من أن البعض قد يعد أقل احتراماً فإنهم ليسوا أقل أهمية من غيرهم ومثلما لا تستطيع عيني أو أذن أو يد أو قدم في البناء الثقافي أن تقول لبعضها "أنا لا أحتاج إليك" ولكن الكل في مواقعه الخاصة له أثره وفاعليته التي لا غنى عنها في تثقيف المجتمع. (محمد، 2000).

2. **التميز والخصوصية مع الإبقاء على الاحترام لثقافة الغير:** ولكن ليس بالتوصيف الصارم الذي تراه الأسرة الأبوية بأن تقيد أبناءها حين التخاطب مع الأب ولكنه ليس بالنمط المتميز للأبناء أنفسهم.
3. **التصرف حسب الرغبات والميول لكل فرد:** ولكن ضمن بعض المحددات الموضوعية على أن لا تطغى تلك الرغبات والميول على المعيار الأخلاقي المقبول لدى غالبية أفراد المجتمع.
4. **التصرف حسب الحاجات الخاصة والظروف الخاصة للأفراد:** ويكون ذلك وفق معيار القبول الثقافي.
5. **على نية الابتكار والإبداع الذي لا يسيء إلى القيم الإنسانية العليا:** ولا يتعارض مع القوانين المرعية التي تحظى بالتأييد الاجتماعي العام.
6. **كسر الجمود والتقليد الأعمى من قبل بعض الأفراد:** لغرض المنفعة والتقدم ولكن من دون ارتكاب الحماقات والرذائل وبما يتناغم ويتماشى مع ما اصطلح على تسميته الخير الفطري.
7. **التخلي عن عضوية المؤسسات الفاسدة:** وحالات الفساد أو العكس.
8. **التفرد بنوع من الخبرة والمعرفة العلمية:** تؤثر في الفرد وتدفعه إلى اختيار سلوك يتناسب مع مركزه الاجتماعي ودوره في الحياة خارج إطار العموميات الثقافية.
9. **العادات الثقافية الناجمة عن تميز في الطاقات العقلية والانفعالية لدى البعض:** فالقانون والشعراء والموسيقيون لهم نمط سلوكي يختلف عن السلوك الاجتماعي العام.
10. **المذهب الأيدولوجي:** لقد بدأت كافة المذاهب الأيدولوجية كافة بسلوكات خاصة لأشخاص معينين في حالة اجتماعية خاصة كالأنبياء والفلاسفة والمفكرين ومنظري الثورات الأيدلوجية كانت الفكرة الثقافية في البداية تتمتع بخصوصية مفرطة قبل أن يكون لها إتباع.

11. **التميز بنمط معين من النظام والتنظيم:** فرجال الأعمال والمال والإداريون قبل أن يشكلون شرائح اجتماعية يضعون أعرافاً راسخة من بنات أفكارهم ولا يرفضها الآخرون وتعد نمطاً ثقافياً شخصياً.

12. **اللغة وطريقة التواصل:** فعلى الرغم من أن مفردات اللغة في عموميتها في متناول الجميع إلا أن أفراداً يتميزون في صياغتها والتكلم في أساليب خاصة مستخدمين تلك المفردات في سبلها على طرائق وأنماط خاصة تعكس طابعاً متصلاً بالثقافة الشخصية وليس الثقافة المجتمعية. (دللو، 1982).

ثالثاً: وظيفة الثقافة حيال الشخصية:

لخص علماء الاجتماع مجموعة الوظائف التي تقوم بها الثقافة للشخصية بـ:

أ. الثقافة تحدد المواقف:

وهذا معناه: الثقافة تزود الفرد بمعاني الأشياء والأحداث، إذ تمكنه دائماً من أن يستمد منها مفهوماته فيستطيع من خلالها أن يحدد ما هو طبيعي أو غير طبيعي وما هو منطقي أو غير منطقي أو ما هو أخلاقي وغير أخلاقي ليتزود في النهاية بمعايير القبول والرفض وللتدليل على ذلك: إليك هذا المثال: لنفرض أن شخصاً ما اقترب منك باسطاً يده اليمنى فوق مستوى صدره فماذا يعني هذا الموقف؟

قد نقول: إنه يريد طبعاً مصافحتي ويكون هذا الموقف طبيعي كما هو بالنسبة لغيرك ممن ينتمون إلى بثقافتك نفسها، إلا أن الموقف قد يبدو غريباً وشاذاً من منظور شخصي آخر لا يعرف التصافح بالأيدي سمة ثقافية تعلمها، بل قد يعني الموقف كراهية أو تهديد أو سخرية أو شيء من هذا القبيل مما يبتعد تماماً عن مجال التصافح أو الصداقة وعلى هذا الأساس فإن الثقافة تحدد للأفراد مختلف المواقف، وتحدد لهم أنماط السلوك الواجب اتباعها في كل موقف.

ب. الثقافة تحدد الاتجاهات والقيم والأهداف:

الفرد يتعلم من ثقافته حدود الحق والخير والجمال لذلك تحدد لديه الاتجاهات والقيم والأهداف عن طريق الثقافة لأنه يتعلمها في العادة بطريقة لا شعورية تماماً كما يتعلم اللغة أما الاتجاهات (Attitudes) فهي ميول للشعور أو الإحساس بينما تمثل الأهداف الإنجازات التي تحددها القيم على أنها أمور مشروعة ويعد التساند الوظيفي بين الاتجاهات والقيم والأهداف من أكثر مقومات التكامل الثقافي.

وعلى أي حال فإن الثقافة بما تحدده من أهداف مسموح بها أو محظورة وغير مقبولة تحدد بالتالي مسارات الطموح الشخصي عند الفرد كما تحدد مسارات حياته بأكملها، فقد يتعجب الفرد العادي كيف أن ألمانيا مثلاً قادت العالم كله في مجال الموسيقى وإيطاليا في مجال الفن وإنجلترا في مجال التجارة وقد تعزى كل هذه الإنجازات إلى عوامل عنصرية أو قومية. إلا أن النظرة الثاقبة لمجريات الأمور تكشف عن أن كل مجتمع من هذه المجتمعات قد تفوق في النشاط الذي دعته الثقافة أو شجعت القيام به.

وأخيراً، قد ينمي الفرد أو يعدل أو حتى يعارض اتجاهات معينة في ثقافته ولكنه على الرغم من ذلك كله يعيش دائماً داخل إطارها.

فما الذي يفعله الموسيقي لأخ له مثلاً إذا قدر له أن يعيش ثقافة لا تعرف الآلات الموسيقية. وما العظماء إلا مواهب وجدت فرصة سامحة لها في ثقافتها، وعلى هذا يمكن القول أفراد أي مجتمع هم انعكاسات حقيقية لثقافتهم، لأن الثقافة عندما تحدد الاتجاهات والقيم والأهداف تحدد مواهب أفراد المجتمع وتشكل بوجه عام طريقتهم ونظرتهم العامة للحياة.

ج. الثقافة تزود الفرد والمجتمع بأنماط السلوك:

من العبث أن يكون الإنسان مرتجلاً في حياته فيتعلم من خلال أساليب مضينة للمحاولة والخطأ، لذلك يجد الفرد في انتظاره منذ لحظة الميلاد – مجموعة من أنماط السلوك تنظم له حياته وعليه فقط أن يتعلمها ويتبعها وعلى ذلك؛ فإن الفرد من مهده إلى لحده سجين ثقافته المجتمعية فهي تحدد له أنماط السلوك والأهداف وهي التي تقيّم تصرفاته وتجاربه عليها ثواباً أو عقاباً.

وقد يعتقد الفرد أنه قادر على الاختيار، إذ تستطيع أن يتحكم في مصيره ولكن اختياره هذا يقع دائماً داخل مجموعة من الاحتمالات والإمكانيات التي تسمح بها ثقافته، لذلك يعد الفرد لأن يشغل مكانة بين الآخرين وأن يتقبل هذه المكانة بما تقدمه الثقافة من ميكانيزمات لتدريب الأفراد على القيام بأدوارهم وتقبل أوضاعهم من ناحية أو إلزامهم بها من ناحية أخرى، وإذا كانت الثقافة على نحو ما قدمنا تحدد للفرد المواقف والاتجاهات والقيم والأهداف وتزود بأنماط السلوك الواجب اتباعها، ولذلك فليس هناك ما يمكن اعتبار الضمير إنتاج الثقافة وذلك أنه وإن كان الأمر مسألة فردية بحتة أو كما يقال نداء داخلي نابع من الفرد إلا أنه ينبثق من المعايير الثقافية الجماعية التي حدد من قبل الصواب من الخطأ والحق من الباطل وميزت الخير من الشر وغير ذلك من المقاييس أو الأحكام المعيارية التي تمثل حجر الزاوية في الضمير الإنساني.

ونستطيع مما تقدم واتفاقاً على ما ذهب إليه جيري روس Jerry Rose أن نحصر وظائف الثقافة في مجموعتين أساسيتين هما:

1. مجموعة الوظائف التي تعمل على تحرير الإنسان Liberating.
2. مجموعة الوظائف التي تعمل على تحديده Limiting والحد من حريته.

وذلك من أجل ضبط سلوك الأفراد وتنظيمه أو توجيهه إلى أن النظام الاجتماعي لا يقوم على افتراض أو تصور أن الأفراد سيسلكون بطريقة تلقائية في الاتجاه الذي يحقق الانسجام الاجتماعي في المجتمع.

رابعاً: قواعد تفاعل الفرد مع النمط الثقافي:

ساهم العالم الإنثربولوجي لنتون بآراء هامة ذهب فيها إلى أن المؤسسات الثقافية التي تعنى بتدريب الأطفال لها دور أساس في تكوين الشخصية، وقد قام (كامل) بدراسة لأهم العوامل الثقافية التي تؤثر في بناء الشخصية ومنها: (حجم الجماعة، والضغط الثقافي، والرفاهية، والمحافظة على التقاليد، ونظام السلطة، والضبط، والتكامل الثقافي، والروح المعنوية)، وقواعد تفاعل الفرد مع النمط الثقافي، وهي على النحو التالي:

1. تطابق شخصية الفرد مع النمط الثقافي.
2. تشكيل الثقافة الشخصية للفرد.
3. الثواب والعقاب للفرد إذا تطابق سلوكه مع الأنماط الثقافية أو إذا تناقض معها في سلوكه.
4. تعلم السلوك الذي يتوقع منه الفرد الإثابة والإشباع.
5. اختلاف شخصية الفرد تبعاً لدوره الاجتماعي في إطار النمط الثقافي العام.
6. اعتماد التغير الثقافي على تغير شخصية الفرد.

وتعد المدرسة هي المؤسسة الاجتماعية الرسمية التي تقوم بوظيفة التربية ونقل الثقافة المتطورة وتوفير الظروف المناسبة للنمو جسمياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً والوظيفة الاجتماعية مهمة للمؤسسة هي استمرار ثقافة المجتمع والتيسير على الأطفال في تمثل القيم والاتجاهات الخاصة بالمجتمع وتدريبهم على أساليب السلوك التي يقلبها هذا المجتمع، وتتميز المدرسة بوصفها ناقلاً متخصصاً لثقافة المجتمع بما يلي:

1. تمثل مجتمعاً محدداً من البشر.
2. لها بنية أو تركيب اجتماعي واضح المعالم.
3. شبكة صغيرة محكمة من التفاعلات الاجتماعية.
4. يسودها الإحساس الدقيق بثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه.
5. لها ثقافة خاصة.
6. هي الأقدر على ابتكار وسائل وأساليب تساعد الفرد في تمثل وتشرب الأنماط الثقافية.
7. تسخر النظم والتنظيمات الاجتماعية لإحداث الاستقبال الواعي للنمط الثقافي السائد.
8. الثقافة السائدة في المدرسة تؤثر في تشكيل شخصية الفرد والجماعة عن طريق المواقف الثقافية العديدة من خلال التفاعل الاجتماعي المستمر.
9. تتناول القيم المتفق عليها من جانب المجتمع في مواد الدراسة وشرحها وتأكيدها.

خامساً: دراسات أثر الثقافة في تكوين الشخصية:

1. دراسة مارجريت ميد في مجتمع مانوس.

تقدم ميد (Mead) نموذجاً يوضح تأثير الثقافة في تكوين الشخصية، وتعد صاحبة اتجاه معين في دراسة الظواهر السلوكية في إطارها الثقافي أجريت دراستها على مجتمع "مانوس" (Manus) وهو مجتمع بدائي يعيش في عزلة عن الثقافة، ولم تصل إليه وسائل المدينة الحديثة، وأقامت طوال فترة بحثها بين أهل الجزيرة حيث سجلت مشاهداتها عن الأطفال في مراحل نموهم، وسكان جزيرة مانوس هم جماعة من البشر يعيشون في إحدى الجزر الواقعة في شمال غينيا الجديدة ويسكل أفراد تلك الجماعة أكواخاً من البوص ترتكز على دعائم أقيمت في أعماق البحيرة الواسعة، ويعيشون بنفس الطريقة التي عاش بها أجدادهم منذ مئات السنين، ولم يحدث أن وفد إليهم بعض من أفراد البعثات التبشيرية، كما لم يفد إليهم تجار أجانب.

وترى (ميد) أنها مجتمعات بسيطة لا يوجد فيها تقسيم للعمل وليس تاريخ ثقافي مسجل وحجم تلك المجتمعات يكون صغيراً نسبياً، ففي مثل هذه المجتمعات لا يدرس الباحث التقاليد والعادات، وإنما يحصل عليها من بعض الأفراد اعتماداً على الذاكرة، وعن طريق التحصيل الثقافي يستطيع الباحث أن يتعرف إلى معظم العادات والتقاليد في فترة قصيرة وعن طريق الإحاطة بالتاريخ الثقافي يصبح في الإمكان دراسة ثقافة المجتمع وتأثيرها في تكوين الشخصية، وقد حاولت (ميد) أن تربط بين سلوك الأطفال وشخصياتهم وسلوك الكبار، وكذلك بين قيم هؤلاء الأطفال وبين الطرق التي يتبعها الكبار في تربية الأطفال، وأن الصيغة الثقافية في المجتمع التي تتحدد بالدور والمركز الاجتماعي تؤثر في تكوين شخصية الطفل، وأن طرق التربية التي تمارس في تنشئة الأطفال تساهم في تكوين شخصيات متميزة، ويظهر التمايز في شخصيات الأطفال في سن مبكرة وخاصة بعض السمات الأساسية للشخصية، مثل: الميل إلى المشاغبة، أو الميل للانطواء.

وقد وجدت ميل علاقة بين شخصية الآباء وشخصية الأطفال، ولاحظت أن بعض الرجال أصحاب المراكز الاجتماعية يتبنون أطفالاً صغاراً ويقومون بتربيتهم كأبنائهم تماماً واتضح أن الأطفال سواء كانوا أبناء حقيقيين أو بالتبني فإن شخصياتهم تتشابه في جوانب كثيرة مع شخصيات أبنائهم، وتشير (ميد) إلى أنه لو كان الأمر يقتصر على التشابه بين الأب وأبنائه الحقيقيين لقلنا: إن هذا يرجع إلى تأثير الوراثة، ولكن التشابه بين الآباء وشخصيات الأبناء بالتبني يدفعنا إلى القول أن الوراثة لا دخل لها في هذه الظاهرة، وقد لاحظت أن الأبناء الحقيقيين أو الأبناء بالتبني للرجال ذو المراكز الاجتماعية وتتميز شخصياتهم بالنمط المسيطر تتميز شخصيات أطفالهم بالنمط المسيطر، ويذكرنا هذا بقيمة الأسرة البديلة أو المربيات وتاثيرها في تكوين شخصية الأطفال نتيجة الأنماط الثقافية التي تقدم لهم مراحل نموهم المختلفة، وترى (ميد) أن نمط شخصية الطفل تتكون وفق الثقافة السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه. (دللو، 1982).

2. نموذج رالف لينتون حول أثر الثقافة على بناء الشخصية:

يقرر بعد دراسة أجراها على سكان جزر الماركيز الذين يتصفون بالقلق والاضطراب العصبي أنه ليس هناك شك في أن الثقافة مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أي شخصية وذلك عن جانب مهم من الشكل الخارجي لبناء الشخصية هي بالدرجة عملية يجري فيها:

1. اندماج خبرات الفرد مع صفاته التكوينية لتشكل معاً وحدة وظيفية متكاملة تكيفت أجزاؤها بعضها مع بعض تكيفاً متبادلاً. (الناشف، 1967).
2. استمرار عملية التكيف بين الخبرات والصفات التكوينية طوال حياة الفرد وتبدو فعاليتها على أشدها في سنوات النمو الأولى.
3. ازدياد حجم التفاعلات بين الفرد وأفراد آخرين إلى أن يتشرب الفرد الثقافة وتصبح ذات أثر من حيث تحكمها في علاقات الفرد بأعضاء مجتمعه الآخرين.
4. يتخذ تشكيل الشخصية نموذج المجتمع الخاص الذي ينظم السلوك بين الأفراد الذين يشغلون أوضاعاً معينة كالكبار والصغار والأزواج والزوجات وأصحاب العمل والعمال ولا يقف تأثير الثقافة عند هذا الحد، فالثقافة تحدد حجم الفئة من الأشخاص الذين يتصل بهم الفرد اتصالاً وثيقاً، تحدد طبيعة الفئة، ومثال ذلك أن مدى الفصل الذي يقرره المجتمع بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ يؤثر تأثيراً مهماً في اتصالات أفراد هذه الفئات وعلى الفرص الناتجة عن ذلك الاحتكاك، فالفرص المتاحة للفتاة للاتصال بالشباب في مجتمع شرقي محافظ تختلف عنها في المجتمع الأمريكي، وكذلك الأمر بالنسبة للنمط الذي يتبناه المجتمع في التنظيم العائلي فهذا العامل يؤثر أيضاً في مدى الاتصالات بين أعضاء المجتمع وعلى طبيعتها فإذا تركز الاهتمام في شخص واحد في الأسرة كالأب فإن الفرد يجد نفسه على اتصال بعدد صغير محدود من

الأشخاص الآخرين أما إذا كان المجتمع يرتكز فيه الاهتمام في وحدة عائلية قائمة على أساس رابطة الدم فإن الطفل يكون عضواً في جماعة موحدة أكبر كثيراً من الوحدة العائلية الزواجية، وقد يجد مائة شخص أو أكثر تربطه بهم علاقات عائلية على مستويات مختلفة ويعني ذلك أنه لا يشعر باعتماد كبير جداً على أي منهم وكذلك الرابطة العاطفية تكون أقل بسبب توزعها على أفراد رابطة الدم والحب الذي يكنه الإنسان لعشرين أو ثلاثين منهم لا يمكن أن يكون بالعمق ذاته من الحب الذي يشعر به اتجاه اثنين أو ثلاثة من أخوته.

ويخلص (لينتون) إلى أن الأسس التي تقلبها الثقافة فيما يتعلق بحجم العائلة وطبيعة التفاعل الاجتماعي في إطار رابطة الدم تسهم إلى حد كبير في إكساب الفرد خبرات اجتماعية، تشكل بناء شخصيته. (الناشف، المرجع السابق).

سادساً: دوافع الشخصية وتأثرها بالثقافة:

ينظر إلى الشخصية طبقاً لهذا المدخل على أنها وحدة عقلية مستقلة، ولقد استند هذا التصور إلى عدة افتراضات أو مسلمات، إذ يفترض جدلاً أن مصادر سلوك الفرد تتركز في داخل نفسه، فيكسبها الوراثة طابعاً نمطياً باعتبارها حاجات أو نوازع ثابتة أو غرائز...الخ أو تكتسب بواسطة مجموعة الخبرات المبكرة التي تزخر بها مواقف طفولة الفرد، ويتضح نمط الشخصية من خلال رد الاستجابات المحددة أو المظاهر المختلفة للسلوك مثل: الانفعالات، والإدراك، والمشاعر، والأحكام، والآراء، والاتجاهات ويمكن بلورة بعض هذه الجوانب البارزة على النحو التالي:

1. **الشعور بأن جسم كل إنسان مغاير تماماً:** عن أجسام الآخرين ومستقل عن البيئة الفيزيائية ويعتقد عالم النفس (أريك أريكسون) بأن شعور الذات يرتبط عموماً بالخبرة المبكرة المتعلقة بالتحكم في الجسم مثل المشي، كما تعد خبرة حمل جسم الإنسان على حد تعبيره من بين هذه الخبرات.

2. **شعور الاستمرارية والوحدة والتماثل:** وبالإمكان استعادة هذا الشعور أو توقعه بمعنى الاقتناع به على الرغم من تباين خبرات الشخص الخاصة والتغير المستمر، إلا أن هناك شيئاً ما لدى كل واحدٍ منا كان موجوداً في الماضي وسيظل باقياً هو ذاته في المستقبل وإدراك الفرد بأن حياته هي مشروع، بمعنى أنها بناء ينمو هو نفسه عبر الزمن، فإن هذا الإدراك يعد بعداً أساسياً لشخصيته.
3. **شعور السلامة والكمال:** ويعد هذا الشعور بمثابة الجانب المحوري في الشخصية ويمكن تحقيق ذلك على نحو سلبي من خلال اعتبار الفرد نفسه ما هو إلا حاملاً لكل الخبرات أو على نحو إيجابي من خلال نظر الفرد إلى نفسه باعتباره مؤلفاً أو منظماً لخبراته وبأنه يتجه في سلوكه من خلال كل هذه الخبرات وفي كلا الحالتين تمثل العلاقة المميزة لشخصيته في إدراك الفرد ذاته باعتباره يجمع ويوحد مشاعره وخبراته ويوحّدها وأنه لا يختلف في شيء عن هذه الخبرات، والنقطة المهمة المتعلقة بمشاعر السلامة والكمال في المعنى العام للهوية Identity يتمثل في إدراكها وليس فقط باعتبارها حالة ذاتية خالصة وداخلية وإنما باعتبارها أيضاً حالة للعقل يمكن التعبير عنها ويترتب على ذلك فهم الشخصية وتفسيرها من خلال الكشف والانتقاء والتركيز على ما يعد مزيداً وخاصاً في سلوكه، وعلى ما يعبر بكفاية عن إحساسه بهويته واعتزازه بها. والواقع أن هذا التصور للشخصية في ميدان السلوك الإنساني ينهض استناداً إلى مسلمة مؤداها "أن أي مظهر خاص يعد جزءاً في نسق مزيد مغلق". (إسماعيل، 1985).

سابعاً: عوامل تكوين الشخصية:

هناك عدة عوامل تؤثر في تكوين الشخصية منها: العوامل الوراثية، والعوامل البيولوجية. ومنها أيضاً العوامل الجغرافية والعوامل الاجتماعية.

1. العوامل الاجتماعية والثقافية:

للمجتمع والثقافة المميزة صلة وثيقة بشخصيات من يحتضنهم من أفراد إذ إن ثقافة المجتمع تؤثر في طرق التفكير وفي طريقة التعبير عن الانفعالات ومدى تقبل المعايير كالعدل والحق والمباح وغيره، كل أولئك يحدده نوع الثقافة إلى حدٍ كبير، غير أن هذا لا يعني أن أفراد المجتمع الواحد تتشابه شخصياتهم كما تتشابه نسخ الكتبا المطبوع، فحتى لو نشأنا في رحم ثقافي واحد أو متقارب لاختلفت شخصياتهم في نواحٍ كثيرة، فالأسرة كانت وما تزال أقوى سلاح يستخدمه المجتمع في نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل، وقد أجمعت خبرات الناس ودلت تجارب العلماء على ما للتربية في الأسرة من أثر عميق يتضاءل دونه أثر أي مؤسسة اجتماعية أخرى، كما أن مركز الطفل في الأسرة له دور في تشكيل شخصيته، فالطفل الأكبر أكثر وروداً على العيادات النفسية من سائر إخوته، وثبت أنه تعوزه الثقة بالنفس وأنه يميل إلى المحافظة والتثبت بامتيازاته كما أنه لا يميل إلى التزعم والتحدي، أما الطفل الوحيد فتتأثر شخصيته إلى حد كبير بالظروف والعوامل التي حدت بالوالدين إلى قصر النسل فقد يكون متلهف أو قلق أو متزمت أو متشائم. (عبد الحميد، 1996).

2. العوامل الوراثية:

تلعب العوامل الوراثية دوراً خطيراً في تكوين الشخصية وتشكيلها – إلا أن هذه العوامل الوراثية لا بد لها من أن تتفاعل مع البيئة خاصة الاجتماعية ويؤدي هذا التفاعل إلى تكوين الشخصية ونموها.

3. العوامل الجغرافية:

من المشاهد المعروفة أن أسلوب الحياة للجماعة بأسرها يتأثر لأنها تعيش مثلاً في الصحراء أو بين الجبال أو جزيرة أو منطقة معتدلة المناخ، أو أنها تعيش في أرضٍ قاحلة تضطرها إلى الكدح الموصول أو في وادٍ خصيب وفير الخيرات. هذه

العوامل المختلفة لها أثر في شخصية الجماعة بأسرها، ونضرب مثلاً على ذلك (الأسكيمو) الذين يعيشون في ظروف جغرافية قاسية عنيفة بحيث لا يقوى على العيش فيها إلا الأقوياء، أما الضعيف أو المريض أو العاجز عن كسب قوته فمصيره إلى الهلاك أو أن يقتل من ذويه كما قضت عليهم هذه الظروف الجغرافية أن يكون نظامهم الاجتماعي فردياً إلى حد كبير ومن هنا أكثر سمات الشخصية في التحدي والمبادأة والتي تصبح مع الزمن الثقافة" (عبد الحميد، المرجع).

ثامناً: الثقافة ودورها في تطوير بناء الشخصية:

أ. مراحل تكوين الذات أو الآنية:

إن الشخصية بمعناها المتكامل تقتضي توفر الشعور بالذات أو الآنية وإن هذا الشعور بالذات سمة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات وأنه حتى ولو افترضنا أن لبعض الحيوانات قدرة ما على الشعور بالذات فإن هناك شرطاً آخر يؤكد افتقار الحيوان الشخصية بمعناها المتكامل ألا وهو افتقار الحيوان لتصور أو إدراك شخصية مثالثة كغرض أسمى، وترجع مراحل التكوين للآنية إلى عهد الطفولة المبكرة، فقد يكون الشخص عاجزاً عن إدراك نفسه كذات متميزة عمّا يحيط به من عوامل خارجية والشعور بالأنا لا ينشأ دفعه واحد بل هو محصلة تطور تدريجي يمر بمراحل ثلاثة هي:

المرحلة الأولى:

وتعرف بمرحلة اللا تغاير وهي تستغرق الأربعة أو الخمسة شهور الأولى من حياة الفرد فتكون الاستجابات مقيدة أو محدودة بالحاجات العضوية فقط إذ لا يميز الطفل الرضيع بين جسمه وبين ما يحيط به من أشياء، كما لا يميز بين أجزاء جسمه فنراه يمصّ أصابع قدمه كما يمص أي شيء آخر ينبه فمه وهي مرحلة لا تغاير لأن الطفل فيها لا يشعر ولا يدرك بأي تمييز بينه وبين ما هو مغاير أو مختلف عنه.

المرحلة الثانية:

وهي تبدأ بوجه عام بعد الشهر السادس تقريباً فيها تظهر بوادر الحركات الإرادية وعلاماتها؛ فيصبح الطفل قادراً على تحريك يده تبعاً لمؤثرات حسية ومن ثم تبدأ الفواصل الفيزيائية بين جسمه وبين العالم الخارجي وبالتدريج تظهر في شعوره لتتحول إلى إحساسات باطنية ولو أنها تدور بصفة أساسية حول عالم الجسم فقط. (عبد الحميد، 1996).

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة تكوين "الأنا" النفسي بجانبيه الاجتماعي الثقافي والمعنوي، أما الجانب الثقافي فيتكون من خلال اندماج الطفل في الثقافة المجتمعية السائدة وتبدأ دائرتها في الاتساع تدريجياً بتقدمه في السن ولو أن الإدراك فيها يكون أقرب إلى الناحية العلمية منه إلى الناحية الذهنية أي بمعنى أن الطفل يحيا حياته الثقافية المجتمعية ثم يفكر فيها ليتخذها موضوعاً لتأملاته، ومن العوامل المهمة في تكوين "الأنا" الثقافي معرفة غيره من الأفراد، وهنا تلعب زيادة عدد الأفعال التي يحاكيها الطفل دوراً واضحاً في زيادة قدرته على تصور ذاته من خلال ما يكتسبه من معرفة وخبرة عن طريق مشاهدة أفعال الآخرين ويصبح اسمه من بين مقومات "آنيته" ثم يعرف بعد ذلك اسم والديه وأخوته ليبدأ بالتدريج في تمييز نفسه عن العالم المحيط.

ب. الشخصية كنتاج للتفاعل الاجتماعي الثقافي:

بعد تكوين "الأنا" الاجتماعي وفق الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع يشعر الفرد في النهاية بأنه شخص له ذات واحدة متكاملة ومتميزة عن غيره ويلي بعد ذلك مراحل النضج العاطفي والاجتماعي والتي يوجه فيها نمو الشخصية في إطار الثقافة المجتمعية السائدة ويحدد "برو وسيلزمك" ثلاثة طرق أساسية عن طريقها تخلق الثقافة ما يعرف بالذات وهي:

1. أن الثقافة تخلق في الفرد ما يكون "تصوره لذاته": بمعنى أنه يتمثل الفرد ويحدد نظره لذاته من ملاحظة اعتبار ومعاملة الآخرين له لذلك قد ينمو لدى الفرد صورة كريهة أو مؤذية تنبثق عن الأحكام التي تصوره شخصاً غير مرغوب فيه أو غير جدير بأي شيء وعلى العكس من ذلك تنمو لديه صورة ناقصة أو مقيدة للذات.
2. أن الثقافة تخلق في الفرد ذاتاً مثالياً: بمعنى أن يكتشف ما الذي يجب عليه أن يفعله ليضمن استحسان الجماعة وتقديرهم ثم تعمل الذات المثالية على دفع الفرد للامتثال للمعايير المجتمعين تحقيقاً للثقافة.
3. وتعمل الثقافة على خلق الذات عن طريق تطوير "الأنا": ولذا يمكن تعريف الأنا بأنها الوظيفة التكاملية أو الضابطة للذات وهي بهذا المعنى الشائع أقرب بالضمير وهذا يعني أن الفرد إذا تقدم به العمر يطور لنفسه ضوابط لتحديد سلوكه وتوجيهه في اتجاه معين كما لو كان غيره من الأفراد يلاحظ سلوكه حتى وإن لم يخضع لملاحظة مباشرة من قبل الآخرين، فالفتاة التي تحافظ على الأقارب تحافظ على عفتها يوضحان قدرة الذات على توجيه السلوك بالتمسك والانفعال لمعايير الجماعة وتلك هي أهم وظيفة للأنا. (مكون، 1983).

ولا يمكننا تحديد معالم المرحلة الأخيرة في تكوين شخصية الفرد والوصول بها إلى مرحلة تكوين الأنا الاجتماعي أو الأنا الثقافي إلا بالنظر إلى القضايا التالية:

1. الطامع أو الأصل الثقافي للذات.
2. تفسير الذات أو الأنا يتطلب وجود المجتمع.
3. الوعي الفردي بالأنا أو الذات ينشأ من خلال التفاعل مع الآخرين.

وقد أجمع علماء الاجتماع أن الإنسان يتحول من فرد إلى شخص إذ تكمن الثقافة في أهميتها من حيث إنها تقدم لنا "كيف تكون" أو بمعنى آخر "إننا لسنا إلا نتاجاً للثقافة التي تعلمناها أو التي نشأنا في إطارها. والثقافة في حد ذاتها تجريد لسلوك الشخص وتتم عملية اكتساب الثقافة عن طريق عملية التعلم، وفي ظل ذلك يمكننا التعميم حسب وجهة نظر غالبية علماء الاجتماع. إن عملية اكتساب الثقافة هي المنتجة النهائية لعملية التفاعل بين الأشخاص. (ناصر، 1995).

ثامناً: أنواع الشخصية من منظور ثقافي:

هناك أنواع عديدة للشخصية -نرى مثلاً علماء النفس يتكلمون عن الشخصية المنطوية أو الشخصية المنبسطة أو أن يقولوا شخصية متعاونة أو شخصية مرحة أو شخصية أنانية غير أن الشخصية من وجهة نظر سيسيولوجية تميز بين نوعين من الشخصية هما:

- الشخصية الاجتماعية.
- الشخصية القومية.

ويرجع مفهوم الشخصية الاجتماعية إلى فروم الذي تحدث عن طابع الشخصية الشائع عند أعضاء المجتمع كله، كما تحدث عن البناء الحافز والاتجاهات اللبيدية واللاشعورية عند أعضاء المجتمع وخلص فروم إلى أن للمجتمع دوراً كبيراً في تكوين الشخصية الاجتماعية، وأن الشخصية الاجتماعية في المجتمع البدائي تتميز عن الشخصية الاجتماعية في المجتمع الإقطاعي أو الرأسمالي، كما تتفاوت بناء الشخصية الاجتماعية في المجتمع الحرفي عن المجتمع الزراعي أو الرأسمالي، كما تختلف الشخصية الاجتماعية في المجتمع الديمقراطي عن المجتمع اللاديمقراطي. (ناصر، 1995).

وتتجلى الشخصية الاجتماعية في أوضح مظاهرها في المجتمعات البدائية فقلما توجد انحرافات عن النمط الثقافي الشائع، وفي هذه المجتمعات قد تكون الشخصية إما مسالمة ومطمئنة ودودة وتعاونية غير عدوانية، وفي حالات أخرى تكون عدوانية وتخريبية وسادية تميل إلى الحزن والارتياب، وفي المجتمعات الأكثر تقدماً نجد أن لكل طبقة من الطبقات المختلفة في المجتمع الواحد عادة شخصية اجتماعية مميزة يختلف دور كل منها في البناء الاجتماعي وفق النمط الثقافي السائد.

أما الشخصية القومية:

من أبرز تعريفاتها هي أن الشخصية القومية "موضع ثقافي" وهذا العريف يعطي تأكيداً أساسياً للأسرة والصداقة والمجتمع المحلي، والقيم والاتجاهات والفلسفة والدين ويغفل هذا التعريف العناصر الواردة في تعريفات أخرى للشخصية القومية التي تركز على البعدين السياسي والاقتصادي.

كما تعرف الشخصية القومية بأنها: "سلوك" ويؤكد من ثبت من العلماء على هذا التعريف أهمية التاريخ ويصنفون المجتمعات إلى محبة للسلام أو شعوب منتجة أو شعوب نامية. (لينتون، 1962).

والشخصية القومية هي تعبير عن نفسية الشعوب مع تأكيد الخصائص البيولوجية عند السكان القوميين لا تأثير لها على تشكيل النظم الثقافية وسلوك السكان.

مما لا شك فيه أن علماء الاجتماع والأنثربولوجيا قد أعطو للثقافة المجتمعية والخط السلوك السائد ساحة ليست بالقليلة في بناء الشخصية الاجتماعية وقد أرجعوا التباين الذي ينشأ في المجتمع فيما يتصل باختلاف الشخصيات إنما يرجع السبب فيه إلى البيئات التي ينشأ فيها الأفراد وهذا يعني أن نوع الثقافة سواء في شكلها المادي أو اللامادي لها تأثير واضح في تكوين الشخصية

ولقد ذهب البعض من العلماء من أمثال "كلاكهون" إلى أن النظم الثانية التي وجدت قبل ميلاد الأفراد تؤثر فيهم بعد الميلاد ويسير الأفراد طوال حياتهم تبعاً للقواعد والمعايير التي تفرضها هذه النظم، ويؤدي ذلك إلى تنوع سلوك الأفراد في مواجهة المشكلات الاجتماعية التي تصادفهم.

ومن الأهمية بمكان النظر إلى إقرار العلماء أيضاً بأن الشخصية تتضمن قدرات سيكلوجية لها أساس فسيولوجي ولكن هذه العوامل ليست ذات بال أو أي تأثير إلا إذا تفاعلت مع البعد الثقافي والسلوك المجتمعي الذي يشكل شخصية الفرد تبعاً لقوالب خاصة تترك بصمات واضحة على الطابع المميز للشخصية فمعايير الرفض والقبول تبقى تتفاعل مع أي سلوك جديد إلى أن يتخذ شكله بالتوافق مع النمط السائد وشيئاً فشيئاً يبدأ الفرد الشخص باعتماد معاييره المشتقة من المعيار الاجتماعي العام.

أما عن العوامل الوراثية التي تؤثر في تطور الشخصية؛ فإن تأثيرها يكون مشروطاً أيضاً بالعوامل الثقافية والبيئية فأي من هذه العوامل بمفرده ليس هو الحاسم في بناء الشخصية أو في تطورها وإنما أي تأليف منهما قد يتطور في المواقف الأساسية ويكون له التأثير في بنية شخصية الفرد وتطورها لاحقاً.

ومن هنا فإن للثقافة الأثر البالغ على شخصية الفرد وأنها لتظهر أي الثقافة على شخصية الفرد كما تظهر "طبعة الصانع على صنعته" ودورها دائم ومستمر في تشكيل شخصية الفرد فلها تأثيرات أساسية تأسيسية في تشكيل الإطار العام والملامح البارزة للشخصية وللثقافة أيضاً دور تطوري من أجل تطوير أبنية الشخصية الإنسانية من خلال تزويدها بالخبرات الجديدة وأنماط السلوك المرغوب فيها وليس هذا فحسب؛ فإن للثقافة أثراً في إبراز نوع الشخصية المتفتقة من نتاج تفاعل العوامل الوراثية مع العوامل الثقافية يضاف إلى هذا أن الثقافة تعطي الفرد المفردات الثقافية أي مضمون الفعل الاجتماعي وتزود أيضاً بالمحكات التي تمكنه وتؤهله أيضاً من إحداث التطابق والتوازن معها.

ومن الأخطار الناجمة عن الآثار المحورية للثقافة على شخصية الفرد عدم التكيف مع العوامل الثقافية والبيئة إذا لم يتوفر الانسجام، أو لم يحدث التفاعل الإيجابي بين العوامل المستمدة من أصول ثقافية والعوامل المستمدة من أصول وراثية وبيولوجية عندئذ الشخصية الآتية من هذه الظروف ستكون بالقطع شخصية غير متوازنة ومتقلبة وغير سوية في النهاية وهي ليست مؤهلة للتطور أو إحداث أية تفاعلات ذات شأن في إطار المحيط الذي تعيش فيه.

وللثقافة المجتمعية "مكانزمات" وآليات خاصة بها لمساعدة الفرد في تشرب ذؤابة المضمون الثقافي وامتصاصه، والهامش هنا قد يضيق وقد يتسع ليضم بين دفتيه الإرث الثقافي كله على أوسع نطاق، فالثقافة ذات التشكيل النمطي على دراية بالقدرات السيكلوجية والفسيولوجية فهي تقدّر حجم السلوك الممكن استقباله وتوقيته والعوامل المساعدة في تملكه من قبل الفرد ليتم تذويته ويصبح جزءاً من أبعاد الشخصية الاجتماعية للفرد.

والتفاعل بين الثقافة والفرد البيولوجي يشبه في بعض جوانبه التفاعل المخبري من حيث ضبط عوامل، وتحديد العناصر الداخلة في التفاعل والمناخ المخبري من حيث ضبط عوامل، وتحديد العناصر الداخلة في التفاعل والمناخ المثالي لإحداث التفاعل فمثلاً إمكانية تسريع عملية التثقيف أو السير بها ببطء معيار متصل بالثقافة من خلال الخلاصات من نواتج التفاعل المستمدة من تجارب لأعضاء من المجتمع مع أداث ومحكات إلى أن استقر الاستنتاج في الوعي الإنساني أو الجانب الإدراكي للشخصية أن هذا الفعل الثقافي يتناقض أو ينسجم مع مكونات الشخصية ليتم قبوله أو رفضه والآلية التي يمكن أن يتم بها تماماً كما يحدث في المختبر فالماء يمكن أن يتفاعل مع الحامض ويكون لهذا التفاعل نواتج ذات شأن ولكن ذلك لا يتم إلا بآلية معينة فإذا صبّ الحامض على الماء يستمر التفاعل، أما إذا صب الماء على الحامض كانت نار وطرائق فالذي يعرف ظروف التجربة المثالية هو قيم المختبر الشخص المجرب، كذلك العامل الثقافي فهو ليس بعامل عارض بل إنه يتعرض إلى إمكانية التفاعل بصورة مستمر منذ ولادة الفرد في مجتمعه إلى أن يصبح شخصاً أي فرد له شخصية.

فإذا كانت الثقافة بنت المجتمع وأمه التي عاش في رحمها على حد قول بعض علماء الاجتماع فإن شخصية الفرد هي صيغة الثقافة الشرعية وإذا كانت الشخصية الفردية أبدية الثقافة فالشخصية المرآة التي تعكس الشأن الاجتماعي بقضه وقضيضه من ثقافة وأنماط وسلوك وقيم واتجاهات وعقائد وكل يجري من تفاعل داخل إطار المجتمع ويتم اختزاله على هيئة طبعه من عدة طبعات تتشابه جميعها من حيث الشكل ولكنها مميزة لأصحابها وتظهر سماتهم الخاصة. (سعفان، 1992).

المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

1. أبادي، الفيروز، 1952، القاموس المحيط، شركة مصطفى الخليلي، القاهرة.
2. أبو جادو، صالح، 1998، التنشئة الاجتماعية، ط1، دار المسيرة، عمان.
3. أبو خليل، شوقي، 1994، الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، عمان.
4. أبو شعيرة، خالد، 2006، مدخل إلى التربية الفنية، ط1، دار جرير، عمان، الأردن.
5. أبو شعيرة، خالد، 2007، التربية الأسس والتحديات، دار المجتمع العربي، عمان.
6. أبو شعيرة، خالد، 2007، التربية المهنية الفاعلة ومعلم الصف، دار المجتمع العربي، عمان، الأردن.
7. أبو نبعة، نردين، 2002، الجرس مجموعة قصصية، دار البشير، عمان.
8. أبو هلال، أحمد، 1979، مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان.
9. أسعد، يوسف ميخائيل، 1984، الثقافة ومستقبل الشباب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
10. أسعد، يوسف ميخائيل، د.ن، معتقدات وطرافات، القاهرة.
11. إسماعيل، زكي عمر، 1985، الثقافة والشخصية العربية، دراسات في المجتمع العربي، الأردن.
12. بدوي، السيد احمد، 1994، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الإسكندرية.
13. برو، فيليب، 1998، علم الاجتماع السياسي، المؤسسة الجامعية، بيروت.
14. بريتشارد، إيفانز، 1960، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة أحمد أبو زيد، منشأة المعارف، القاهرة.

15.بسيوني، محمد، 1993، إبداع الفن وتذوقه، دار المعارف، القاهرة.
16.بسيوني، محمد، 1985، صور التربية الفنية، عالم الكتب، القاهرة.
17.بسيوني، محمد، 1960، أصول التربية الفنية، دار المعارف.
18.بن بني، مالك، 1984، مشكلة الثقافة، دار الفكر للنشر والتوزيع، دمشق.
19.الترمايني، عبد السلام، 1984، الزواج عند العرب في الجاهلية وفي الإسلام، عالم المعرفة، عدد رقم (80).
20.جروان، فتحي، 1999، تعليم التفكير، مفاهيم وتطبيقات، العين، الإمارات، دار الكتاب الجامعي.
21.الجلبي، علي، 1989م، المجتمع والثقافة الشخصية، دار نشر الثقافة.
22.جودي، الحرصين، 1999، ابتكارات العرب في الفنون، دار المسيرة، عمان.
23.حداد، يوسف، 1985، المجتمع والتراث الفلسطيني، مركز الأبحاث الفلسطيني.
24.حسين، محي الدين أحمد، 1981، القيم الخاصة لدى المبدعين، دار المعارف، القاهرة.
25.الحفناوي، عبد الحميد محمد، 1977، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، مكتبة الإسكندرية.
26.الحفني، عبد المنعم، د.ت، الموسوعة الفلسطينية، دار ابن زيدون، لبنان.
27.الخطيب، محمد، 1999، الأنثروبولوجيا دراسة المجتمعات البدائية، منشورات علاء الدين، لبنان.
28.الخوالدة، محمد، 1993، التربية والمجتمع والتنمية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين.
29.دغمش، جمال، 1984، أيديولوجيا العرف الدولي وهندسته، دار الفرقان، عمان.
30.ذياب، فوزية، 1980، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت.
31.راجح، أحمد عزت، 1975، أصول علم النفس، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية.

32.الرشدان، عبد الله، 2002، تاريخ التربية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان.
33.الرشدان، عبد الله، 1999، علم اجتماع التربية، دار الشروق، عمان.
34.الرشدان، عبد الله، نعيم جفيني، 1994، مدخل إلى التربية والتعليم، عمان، الأردن.
35.روس، جاكلين، 2001، الفكر الأخلاقي المعاصر، عويدات للنشر والتوزيع، بيروت.
36.الزعبي، خالد، د.ت، ندوة العرف العشائري بين الشريعة والقانون.
37.الزقزوقي، مفيدة خالد، 2001، ملامح الزواج في المجتمع الانتقالي، طرابلس، بيروت.
38.زقوق، محمود، 1983، مقدمة في علم الأخلاق، دار التعلم، الكويت.
39.زيتون، عايش، 1994، أساليب تدريس العلوم، دار الشروق، عمان.
40.السقا، محمود، 1972، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة.
41.سليم، شاكر مصطفى، 1975، المدخل إلى الأنثروبولوجيا، مطبعة المعاني، بغداد.
42.سمعان، وهيب، د.ت، الثقافة والتربية عبر العصور.
43.السواح، فراس، 1997، الأسطورة والمعنى، دمشق.
44.السيد، سميرة أحمد، 1993، علم اجتماع التربية، دار الفكر العربي، القاهرة.
45.شطارة، أسعد سليم، 1995، أنشطة النظم الاجتماعية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت.
46.شواهين، خير، 2002، التفكير ومهارات البحث العلمي، دار الأمل.
47.صالح، عبد الرحمن، 1994، دراسات في الفكر التربوي الإسلامي، دار البشير، عمان.
48.صالح، قاسم حسن، 1986، الإبداع في الفن، دار الشؤون القانونية العامة، بغداد.

49. عالية، سمير، 1997، نظام الدولة، القضاء والعرف في الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات.
50. عامري، محمد حسن، 1989، الأنثروبولوجيا العامة، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية.
51. عبد الحميد، جابر، 1996، دراسات نفسية في الشخصية، دار المعارف، القاهرة.
52. عبد الدايم، عبد الله، 1976، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، عمان.
53. عبد الرزاق، أسعد، د.ت، طرق تدريس التمثيل، وزارة التعليم العالي، العراق.
54. عبد الصمد، محمد كامل، د.ت، موسوعة غرائب المعتقدات والعادات، الدار العربية للكتاب، مصر.
55. عبد الله، محمد، 2000، أساطير عابرة للحضارات، القاهرة.
56. عبيدات، سليمان أحمد، د.ت، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الأردني، المؤسسة المصرية، طرابلس، لبنان.
57. علي، سعيد إسماعيل، 1987، الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة كتب عالم المعرفة، مطابع الرسالة، الكويت.
58. عمران، محمود سعيد، وآخرون، 1999، النظم السياسية عبر العصور، دار النهضة العربية، بيروت.
59. عيد، بدر، يحيى موسى، 2000، أصول علم الإنسان، الإسكندرية.
60. غيث، محمد عاطف، 1962، مقدمة في علم الاجتماع، دار المعارف، مصر.
61. غيث، عاطف، 1979، قاموس علم الاجتماع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
62. فريز، حسني، وآخرون، 1969، حضارات العصور القديمة والوسطى، وزارة التربية والتعليم.
63. كامل، جوزيف، 1999، قوة الأسطورة، ترجمة حسن صقر، ط1، دمشق.
64. الكيلاني، ماجد عرسان، 1991، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية.
65. الكيلاني، ماجد عرسان، 1978، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، المطابع التعاونية، عمان.

66. ليبس، بوليس، 1988، بداية الثقافة الإنسانية في أصل الأشياء، ترجمة كامل إسماعيل، دمشق.
67. مدبولي، جلال، 1984، دراسات في الثقافة والمجتمع، المكتب الجامعي، المدينة الإسلامية.
68. مدكور، عبد الحميد، 1990، دراسات في علم الأخلاق، دار العلوم، القاهرة.
69. ميشر، أدنستين، 1971، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية، القاهرة.
70. النابلسي، الشيخ عباس، 2002، المدين والعناد، جريدة النهضة اللبنانية.
71. ناصر، إبراهيم، 2005، أسس التربية، دار عمان للنشر، عمان، الأردن.
72. ناصر، إبراهيم، 1996، التربية الدينية المقارنة، دار عمان، عمان.
73. ناصر، إبراهيم، 1992، علم الاجتماع التربوي، دار الجليل، عمان.
74. ناصر، إبراهيم، 1983، التربية وثقافة المجتمعات، دار الفرقان، عمان.
75. ناصر، إبراهيم، 1982، الأنثروبولوجيا الثقافية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان.
76. نبيل، عبد الهادي، 2000، نماذج تربوية تعليمية معاصرة، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، الأردن.
77. النجيجي، محمد ليس، 1981، في الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية للتربية، مصر.
78. نصار، محمد، 1982، دراسات في فلسفة الأخلاق، القاهرة.
79. نقولا، قسعندسي، 1976، الوسائل في عملية التعلم والتعليم، المطابع التعاونية، عمان.
80. هندي، صالح، 1995، دراسات في الثقافة الإسلامية.
81. مدبولي، جلال، 1984، دراسات في الثقافة والمجتمع، المكتب الجامعي، المدينة الإسلامية.
82. ليبيس، بوليس، 1988، بداية الثقافة الإنسانية في أصل الاستثمار، ترجمة كامل إسماعيل، دمشق.

83.مدكور، عبد الحميد، 1990، دراسات في علم الأخلاق، دار العلوم، القاهرة.
84.ميشر، آرنست، 1971، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حكيم، المكتبة المصرية، القاهرة.
85.وصفي، عاطف، 1995، الثقافة الشخصية، دار المعارف، القاهرة.
86.وصفي، عاطف، 1997، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف، القاهرة.
87.يالجن، مقداد، 1996، دور التربية الأخلاقية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، السعودية.
88.القرضي، محمد بن أحمد، (1967)، الجامع لأحكام القرآن، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

للنشر والتوزيع

للنشر والتوزيع

الثقافة
وعناصرها

مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - ش. السلط - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: 96264632739+ - خلوي: 962795651920+
ص.ب. 8244 عمان 11121 الأردن
الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - شارع الملكة رانيا العبد الله
مقابل كلية الزراعة - مجمع سمارة التجاري
Email: Moj_pub@yahoo.com - info@muj-arabi-pub.com
www.muj-arabi-pub.com

دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكنيسة - مقابل كلية القدس
هاتف : 96265713906+ فاكس : 96265713907+
جوال : 797950880-00962
الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - شارع الملكة رانيا العبد الله
مقابل كلية الزراعة - مجمع سمارة التجاري
هاتف : 96265347917+ فاكس : 96265347918+
info@al-esar.com - www.al-esar.com

9789957833961

Bibliotheca Alexandrina
1241871